بسم الله الرحمن الرحيم


جامعة اليرموك

كلية الآداب

قسم التاريخ


# دولة المماليك الأولى في مصر والشام في عهد السلطان الأشرف شعبان بن حسين

(٧٦٤-٧٧٨هـ/ ١٣٦٢-١٣٧٧م)


اعداد الطالب

**عدنان علي طه شطناوي**

اشراف

**الدكتور نعمان محمود جبران**



قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في جامعة اليرموك

تخصص التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.

١٤٢٠هـ/ ٢٠٠١م

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة اليرموك

كلية الآداب

قسم التاريخ

# دولة المماليك الأولى في مصر والشام في عهد السلطان الأشرف شعبان بن حسين

## (٧٦٤-٧٧٨هـ/ ١٣٦٢-١٣٧٧م)

اعداد الطالب

**عدنان علي طه شطناوي**

اشراف

**الدكتور نعمان محمود جبران**

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في جامعة اليرموك تخصص التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.

لجنة المناقشة

د. نعمان محمود جبران ............................ مشرفاً ورئيساً

أ.د. يوسف حسن غوانمة ............................ عضواً

د. سلمان عبد الخرابشة ............................ عضواً

١٤٢٠هـ/ ٢٠٠١م

بسم الله الرحمن الرحيم

# قائمة الرموز والمختصرات

ص: الصفحة

ج: الجزء

مج: المجلد

هـ: التاريخ الهجري

م: التاريخ الميلادي

ع: العدد بالنسبة للدوريات

ط: الطبعة

ت: تاريخ الوفاة

ق: القسم

ورقة: تستخدم بدلاً من صفحة في المخطوطات

أ: وجه الورقة

ب: ظهر الورقة

vol: volume
p: page
op.cit.,: in the work cited

# إهـــــداء

الى والدّي

إخواني

أخواتي......

محاولة للوفاء لبعض ما قدموه.

عدنان

# شكر وتقدير

يسرني أن أتقدم بجزيل الشكر وخالص التقدير إلى أستاذي الفـــاضل الدكتور نعمان محمود جبران الذي تفّضل بالاشراف على هــذه الرســالة، وذلك لما تحلى به من روح علمية طيبة، ولما أبداه لي من رعاية وما قدمه من توجيهات صائبة أسهمت في اخراج الرسالة في هذا الشكل.

كما أقدم شكري وتقديري لكل من الأستاذ الدكتـــور يوســف حســن غوانمة والدكتور سليمان عبد الخرابشة لتفضلهما بقـــراءة فصــول هــذه الرسالة وإبداء ملاحظاتهما عليها.

# محتويات البحث

# محتويات الملاحق والخرائط

# المقدمة

يعد تاريخ دولة المماليك في عهد السلطان الأشرف شعبان بن حسين في مصر وبلاد الشام أحد أهم زوايا دولة المماليك الأولى في الفترة المتأخرة من حكمهم للمنطقة.

فمنذ وفاة الناصر محمد بن قلاوون، استقر على عرش دولة المماليك مجموعة من أولاده وأحفاده يتعاقبونه واحداً بعد الآخر مدة ثلاث وأربعين سنة (٧٤١-٧٨٤هـ/ ١٣٤٠-١٣٨٢م)، وبلغ عدد هؤلاء السلاطين الذين حكموا مصر وبلاد الشام من بيت الناصر محمد ثمانية أولاد وأربعة أحفاد، ومن بين أحفاد الناصر محمد احتل السلطان الأشرف شعبان المرتبة الثانية في حين كان ترتيبه الثالث والعشرين ضمن تسلسل سلاطين دولة المماليك الأولى. ويتميز عهد هؤلاء السلاطين بصغر سن السلطان، وقصر مدة حكمه لسهولة خلعه على يد أمراء المماليك الكبار، ولظهور نفوذ الأتابكة ظهوراً واضحاً واشتداد التنافس بين الأمراء على النفوذ وجعلهم السلطان ألعوبة في أيديهم يعزلونه أو يبقونه حسب مشيئتهم. ولذلك ضعفت دولة المماليك بعد وفاة الناصر محمد واضطربت أحوالها وكثرت الفتن والقلاقل في جميع أرجائها.

وتكمن أهمية هذا البحث في أنه يسلط الضوء على بعض من جوانب شخصية السلطان الأشرف شعبان، وعن دوره في مجمل الأحداث التي جرت بالدولة. كذلك يصور لنا مجتمع المماليك آنذاك وهي كما ذكرنا سابقاً الفترة المتأخرة من حياة دولة المماليك الأولى.

وهي بلا شك فترة حافلة بالأحداث السياسية، فكثرة الفتن والثورات الداخلية التي سببها تنافس الأمراء المماليك، الى جانب التهديد الخارجي المتمثل بالحملة الصليبية التي قادها ملك قبرص بطرس الأول لوزنيان على مدينة الاسكندرية وما تبعها من هجمات على المدن الساحلية

لبلاد الشام – هذه الأحداث مجتمعة – الى جانب الفساد الذي أصاب المؤسستين العسكرية والإدارية في تلك الفترة ساعد على عدم استقرار الأحوال الاقتصادية للبلاد وضعف الدولة واختلال أركانها ومن ثمّ سقوط السلطان الأشرف شعبان صريعاً بعد أربعة عشر سنة من حكمه لدولة المماليك.

وقد حاولت جمع المعلومات المبعثرة في بطون الكتب، وتطلب ذلك الكثير من الجهد والمثابرة، وعلى الرغم من قلة المعلومات وشحها في بعض جوانب دولة السلطان الأشرف شعبان، فقد استطعت أن أجمع مادة ساعدتني في كتابة هذا البحث الذي أرجو أن يكون وافياً.

ولذلك ركّز البحث على ما كتبه المؤرخون المعاصرون لتلك الفترة والمتأخرون عنها وعلى ما كتبه بعض الرحالة الذين زاروا المنطقة والمؤرخين المحدثين.

أما الخطة التي اعتمدت عليها في هذا البحث فكانت على النحو التالي:

جرى تقسيم البحث الى خمسة فصول وخاتمة سبقها مقدمة وتمهيد.

ففي التمهيد تناولت نسب السلطان الأشرف شعبان ومولده ونشأته، ثم الظروف السياسية التي كانت سائدة آنذاك قبل وبعد خلع المنصور محمد بن حاجي، ومن ثم المميزات التي تهيأت في شخصية السلطان الأشرف شعبان، والتي ساعدت على اجتماع كلمة كبار الأمراء عليه وتوليه للسلطنة. مع بيان الدور الكبير الذي لعبه الأمير يلبغا العمري أتابك الجيش في مجرى تلك الأحداث.

أما الفصل الأول فيتطرق الى اضطراب الحياة السياسية في عهد السلطان شعبان في كل من مصر وبلاد الشام والبلاد الواقعة تحت نفوذ دولته كالحجاز واليمن وبلاد النوبة. ويصوّر أهم الملامح السياسية لعهده مع بيان أبرز الفتن والثورات التي حدثت في مصر مثل فتنة الأمير طيبغا الطويل، ومحاولة الأمير يلبغا العمري أتابك الجيش خلع السلطان شعبان وتنصيب أخيه أنوك

سلطاناً مكانه، حتى يسهل عليه حكم الدولة، ومن ثم محاولة انقلاب المماليك اليلبغاوية الأجلاب على السلطان شعبان بقيادة الأمير أسندمر الناصري أتابك الجيش وما تبع حركتهم من اضطراب وفوضى كادت أن تهدد استقرار البلاد. ومحاولة الأمير ألجاي اليوسفي زوج أم السلطان شعبان وأتابك الجيش الاستئثار بالسلطة والحكم متجاهلاً السلطان شعبان وأمراء دولته.

أما بلاد الشام فجوها السياسي تميز بكثرة ثورات العربان (الأعراب) وأهمها ثورة الأمير حيار بن مهنا أمير عرب الشام، الذي استغل ضعف دولة المماليك المركزية في القاهرة وحاول الخروج عن الطاعة أكثر من مرة.

وبالنسبة لأمراء الحجاز الأشراف، وأمراء اليمن الرسوليين فقد دانوا بالولاء لدولة المماليك وتميزت العلاقة بينهما بالود والتبعية، أما بلاد النوبة فتم اخضاع أمرائها من بني الكنز بالقوة بعد أن تأكدت رغبتهم بالخروج عن طاعة دولة المماليك.

أما الفصل الثاني فعالجت فيه العلاقات الخارجية لدولة المماليك في عهد السلطان الأشرف شعبان مثل علاقة دولة المماليك مع مملكة أرمينية الصغرى والأيلخانية المغولية في فارس وبغداد، وبلاد القفجاق، والدولة البيزنطية، ومملكة سلاجقة الروم، والأراتقة في مدينة ماردين، ودولة التركمان وسنجار والدول الأفريقية الشمالية والأندلس. وهذه العلاقات يعدُّ بعضها استمراراً للعلاقات التي ارتبطت بها دولة المماليك مع الدول قبل ذلك منذ أيام أسلافه السلاطين وبعضها الآخر كان نتيجة لما استجد من ظروف فيما بعد في كل من دولة المماليك نفسها وهذه الدول.

وبالنسبة الى الفصل الثالث فتناولت فيه علاقة دولة المماليك في عهد السلطان شعبان مع الصليبيين. تلك العلاقة التي تميزت بالعداء حيناً والصفاء حيناً آخر، فالصليبيون كانوا يتحينون

الفرص لإعادة السيطرة على بيت المقدس والساحل الشامي لكي يعيدوا أمجادهم السابقة التي سلبهم إياها المماليك بعد أن طردهم من المنطقة الأشرف خليل سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م.

وقسّم الفصل الى ثلاث محاور رئيسية. الأول:- يبين الأطماع الصليبية تجاه مصر والشام ويظهر بعض الحملات الصليبية التي وجهتها أوروبا الى المنطقة.

أما المحور الثاني:- فيصور الحروب التي خاضها المماليك لصد هذه الهجمات الصليبية على السواحل المصرية والشامية ودور المماليك في حماية المنطقة من خطرهم المتكرر على الثغور والمدن المملوكية. أما المحور الثالث وهو الأهم فيتمركز حول الحملة الصليبية التي قادها ملك قبرص بطرس الأول لوزنيان على مدينة الاسكندرية سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م في محاولة منه للوصول الى الهدف الصليبي المنشود وهو بيت المقدس. فالاستراتيجية التي قامت عليها فكرة الحملة هي تقويض سلطة المماليك في مصر حتى يسهل الوصول الى بيت المقدس. وقد بينت أسباب اختيار مدينة الاسكندرية كهدف للحملة، وكذلك استعدادات الملك بطرس قبيل الحملة، وخط سيرها، ومقدار الضرر الذي أصاب المدينة، وردة فعل السلطان شعبان ورجال دولته، ومن ثم النتائج التي ترتبت عن هذه الغزوة على الصعيدين الإسلامي والصليبي، وصدى هذه الوقعة في العالمين الإسلامي والغربي.

وتناولت في الفصل الرابع الحياة الاقتصادية في عهد السلطان شعبان من حيث التجارة الداخلية والخارجية، ومدى تأثر التجارة بالأحداث الداخلية والخارجية كالفتن والثورات، واعتداءات الصليبيين على مدينة الإسكندرية، وما تبع ذلك من تعطيل لسبل التجارة وقلة

الواردات. وكذلك دراسة الأسواق التجارية وأهم السلع والأسعار والعوامل المؤثرة فيها، والضرائب والنقود والأوزان والمقاييس والمكاييل، الى جانب الزراعة والصناعة.

وخصصت الفصل الخامس لدراسة أسباب فساد الحكم في عهد السلطان شعبان من حيث مؤسسة الجيش والمؤسسة الإدارية المتمثلة بالأمراء ورجال القضاء. وانعكاس هذا الفساد على دولة المماليك. ثم دراسة ظروف مقتل السلطان شعبان، والذي يعني بداية سقوط دولة المماليك الأولى فعلية. بانتقال الحكم الى المماليك الجراكسة بعد ست سنوات من مقتله.

# تمهيد: الأشرف شعبان نسبه ونشأته وتوليه السلطنة

ولد السلطان الاشرف شعبان بقلعة الجبل في القاهرة سنة ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م[1] وهو ابن الامير حسين بن الناصر محمد بن قلاوون، والذي توفي نتيجة إصابته بمرض الطاعون في شهر ربيع الاخر سنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢ م[2]، وكان الأمير حسين يلقب بالملك الأمجد من غير أن يتولى السلطنة، ولذا فالسلطان شعبان هو أول سلطان يتولى السلطة من أسرة قلاوون من غير أن يتسلطن والده قبله[3]، ويعود ذلك لأسباب تتعلق باضطراب في تكوين شخصية الأمير حسين نفسه وميله إلى الحدة وارتكاب المعاصي[4]، حتى قيل أنّه سقي السم ولم

---

[1] ابن دقماق، صارم الدين ابراهيم بن ايدمر العلائي ، (ت٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م) ، الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين ، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي ،عالم الكتب ، بيروت ، ط ١، ١٩٨٥، ج٢ ،ص٢٤٢ . المقريزي تقي الدين احمد بن علي ، (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م ) السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، ١٩٥٦، ج٢،ق٣،ص٩٠٣-ج٣،ق١، ص٢٨٢. Irwin,Robert. The Middle East in the Middle Ages, The Early Mamluk Sultanate, 1250-1382. Croom Helm. London. P. 144.

[2] الذهبي ، شمس الدين محمد بن احمد ، (٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م) ، ذيول العبر في خبر من عبر ، ( الذيل الثاني للحسني).تحقيق أبو هاجر زغلول ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط١،١٩٨٥،ج٤ ،ص ٢٠٠. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد،( ت٨٠٨هـ /١٤٠٥م)، تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،ط١ ، ١٩٩٢م، مج ٥، ص ٥٩٣. القاضي عبد الباسط، زين الدين بن عبد الباسط الفرسي ،(٩٢٠هـ/ ١٥١٤م) ، نيل الأمل في ذيل الدول ، مخطوط مصور ميكروفيلم ، مركز الوثائق والمخطوطات، مكتبة الجامعة الاردنية ، شريط رقم (١٠٩٠) ،ج١ ، ورقة ٧٢/أ .

[3] المقريزي ، السلوك ، ج٣،ق١ ،ص٨٣. الملطي، عبد الباسط بن خليل بن شاهين، نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين ، تحقيق محمد كمال الدين ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، ط١،١٩٨٧م، ص ١٠٨. Holt, P.M . The Age of the Crusades in the Near East from the Eleventh Century to 1517 . Longman London.P.112.

[4] ابن إياس ، محمد بن احمد الحنفي ،(ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، حققها وكتب لها المقدمة محمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ، ط ٢، ١٩٨٢م، ج١ ، ق١ ،ص ٢١٣. القحطاني ، راشد سعد راشد، أوقاف السلطان الأشرف شعبان على الحرمين ، المملكة العربية السعودية، الرياض، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ص٥٢.

يمت ميتة طبيعية مما جعل بعض الأمراء يرحبون بخبر وفاته، حتى تخلو الساحة السياسية لهم لخوفهم من رعونته وجبروته فيما إذا تولى حكم السلطنة.[1]

كان الأشرف شعبان هينا لينا، كثير البر بوالدته خوند بركة[2]، وكان يحب الخير وأهل الخير، مقربا العلماء والفقهاء والفقراء، معتدلا بأمور الشريعة، وكان ملكا جليلا شجاعا مهابا، حسن الخلق والخلق. محبا لرعيته.[3]

ولحسن سيرته وسلوكه أحبه الناس وألفوه، فكانت الظروف مهيأة أمامه لاعتلاء عرش السلطنة.

فخلال النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، ازداد الموقف السياسي اضطرابا، ولم تعد قضية وراثة العرش كما كانت سابقا[4]، فإذا كانت أسرة قلاوون استطاعت الاحتفاظ بعرش السلطنة فإن ذلك لم يأت من قناعة الأمراء بمبدأ الوراثة وإنما كان

---

(1) ابن كثير، أبو الفداء الدمشقي، (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)، البداية والنهاية في التاريخ، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٤م، ج١٤، ص٣١٩.

(2) خوند بركة بنت عبدالله: أم السلطان الأشرف شعبان، تزوجت من الأمير ألجاي اليوسفي في سلطنة ولدها، توفيت سنة ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م. ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني، (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حققه وقدم له ووضع فهارسه محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، مطبعة المدني، القاهرة، ج٢، ص٧. وخوند كلمة فارسية بمعنى سيد أصلها خداوند. أنظر أدي شير، معجم الألفاظ الفارسية المعربة، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٠، ص٥٨.

(3) الخالدي، بهاء الدين محمد بن لطف الله العمري، (ت بعد سنة ٨٢٥هـ/ ١٤٢١م)، المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الإنشاء، نسخة مصورة عن المكتبة الأهلية في باريس، مركز الوثائق والمخطوطات، مكتبة الجامعة الأردنية، شريط رقم (١٠٧٠)، ورقة ٧٨/أ. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢م، ج١١، ص٦٥.

(4) ريمون، أندريه، القاهرة تاريخ حاضرة، ترجمة لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٩٤م، ص١٣١.

احتراماً لأساتذتهم المتوفين، كما أن بقاء ابن السلطان في السلطنة يرجع الى شخصيته أو كثرة أنصاره أو اختلاف الأمراء انفسهم على اختيار واحد من بينهم لتولي السلطنة. [1]

ونظراً لأن السلاطين الذين استلموا السلطنة كانوا صغاراً في السن لا يستطيعون إدارة شؤون الدولة بأنفسهم فإن كبار الأمراء سيطروا على الوضع السياسي في السلطنة كما فعل الأمير يلبغا العمري[2] مع السلطان المنصور محمد[3]، حيث انفرد بشؤون السلطنة وتدبير أمورها دون السلطان المنصور الذي لم يتجاوز السنة الخامسة عشرة من عمره[4]، فضلاً عن سلوكه السيء الذي سلكه في سلطنته وعدم الاكتراث بأمور الدولة [5]. فقد أشيع عنه أمور منكرة كمخالطته للنساء والفسق مع الجواري وغير ذلك[6]، ولهذا أجمع كبار الأمراء على خلعه كالأمير يلبغا

---

(1) طرخان، ابراهيم علي، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٠م، ص١٠.

(2) الأمير يلبغا بن عبدالله العمري أحد الأمراء الكبار المقدمين، تولى الأتابكية منذ سلطنة السلطان حسن بن الناصر محمد وحتى حكم السلطان شعبان، توفي سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م. أنظر ابن حبيب، الحسن بن عمر، (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)، درة الأسلاك في دولة الأتراك، مخطوط مصور ميكروفيلم في مركز الوثائق والمخطوطات، مكتبة الجامعة الأردنية، شريط رقم (٥٣٩)، ج٣، ورقة ٥١/ب.

(3) السلطان المنصور محمد بن حاجي تولى السلطنة سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م وخلعه الأمير يلبغا في سنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م لسوء تصرفاته. أنظر ترجمته ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٣. إبن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٥٨٠.

(4) ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٥٣٨. الخالدي، المقصد، ورقة ٧٦/ب.
Holt: OP. Cit., P. 125.

(5) العيني، بدر الدين محمود بن أحمد، (ت ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م)، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، تحقيق فهيم شلتوت ومحمد مصطفى زيادة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧م، ص٢١٦. ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٧١٦.

(6) ابن حجر، الدرر، ج٥، ص٢١٣.

العمري والأمير طيبغا الطويل[1]، وتم لهم ذلك في يوم الثلاثاء ١٥ شعبان سنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م. [2] وأقاموا في السلطنة ابن عمه الملك شعبان بن حسين وله من العمر عشر سنوات[3]، ولقبوه بالملك الأشرف أبو المفاخر زين الدين[4] بقلعة الجبل[5] بحضور الخليفة العباسي أبي عبدالله محمد المتوكل على الله[6] وقضاة المذاهب الأربعة وكبار الأمراء المماليك، فسارت البُرد[7] بخبر السلطان الجديد وأخذت البيعة له من جميع النيابات.[8]

---

(١) الأمير طيبغا بن عبدالله الناصري المعروف بالطويل توفي سنة ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م. أنظر ترجمة ابن حجر، الدرر، ج٢، ص٣٣٢. ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق محمد أمين ونبيل محمد عبدالعزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م، ج٧، ص٣٦. وانظر فتنته لاحقاً.

(٢) الذهبي، ذيول العبر، ج٤، ص٢٠٠. ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص٣٢٣.

(٣) ابن دقماق، الجوهر، ج٢، ص٢٢٠. الخالدي، المقصد، ورقة ٧٦/ب. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٨٣.

(٤) ذكر أغلب المؤرخين كنيته أبو المعالي كالمقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٨٣. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٣. القاضي عبد الباسط، نيل الأمل، ج١، ورقة ٧٢/ب. أما ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٢٠. فذكره بكنية أبي المفاخر. وكذلك السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن محمد، (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧، ج٢، ص١٢١.

(٥) قلعة الجبل. قلعة عظيمة تشرف على القاهرة والنيل بناها الطواشي قراقوش سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م. المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٨، ج٣، ص٣٤.

(٦) الخليفة أبو عبدالله محمد المتوكل على الله، ولي الخلافة بعهد من أبيه سنة ٧٦٣هـ/ ١٣٦١م، وتوفي سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٧٦م، القلقشندي، أحمد بن علي، (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، مآثر الأنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبدالستار أحمد فراج، مكتبة عالم الكتب، ص١٦٧. السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق ابراهيم صالح، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٧، ص٥٩٢.

(٧) البُرد: جمع بريد والبريد معناها دابة البريد أو حصان البريد ثم ناقل البريد (الساعي) وأصبحت تدل على النظام نفسه بعد ذلك. هارتمن "مادة بريد" دائرة المعارف الإسلامية، أصدرها هارتمن وآخرون، إعداد وتحرير ابراهيم زكي وآخرون، القاهرة، مج٧، ص١٧٩.

(٨) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٨٣. ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٢٠.

وبهذا أتيحت الظروف الملائمة لوصول السلطان الأشرف شعبان الى عرش السلطنة بفضل ما يلي:-

أولا: المنافسات الشديدة بين كبار الأمراء حول منصب السلطنة في ذلك الوقت.

ثانيا: إجماع هؤلاء المتنافسين على شخص السلطان شعبان لصغر سنه، حتى يستطيعوا التحكم في شؤون الدولة المختلفة، وهذا السن أوجد عدة مميزات ايجابية في شخصيته من وجهة نظرهم تمثلت بكونه لا يزال محمود السيرة، حسن الأخلاق، مما يبعد عنه انتقادات العلماء والفقهاء الذين رفضوا وانتقدوا تصرفات بعض السلاطين لسوء أخلاقهم.[١]

وبذلك وصل السلطان الأشرف شعبان عرش السلطنة وعمره لا يتجاوز عشر سنوات،[٢] من دون مراعاة لرأي الخليفة العباسي الذي اقتصر دوره على اضفاء طابع الشرعية على حكمه دون أي تدخل في رفضه أو قبوله[٣]، وبناء على رغبة كبار الأمراء وبإشارة الأمير يلبغا الأتابك[٤] الذي يعود له الفضل الأول في إقامته سلطانا للدولة، مما يظهر مدى النفوذ والمكانة التي تمتع بها بين الأمراء المماليك.

وقد تميزت شخصية الأمير يلبغا بالجبروت والتسلط في إدارة شؤون الدولة حتى أن معظم القرارات التي كان يتخذها السلطان الأشرف شعبان اقترنت برأي الأمير يلبغا في الأربع سنوات

---

[١] الحجي، حياة ناصر، "الأحوال الداخلية في سلطنة الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون (٧٦٤-٧٧٨هـ/ ١٣٦٢-١٣٧٦م)، مجلة عالم الفكر، ١٩٨٣، مج١٤، ع٣، ص١٦٢.

[٢] ابن دقماق، الجوهر، ج٢، ص٢٢٠. الخالدي، المقصد، ورقة ٧٦/ب. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٨٣.

[٣] طرخان، مصر، ص١٢.

[٤] الأتابك: لفظ مؤلف من كلمتين تركيتين (أتا) بمعنى الأب و (بك) لقب تركي بمعنى الأمير، والأتابك في الاصطلاح هو مربي الأمير ومدبر المملكة. القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٧، ج٤، ص١٨.

الأولى من حكم السلطان الأشرف شعبان[1]، وأصبح يلبغا السلطان في الباطن[2]، لا سيما بعد أن استكثر من شراء المماليك الأجلاب.[3] الذين بلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف مملوك جعل منهم نواباً لأقاليم الدولة ليكونوا له عوناً وسنداً ضد منافسيه، أما السلطان الأشرف شعبان فكان سلطاناً بالاسم مجرداً من الصلاحيات وامتيازات السلطة.[4] وهناك إشارة زمن السلطان حسن[5] تدل على قيام الأمير يلبغا الأتابك وبعض المماليك الجراكسة بمحاولة فاشلة لقتل السلطان حسن وتنصيب أخيه حسين سلطاناً، لكن المحاولة باءت بالفشل وأسفرت عن اعتقال المشاركين فيها، في حين استطاع الأمير يلبغا تدارك الوضع وكان الأسرع في قتل السلطان حسن قبل أن يقتله، ونّصب المنصور محمد سلطاناً بدل الأمجد حسين.[6] ويبدو أن فكرة إقامة سلطانٍ صغيرٍ بالحكم كانت تتيح للأمير يلبغا مزيداً من الصلاحيات والنفوذ، لذلك استبعد الأمجد حسين عن السلطة ليتمكن من إحكام قبضته على أمور الدولة. ويضيف المؤرخ ابن تغري بردي بقوله: "أن الأمير يلبغا كثر تأسفه على موت الأمير حسين وأنه كان بنيته إقامته سلطاناً بعد أن يخلع السلطان المنصور محمد بن حاجي لولا أنه توفي

---

(1) ابن خلدون، العبر، مج٥، ص ٥٣٩. Irwin: OP. Cit., P. 145

(2) ابن حبيب، درة الأسلاك، ج٣، ورقة ٥١/ب. ابن حجر، الدرر، ج٥، ص٢١٣.

(3) المماليك الأجلاب: هم المماليك الذين يجلبون من بلادهم كباراً وكانوا يعملون هناك بالمهن المختلفة ولم يكونوا على دراية تامة بالفروسية. المقريزي،الخطط ، ج٢، ص٥٤.

(4) ابن حبيب، درة الأسلاك، ج٣، ورقة ٥١/ب. ابن حجر، الدرر،ج٥، ص٢١٣. ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبي بكر الأسدي الدمشقي، (ت ٨٥١هـ/ ١٤٤٨م)، تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٩٤، مج٣، ص٣٠٥-٣٠٦.

(5) السلطان الناصر حسن بن قلاوون تولى السلطنة مرتين الأولى عام ٧٤٨هـ/١٣٤٧م والثانية عام ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م. وتوفي عام ٧٦٢هـ/١٣٦٠م. أنظر ترجمته ابن تغري بردي، مورد اللطافة في ذكر من ولي السلطنة والخلافة، مخطوط بمكتبة جامعة برنستون، نيوجرسي تحت رقم ٥٩٧، ويوجد منه نسخة مصورة في مركز الوثائق والمخطوطات بالجامعة الأردنية تحت رقم ١٠٠، ورقة ٧٦/ب.

(6) الخالدي، المقصد، ورقة ٧٦/ب. ابن تغري بردي، المنهل، ج٥، ص١٦٨.

مما دعاه لسلطنة ولده الأشرف شعبان[1]، نستخلص من هذه الرواية أن الأمير يلبغا هم بسلطنة الأمجد حسين لولا وفاته، فولى ولده السلطان شعبان بعد أن أيقن بضرورة خلع المنصور محمد لسوء تصرفاته.[2]

وهكذا نصب الأشرف شعبان سلطانا على دولة المماليك، ولكن بدون صلاحيات أو سلطة، بينما السلطة الفعلية تركزت بيد فئة صغيرة من كبار الأمراء أمثال الأتابك يلبغا العمري والأمير طيبغا الطويل أمير سلاح[3] اللذان استغلا منصبهما على حساب مصلحة البلاد والعباد[4] مما أدخل الدولة مجددا في نطاق الفتن والمؤامرات وأثرت سلبا على عملية الاستقرار والنماء، فأصبحت القاهرة مسرحا لحركات تمرد دائمة وشهدت تغيرا سريعا في الأشخاص كنتيجة حتمية لهذه الفتن.[5]

---

(1) المنهل، ج٥، ص١٦٩.

(2) ابن تغري بردي، المنهل، ج٥، ص١٦٩. القحطاني، أوقاف، ص٥٢.

(3) أمير سلاح: إحدى الوظائف العسكرية في الدولة المملوكية، يختص بحمل سلاح السلطان عند خروجه في الحملات العسكرية والمواكب المختلفة. القلقشندي، صبح، ج٤، ص١٨،١٩.

(4) ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٥٤١. ابن تغري بردي، المنهل، ج٧، ص٣٧.

(5) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٦٥. ابن حجر، الدرر، ج٥، ص٢١٣.

## الفصل الأول: اضطراب الحياة السياسية في عهد السلطان الأشرف شعبان

### أولاً: في مصر:

أ- فتنة الأمير طيبغا الطويل:

ب- ثورة الأمير يلبغا العمري:

جـ- فتنة المماليك اليلبغاوية الأجلاب:

د- فتنة الأمير ألجاي اليوسفي

### ثانياً: في بلاد الشام:

### ثالثاً: في الحجاز واليمن:

### رابعاً: في بلاد النوبة:

# الفصل الأول

## اضطراب الحياة السياسية في عهد السلطان الأشرف شعبان

بعد وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م،[١] دخلت دولة سلاطين المماليك الأولى في طور جديد من نظم الحكم، وذلك بسبب كثرة عدد السلاطين الذين اعتلوا العرش وصغر سنهم، وبسبب ظهور نفوذ الأتابكة بشكل جلي، واشتداد التنافس بين الأمراء على النفوذ، فالسلطان ألعوبة في أيديهم يعزلونه أو يبقونه على العرش حسب مشيئتهم. وكان مصير أولئك السلاطين الخلع أو النفي أو القتل، وبذلك ضعفت الدولة المملوكية واضطربت أحوالها وكثرت الفتن والقلاقل في جميع أرجائها. [٢]

ولم يكن عهد السلطان الأشرف شعبان أفضل من عهود أسلافه السلاطين مما أدى الى تدهور الوضع السياسي للسلطنة المملوكية في معظم مناطق نفوذها كمصر والشام والحجاز واليمن وبلاد النوبة.

### أولا: في مصر.

ازدادت الفتن والثورات في مصر في فترة حكم السلطان الأشرف شعبان والتي انتهت بقتله وتولية ولده السلطان علي مكانه، ومن هذه الفتن والثورات:

---

[١] ابن حبيب، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق محمد محمد أمين ومراجعة سعيد عبدالفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج٢، ص٣٢٥-٣٢٦. Holt: OP, Cit., P.121.

[٢] حسن، علي ابراهيم، تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٣، ١٩٦٧م، ص١٢٠-١٢١.

## أ- فتنة الأمير طيبغا الطويل:-

هو طيبغا بن عبدالله الناصري المعروف بالطويل، وهو احد خواص السلطان حسن ومن أكابرهم،[1] أمره السلطان حسن مع خشداشه[2] الأمير يلبغا العمري إمرة مائة وتقدمة ألف[3]، ووثق بهما فتآلفا، غير أنهما انقلبا عليه وقتلاه ونصبوا مكانه الملك المنصور محمد سلطانا ، وكان المنصور محمد ميالا للطرب والمجون فأصبح ألعوبة بأيديهما، وهما أصحاب الرأي في السلطنة[4]. وبعد سنتين من حكم المنصور محمد قام الأمير يلبغا العمري بعزله في ١٥ شعبان سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م ونصب مكانه الأشرف شعبان - ابن عمه - سلطانا في نفس اليوم[5]، فبدأ التنافس واضحا بين الأمير يلبغا والأمير طيبغا الطويل للإنفراد بشؤون السلطنة، وحتى أن العامة

---

(1) ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٥٤١. ابن قاضي شهبة، تاريخ، مج٣، ص٣٣٠. ابن تغري بردي، المنهل، ج٧، ص٣٦.

(2) خشداش. تعني الزميل في الخدمة والخشداشية في اصطلاح عصر سلاطين المماليك هم الأمراء الذين نشأوا مماليكا عند سيد واحد، فقامت بينهم رابطة الزمالة. المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٣٨٩.

(3) إمرة مائة وتقدمة ألف. رتبة من أعلى الرتب العسكرية عند المماليك يكون في خدمة صاحبها مائة مملوك ويتقدم صاحبها في الحرب ألف جندي من أجناد الحلقة. القلقشندي، صبح، ج٤، ص١٤. ابن كنان. محمد بن عيسى، (١١٥٣هـ/ ١٧٤٠م)، حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين، تحقيق عباس الصباغ، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٩٩١، ص١٠٧.

(4) ابن دقماق، الجوهر، ج٢، ص٢١٩. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٨٢-٨٣. ابن إياس، بدائع، ج١، ق١، ص٥٨٠-٥٨٢.

(5) ابن حجر، الدرر، ج٥، ص٢١٣. ابن إياس، بدائع، ج١، ق١، ص٥٨٢-٥٨٣.

لاحظوا ذلك وأخذوا يحذرون الأمير طيبغا الطويل بقولهم "يا طويل حسك من هـــذا القصـــير"[1]، قاصدين الأمير يلبغا.

ولما خرج الأمير طيبغا للصيد في العباسة[2] استغل الأمير يلبغا خروجه وأرسل اليه الأمير أقبغا العمري الحاجب[3] ومعه مرسوم سلطاني بتوليته نيابة السلطنة في دمشق، وحمل معه التقليد والتشريف[4]، وذلك في يوم الثلاثاء الثالث عشر من جمادى الآخرة سنة ٧٦٧هـــ/١٣٦٥م، فلمـــا وصل الحاجب الى الأمير طيبغا أطلعه على مضمون المرسوم، غير أن الأمير طيبغا كان مدركـــا لما في نية الأمير يلبغا، وهو إبعاده عن القاهرة ليستفرد يلبغا بالسلطة دونه فكان رده رفض قبوله التقليد. [5]

---

[1] ابن تغري بردي، المنهل، ج٦، ص٢٣٤- ج٧، ص٣٨. القاضي عبد الباسط، نيل الأمل، ج١، ورقة ٧٥/ب، ٧٦/ب.

[2] العباسة: بليدة أول ما يلقى القاصد لمصر في بلاد الشام بينها وبين القاهرة ٤٥ ميلا . ياقوت، شـــهاب الديـــن أبي عبدالله الحموي، (ت ٦٢٦هـــ/ ١٢٢٨م)، معجم البلدان، قدم له وصححه محمد عبدالرحمن المرعشـــلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٧، مج٣، ص٢٩١.

[3] الأمير أقبغا العمري الناصري عمل داوادارا عند الأمير يلبغا ثم عند السلطان الأشرف شعبان، توفـــي ســـنة بضع وسبعين وسبعمائة. ابن حجر، الدرر، ج١، ص٤٢٠.

[4] التقليد والتشريف: هو عبارة عن كتاب مختوم من السلطان موقع عليه عندما ينصب نواب النيابات. والتشريف هي ملابس خاصة ينعم بها السلطان على الأمراء حسب رتبهم وولاياتـــهم. أنظـــر القلقشـــندي، صبـــح، ج٤، ص٥٢-٥٤. البقلي، محمد قنديل، التعريفات بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصريـــة العامـــة للكتـــاب، القاهرة،١٩٨٣، ص٧٦. وانظر دهمان، محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكـــر المعاصر، بيروت، ط١، ١٩٩٠، ص٤٥-٤٧.

[5] ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٣٤٠. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١١٥.

عاد الحاجب وأخبر الأمير يلبغا بما جرى، فغضب وأرسل التشريف والتقليد بالنيابة مرة أخرى مع عدد من الأمراء للتأكيد عليه بضرورة تنفيذ أمر السلطان، وأوصاهم بالقبض عليه وإحضاره إن لم يعدل عن رأيه. (١)

ذهب الأمراء الى الأمير طيبغا فوجدوه قد عصى وثار وقال لهم "ليس بيني وبينكم إلا السيف"(٢) واستطاع استمالة أميرين منهم وهرب الآخرون وأخبروا الأمير يلبغا بما جرى، فركب الأمير يلبغا ومعه السلطان الأشرف شعبان والعساكر وتوجهوا الى قبة النصر(٣) ونصبوا كمينا لطيبغا، فلما طلع الفجر ظهر الأمير طيبغا وقواته، فاشتبك الطرفان، وهزم طيبغا وقبض عليه وعلى أصحابه وأرسلوا جميعا الى سجن الاسكندرية(٤)، وظلوا في السجن الى أن أفرج عنهم السلطان الأشرف شعبان في شهر رمضان سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م، فأخرج الأمير طيبغا الى القدس بطالا(٥) والبقية من أصحابه أخرجوا الى الشام متفرقين.(٦) مما تقدم نلاحظ أن الأمير يلبغا

---

(١) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١١٦. ابن إياس، بدائع، ج١،ق٢، ص٢٦.

(٢) ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٣٤٠. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١١٦.

(٣) قبة النصر: تقع شرقي خانقاه برقوق والجبل الأحمر وكانت زاوية لسكنى فقراء العجم، المقريزي، الخطط، ج٣، ص٦١٧.

(٤) ابن كثير، البداية، ج١٤،ص٣٤٠. ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٥٤٢. ابن دقماق، الجوهر، ج٢، ص٢٢٣. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١١٥-١١٧.

(٥) بطالا: البطال هو العاطل من الأجناد والأمراء عن أعمال الدولة ووظائفها وإقطاعاتها نتيجة غضب السلطان أو كبر السن أو الاضطرار الى الاعتكاف والاختفاء. دهمان، معجم، ص٣٥.

(٦) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٢٠-١٢١. القاضي عبد الباسط، نيل الأمل، ج١، ورقة ٨٠/ب. السخاوي، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن، (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م)، الذيل التام على دول الاسلام للذهبي، حوادث وتراجم للسنوات ٧٤٥-٨٥٠هـ، حققه وعلق عليه حسن اسماعيل مروة، مكتبة دار العروبة، الكويت، ودار ابن العماد، بيروت، ط١، ١٩٩٢، ص٢١٢.

رغب في التخلص من خشداشه طيبغا الطويل حتى يستفرد بالسيطرة على زمـــام الأمـور فـــي الدولة، وربما أيضا خوفا من ازدياد نفوذ طيبغا فيبدأ في منافسة يلبغا والتخلص منه وهذا يــبرهن بوضوح أن الأمير يلبغا بدأ يخطط من أجل تحقيق هذا الهدف وعمل على إخراج الأمير طيبغـــا الى الشام ليبعده عن مركز الحكم والنفوذ، ومن ثم التخلص منه نهائيا.

## ب- ثورة الأمير يلبغا العمري:

بعد أن تخلص الأمير يلبغا من منافسه الأمير طيبغا الطويل، مارس صلاحيات مطلقة فـــي الحكم دون أي معارض أو منافس، وأظهر مظاهر الترف والرفاهية له ولمماليكه اليلبغاويـــة،(١) لكن هذه المظاهر لم تستمر طويلا فسرعان مـــا انقســمت مماليكــه اليلبغاويــة أواخــر ســنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م بسبب سوء سياسة يلبغا نفسه، ذلك أنه قتل عددا كبيرا منهم، وساءت أخلاقـــه معهم بعد أن ازدادت قوته فأخذ يهين مماليكه اليلبغاوية وخاصة الأجـــلاب منـــهم، وبـــالغ فـــي معاقبتهم، وتنوع في تعذيبهم حتى على أدنى جرم وأيسر ذنب، فكتم هؤلاء الأجلاب الأمـــر فـــي نفوسهم وبيتوا النية في ضمائرهم للخلاص منه بشتى الوسائل، مما أدى الى تكاتفهم، فصاروا يـدا واحدة نحو هدف واحد وهو الخلاص من تسلط وظلم سيدهم الأمير يلبغا. (٢)

---

(١) ابن حبيب، درة الأسلاك، ج٣، ورقة ٥١/ب. ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٥٤٢. ابن تغري بردي، النجـوم، ج١١، ص٢٧. Irwin: OP, Cit., P. 147

(٢) ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٥٤٢. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٣٠. ابن إياس، بدائـــع، ج١، ق٢، ص٤٥،٥١.

اجتمع المماليك اليلبغاوية الى رؤوس النوب[1] لتدارس الموقف، فأشاروا عليـــهم بالتمـــهل وعرض شكواهم على الأمير يلبغا عله يرجع عن تصرفاته تفاديا لتأزم الوضع، وتم انتداب الأمير أسندمر الناصري[2] مع عدد من أمراء المماليك ومضوا الى الأمير يلبغا وحدثـــوه فـــي أمرهـــم وسألوه الرفق بهم، فأظهر الأمير يلبغا تعنتا أكبر من ذي قبل وتوعدهم بســـوء العاقبـــة، فعـــزم المماليك على التخلص منه من دون علم السلطان الأشرف شعبان، وتجهزوا لتنفيذ مهمتهم في ليلة الأربعاء الخامس من ربيع الآخر سنة ٧٦٨هـ/١٣٦٦م وبينما هم سائرون نحو معسكره بالطرانة وصل خبر خروجهم الى الأمير يلبغا الذي فر بخواصه وعدى نهر النيل نحو القاهرة[3].

قرر المماليك اليلبغاوية إعلام السلطان الأشرف شعبان بعزمهم الأطاحة بسيدهم الامير يلبغا العمري لكي يساعدهم في تنفيذ مهمتهم[4]، لكن السلطان شعبان عارضهم أول الأمر إلا انه ما لبث

---

(١) رؤوس النوب مفردها رأس نوبة النوب وهي إحدى وظائف أرباب السيوف ومهمة صاحبها الاشراف علـــى المماليك السلطانية وفض المناوشات بينهم اذا وقعت. أنظر القلقشندي، صبـــح، ج٤، ص١٨-١٩. الخـــالدي، المقصد، ورقة ١٢٤/ب-١٢٥/أ. الظاهري، غرس الدين خليل بن شاهين، (ت ٨٩٣هـــ/ ١٤٨٧م)، زبـــدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتـــب العلميـــة، بـــيروت، ط١، ١٩٩٧، ص٩٦.

(٢) الأمير أسندمر الناصري كان داودارا للأمير العمري ثم أصبح بعد مقتل الأمير يلبغا أتابكا للعسكر توفي سنة ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م. أنظر ترجمته ابن حجر، الدرر، ج١، ص٤١٣. ابن تغري بردي، الدليل الشـــافي علـــى المنهل الصافي، تحقيق فهيم محمد شلتوت، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج١، ص١٣٢. كذلك أنظر فتنته لاحقا.

(٣) ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٥٤٣. ابن دقماق، الجوهر، ج٢، ص٢٢٥. ابن تغري بردي، مورد اللطافـــة، ورقة ٧٧/ب.

(٤) الخالدي، المقصد، ورقة ٧٧/أ. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٣٢. ابن تغري بردي، مـــورد اللطافـــة، ورقة ٧٨/أ.

أن عدل عن رأية ورحب بالتخلص منه حسب قول المؤرخ ابن تغري بردي " لما في نفسه من الحزازة من حجر يلبغا عليه وعدم تصرفه في المملكة "[1].

توجه السلطان شعبان ومن معه من المماليك اليلبغاوية وعساكر مصر نحو ساحل نهر النيل ببولاق التكروري[2] وأقاموا بها ثلاثة أيام استعدادا لمهاجمة الأمير يلبغا وأعوانه، ولكنهم لم يجدوا مراكبا ليعبروا بها نحو جزيرة أروى[3] حيث يعسكر الامير يلبغا بقواته، عند ذلك أمر السلطان شعبان مماليكه السلطانية بجمع المراكب من شاطئ نهر النيل وأرسل في طلب دعم عسكري من أمراء الاسكندرية ودمياط ورشيد[4]، ولما وصل الخبر الى الأمير يلبغا رد على ذلك بأن أحضر الأمير أنوك[5] بن حسين أخا السلطان شعبان من قلعة الجبل الى جزيرة أروى في يوم الخميس السابع من شهر ربيع الأخر سنة ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م ، ثم أحضر الخليفة المتوكل على الله وأمره بخلع السلطان الأشرف شعبان وتولية الأمير أنوك سلطانا ، لكن الخليفة أمتنع عن تنفيذ الأمر محتجا بوجود السلطان الأشرف شعبان وأحقيته في السلطنة ، إلا أن هذا الأمتناع لم يدم

---

(1) النجوم، ج١١، ص٣١.

(2) بولاق التكروري تقع على شاطئ نهر النيل تجاه المقس ومقابل جزيرة الفيل.

(3) جزيرة أروى. تعرف بالجزيرة الوسطى لوقوعها ما بين الروضة وبولاق.

(4) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٣٢-١٣٣. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٤٨.

(5) أنوك بن حسين بن محمد بن قلاوون توفي سنة ٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م. أنظر ترجمته ابن حجر، الدرر، ج١، ص٤٤٧. ابن تغري بردي، المنهل، ج٣، ص١٠٧.

طويلا فسرعان ما رضخ الخليفة لمطلب الأمير يلبغا فخلع السلطان شعبان وولـــى أخيــه أنــوك سلطانا ولقبه بالملك المنصور ونودي بإسمه بالقاهرة[1].

تطورت الأحداث نتيجة إقامة هذا السلطان الجديد، مما دفع السلطان الأشرف شعبان وقواته للأشتباك مع قوات الأمير يلبغا، وفي تلك الأثناء توجه الناس الى جزيرة أروى لمشاهدة ســـاحة القتال إلا انهم انحازوا للسلطان شعبان وأخذوا يسخرون من السلطان الجديـــد بقولـــهم "ســلطان الجزيرة ما يساوي شعيرة "[2] مما عزز موقف السلطان الأشرف شعبان وشجعه على مواصلـــة قتال الأمير يلبغا وقواته. بقي الأمير يلبغا مقيما ليلته بمخيمه بالجزيرة بالبر الشرقي بينما السلطان شعبان وقواته بالبر الغربي ببولاق التكروي، حتى استطاع السلطان شعبان العبور الى بر القاهرة الشرقي وهناك جمع قواته واستعد لمحاربة الأمير يلبغا ولما سمع الأمراء الذين مع يلبغا بوصوله رجع أغلبهم الى السلطان الأشرف شعبان وندموا على ما بدر منهم[3] أما الأمير يلبغا فقد توجـــه بمن معه من الجنود نحو سوق الخيل[4]، فلما ادرك أنه مهزوم ولا فائدة من المقاومة ترك سلاحه

---

(1) ابن دقماق، الجوهر، ج٢، ص٢٢٦. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٣٣-١٣٤. ابن تغري بردي، مورد اللطافة، ورقة ٧٨/أ. السخاوي، الذيل التام، حوادث (٧٤٥-٨٥٠هـ)، ص٢١٩.

(2) ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٥٤٣. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٣٥. ابن تغري بـــردي، النجــوم، ج١١، ص٣٢.

(3) ابن دقماق، الجوهر، ج٢، ص٢٢٦-٢٢٧. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٣٥. ابــن تغــري بــردي، النجوم، ج١١، ص٣٣.

(4) سوق الخيل: كان سوق الخيل بالرميلة وقد لعب دورا هاما في تاريخ المماليك، إذ كان من اليسير على من فيه اذا ما توفر لديه السلاح أن يصعد الى القلعة حيث يشرف على الإسطبل السلطاني. ابــن دقمــاق، الجوهــر، حاشية رقم ٢، ص٣٥٥.

وتوجه الى بيته بالكبش[١]، فتلقته العامة بالحجارة حتى دخل بيته[٢]، وتوجه السلطان الأشرف شعبان نحو قلعة الجبل مساء السبت التاسع من ربيع الآخر، وقد استقر الأمر لصالحه، فأمر بإحضار الأمير يلبغا من بيته ثم أمر بسجنه بالقلعة، ولكن المماليك اليلبغاوية الثائرين طلبوا سيدهم من السلطان خشية أن يصفح عنه ثم يعود الى طغيانه ثانية ، فإستجاب السلطان شعبان لمطلبهم ، وسلمهم إياه فقتلوه ومثلوا بجثته وعلقوا رأسة على مشعل نار[٣].

وهكذا كانت خاتمة الأمير يلبغا العمري أن شهد من العز والجاه الشيء الكثير واقتنى من المماليك ما يزيد عن ثلاثة الآف مملوك غير أنه على ما يظهر كان سيء المعاملة لهم مما جعلهم ينقلبون عليه.

ونلاحظ خطورة منصب الأتابكية حيث حظي الأتابك في أثناء هذه الحقبة بالمكانة العالية والمنزلة الرفيعة، كما تمتع بسلطات مطلقة في الدولة والبلاط السلطاني على حد سواء ولذا حرص على تأمين قوة من المماليك اليلبغاوية لكي يناصروه في أي حركة يقوم بها سواء من أجل الإطاحة بالسلطان، أو الحصول على امتيازات أوسع وصلاحيات أكبر، وكذلك نلاحظ شعبية الأشرف شعبان بين طوائف العامة حيث حظي بعطفهم ومودتهم وتأييدهم الصادق، مع العناية

---

(١) الكبش: اسم يطلق على الجزء الشمالي الغربي من جبل يشكر حيث يشرف على نهر النيل من غربية. المقريزي، الخطط، ج٢، ص٣٥٥.

(٢) الخالدي، المقصد، ورقة ٧٧/أ. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٣٦. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٤٨-٤٩.

(٣) ابن حبيب، درة الأسلاك، ج٣، ورقة ٥١/ب. ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٥٤٣. ابن خليل، أبي حامد محب الدين محمد المقدسي الشافعي، (ت ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م)، دول الإسلام الشريفة البهية وذكر ما ظهر لي من حكم الله الخفية في جلب طائفة الأتراك الى الديار المصرية، تحقيق صبحي لبيب وأولريش هارمان، مؤسسة دار الريحاني، بيروت، ط١، ١٩٩٧م، ص٧٣.

البالغة بمساعدته على قدر استطاعتهم المتواضعة من حيث السلاح والاستعداد الحربي للقتال. الى جانب التحالف السلطاني الكبير بين الأمراء والمماليك الأشرفية والأجناد في سبيل القتـــال الـــى جانب الأشرف شعبان. كما يبدو لنا من خلال هذه الثورة انعكاس الحالة السياسية المضطربة على الوضع الاقتصادي في البلاد إذ تشنجت الحياة الإقتصادية، وتجمدت حركة البيع والشراء بســـبب توقف الناس عن ممارسة أنشطة سبل العيش في الأسواق، وانشغالهم إما بالفرجة علـــى الحـــرب الدائرة بين الطائفة السلطانية والطائفة اليلبغاوية، وإما بالمشاركة الفعلية بواسطة رجم الممـــاليك اليلبغاوية وأتباعهم بالحجارة وقد دفع الأمير يلبغا حريته وحياته ثمنا لهذه المجازفة الخطـــيرة لا سيما بعد تخلي أتباعه الأمراء عنه والانضمام لجماعة الأشرف شعبان.

## جـ- فتنة المماليك اليلبغاوية الأجلاب:

من نتائج فتنة الأمير يلبغا العمري وصول عدد من الأمراء الى مناصب متقدمة في الجهاز الإداري [1] ومنهم الأمير أسندمر الناصري الذي كان داودارا[2] للأمير يلبغا ثم أصبح بعد مقتل سيده الأمير يبلغا مدبرا للسلطنة وأتابكا للعسكر[3] وسكن هذا الأمير حيث كان يسكن الأتابكي يلبغا في الكبش[4].

وتصاعدت قوة ونفوذ الأمير أسندمر بالتفاف عدد كبير من المماليك اليلبغاوية حوله، والذين تمادوا في الفساد وظلم الناس ، وأخذ هذا الأمير يتشبه بسيده يلبغا في رواحه وغدوه وعظيم جاهه ، حتى حسده كثير من الأمراء . وما زال الحسد يأكل قلوبهم ويستفزها حتى ثاروا ثورة جامحة ، وطلبوا إلى السلطان شعبان أن يسلمهم الأتابكي أسندمر ليفتكوا به ، ولكن الأمير أسندمر كان قد أستطاع أن يضم إليه عددا كبيرا من الأمراء والجنود ، ودهم الثائرين عليه دهمة قاسية ، ففر منهم من فر وهزم في النهاية منهم من هزم[5].

---

(1) ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٥٤. .Irwin: Op. Cit, p148

(2) الداوادارية: أحد الوظائف العسكرية في دولة المماليك ويتولاها موظف يسمى الداوادار وموضعها تبليغ الرسائل عن السلطان وابلاغ عامة الأمور وتقديم القصص الى السلطان وتقديم البريد. المقريزي، الخطط، ج٣، ص٢٢٩. الخالدي، المقصد، ورقة ١١٩/أ.

(3) ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٢٢٩. ابن حجر، الدرر، ج١، ص٤١٣. السخاوي، الذيل التام، حوادث (٧٥٤-٨٥٠هـ/)، ص٢٢٠.

(4) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٤١. الشامي، عمر علي ذياب "الذيل علىّ تاريخ ابن كثير المسمى تاريخ ابن حجر". (ت ٨١٦هـ/ ١٤١٣م)" رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، اربد، ١٩٩٩م، ص٦٨.

(5) ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٥٤٤. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٤١.

استطاع الأمير أسندمر أن يقبض على كثير منهم ،ومن بينهم الأمير ألجاي اليوسفي[1] والأمير يلبغا آص[2] والأمير أرغون شاه تتر[3] وغيرهم ، وسيقوا جميعاً إلى سجن الإسكندرية سنه ٧٦٨ هـ/ ١٣٦٦م[4].

وبذلك طهّر الأمير أسندمر حاشية السلطان شعبان مؤقتاً من بذور الفساد ، وكان هؤلاء الأمراء يدّعون أن أسندمر يسعى بالفساد والنم بينهم وبين السلطان والظاهر أن نفس " أسندمر" لم تكن مخلصة للسلطان وأنه وقع تحت تأثير مماليك الأمير يلبغا الذين جرّبوا لذة الفتن والمؤامرات. فقد راودوه مرةً بأن يخلع السلطان شعبان ويقوم هو سلطاناً على البلاد، ولكنه أبى ولعل السبب أن الفرصة لم تواتيه بعد، وهو في أول سني أتابكيته[5] ولكن سرعان ما أعدّ للأمر عدّته في سنة ٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م بعد أن قبض على خمسة من كبار الأمراء بضغط من المماليك اليلبغاوية وساقهم الى سجن الاسكندرية ثم هَم بالقبض على السلطان نفسه ومن سوء حظه أن المماليك

---

[1] الأمير ألجاي اليوسفي زوج أم السلطان شعبان خوند بركة قتل سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م. أنظر ترجمة ابن حجر، الدرر، ج١، ص٤٣٣. ابن تغري بردي، المنهل، ج٣، ص٤٠. وانظر فتنته لاحقاً.

[2] الأمير يلبغا آص وهو أحد الأفراد الكبار شارك في قتال الأتابكي أسندمر. توفي سنة ٧٧٣هـ/ ١٣٧١م. أنظر ابن حجر، الدرر، ج٥، ص٢١١.

[3] الأمير أرغون شاه تتر من مماليك الناصر حسن، سجن بفتنة أسندمر سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م. وتوفي في حماة سنة ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م. انظر ترجمة ابن حجر، الدرر، ج١، ص٣٧٢. ابن قاضي شهبة، تاريخ، مج٣، ص٤١٧.

[4] ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٥٤٤. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٤٢-١٤٣، ٢٣٠. ابن قاضي شهبة، تاريخ، مج٣، ص٢٩٦.

[5] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٥٠. ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٣٨. السخاوي، الذيل التام، حوادث (٧٤٥-٨٥٠هـ)، ص٢٢٦.

الأمير أسندمر والأمير خليل بن قوصون وغيرهما وسجنهم جميعا بسجن الإسكندرية[1]. وأمر السلطان شعبان بالإفراج عن كثير ممن سجنهم الأمير أسندمر ومن بينهم الأمير ألجاي اليوسفي الذي أسندت إلية الأتابكية من بعد. ولذا نلاحظ أن الأجلاب مارسوا صلاحيات واسعة في الدولة، حتى أنهم فكروا بقتل السلطان شعبان وإقامة غيره مكانه لوقوفه ضد مطالبهم وأطماعهم الشخصية، ولولا وقوف الأمراء السلطانية والأمراء والأجناد والعامة لتمكنوا من قتل السلطان شعبان. ومن ناحية أخرى يلفت نظرنا تهاون الأشرف شعبان في القبض على الأمير أسندمر أدى الى تفكير الأخير بإعادة الكرة والقيام بمحاولة أخرى لتحقيق هدف خلع الأشرف شعبان وتوليه خليل بن قوصون، مما يظهر الغدر عند أسندمر ومؤيديه.

## د- فتنة الأمير ألجاي اليوسفي :-

بعد أن قضى السلطان الأشرف شعبان على المماليك اليلبغاوية والأتابك أسندمر الناصري سنة ٧٦٩ هـ / ١٣٦٧ م . قبض على زمام الأمور في البلاد بمطلق الحرية والتصرف وظن أن الأمور قد أستتبت له ، فأخذ يولي ويعزل من يشاء دون إستشارة الأمراء واستقرت الحالة في مصر ، ولم يحدث ما يعكر صفوها الا حين ثار عليه زوج أمه الأمير ألجاي اليوسفي[2].

---

[1] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٥٢. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٦٩.

[2] ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٥٤٦. ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٤٣. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٧٠-٧١.

والأمير ألجاي هو أحد مماليك السلطان الناصر حسن ، ترقي في المناصب الوظيفية حتى صار حاجب الحجاب[1]. ثم في سنة ٧٦٣ هـ / ١٣٦١ م استقر امير جاندار[2] ثم تولى حرب الامير أسندمر والمماليك البليغاوية في سنة ٧٦٩ هـ / ١٣٦٧ م فقاتلهم قتالاً عظيماً حتى قبضه الأمير أسندمر وسجنه بالاسكندرية . ولما انتهت الفتنة بمقتل الأمير أسندمر وتشتيت المماليك اليلبغاوية أخرجه السلطان شعبان من السجن وأقره أمير سلاح ثم أصبح أتابكاً للعساكر[3] بعد وفاة الامير منكلي بغا الشمسي[4]. وخصه برعايته وعنايته، حتى انه بعد وفاة والدته خوند بركة في ذي القعدة ٧٧٤ / ١٣٧٢ م ، أراد السلطان شعبان أن يزوجه من ابنته الا أن الفقهاء منعوه من ذلك لعدم جواز ذلك شرعاً ، فعوضه عنها بجارية له كان يحبها اسمها "بستان" فاعتقها السلطان شعبان وزوجها له[5]. مما يدلنا على المكانة الرفيعة التي تمتع بها الأمير ألباي اليوسفي عند السلطان .

---

(1) حاجب الحجاب: وهي من وظائف أرباب السيوف وموضوعها الحكم بين الأمراء والجند وعرض الجند وتقديم من يرد السلطان. القلقشندي، صبح، ج٤، ص١٩-٢٠.

(2) أمير جاندار: احدى وظائف أرباب السيوف ومهمة صاحبها تنظيم دخول الأمراء على السلطان وتقديم البريد له مع الداودار. القلقشندي، صبح، ج٣، ص٣٤١، ٥١٨. الخالدي، المقصد، ورقة ١٢٨/ب.

(3) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢٠٤. ابن حجر، إنباء، ج١، ص٥٧. ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٤٧.

(4) الأمير سيف الدين منكلي بغا الشمسي: أحد الأمراء الكبار المقدمين توفي سنة ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م. أنظر ترجمته ابن حجر، الدرر، ج٤، ص٣٦٧. ابن العماد، ابي الفلاح عبدالحي الحنبلي، (ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق لجنة أحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ج٥، ص٢٣٦.

(5) ابن حجر، إنباء، ج١، ص٤١.

لكن هذه المودة الحميمة لم تدم طويلاً ، فبعد وفاة والدة السلطان الأشرف شعبان سرعان ما دّب النزاع بينهما حول الميراث الذي تركته خوند بركة زوجته ، والذي أراد الأستئثار به وحده دون السلطان شعبان ،حيث وضع يده عليه كاملاً مما أزعج السلطان شعبان وجعله يطلبه بحقه، ولكن ألجاي أمتنع عن إجابته وجهّز نفسه لأثارة الفتنة ،كذلك أخذ الجاي يتدخل في كل صغيرة وكبيرة من شؤون الدولة مما زاد في عسفه وظلمه على الناس وهذا ما جعل السلطان شعبان يشك بنواياه وتطلعاته نحو الأنفراد بالسلطة[1].

على أثر ذلك تأزمت العلاقات بين السلطان شعبان والأمير ألجاي سنة ٧٧٥ هـ/ ١٣٧٣ م مما مهد لوقوع عدة معارك بينهما[2]. وفرض السلطان شعبان عليه أن يكون نائباً على حماة[3] ولكن الأمير ألجاي رفض هذا العرض وتحدى السلطان شعبان بقوله " لا أموت إلا على ظهر فرسي"[4].

حاول السلطان شعبان أحتواء الأزمة مجدداً فعرض عليه أن يختار ما يشاء من نيابات بلاد الشام بشرط أخماد الفتنة ، فرد عليه ألجاي بالرفض القاطع ، وخرج بقواته لمواجهة قوات

---

(1) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢١٢. ابن حجر، إنباء، ج١، ص٥٦-٥٧. ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٤٨-٤٩.

(2) ابن حجر، إنباء، ج١، ص٥٧. ابن قاضي شهبة، تاريخ، مج، ص٤٢٩. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص١١٧.

(3) ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٥٤٨. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢١٣. ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٤٩.

(4) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢١٣. ابن اياس، بدائع، ج١، ق٢، ص١١٨.

السلطان[1]. وأثناء ذلك استطاع السلطان شعبان أستدراج المماليك اليلبغاوية الذين شاركوه في ثورته حتى لم يبق معة منهم الإ دون الخمسمائة فارس . كذلك شارك العوام الى جانب السلطان وقواته ، وجرت بينهما معركة عنيفة انهزم على أثرها الأمير ألجاي هزيمة منكرة[2] ففر هاربا أمام جنود السلطان نحو ناحية الخرقانية[3] حتى أيقن أنهم لا شك لاحقوه ، فرمى بنفسه وجواده الى النيل فغرق ، فأخرجت جثته وتم دفنه بمدرسته التي أنشأها في سويقة العزي[4].

وبذلك تخلص السلطان شعبان من هذا المتمرد بعد أن حباه بالمناصب العليا وبالنسب السلطاني مما زاد في جبروته وطمعه حتى أنتهى بهذه الطريقة .

## ثانيا- في بلاد الشام

لم تكن بلاد الشام في عصر المماليك مجرد إقليم من أقاليم الدولة وإنما كانت أهم من ذلك بكثير . لقد كانت بلاد الشام الجناح الأيمن الذي بدونه يتعذر على دوله المماليك الاحتفاظ بكيانها وتوازنها والثبات في وجه الأخطار الضخمة التي هددت تلك الدولة حينا من جانب الأيوبيين والمغول والصليبيين وأحيانا من جانب الأرمن والتركمان وهكذا أدرك سلاطين المماليك منذ ان أقاموا دولتهم في مصر انه لابقاء لهم ولا لدولتهم إلا في ظل وحدة تربط بين الشام ومصر تحت

---

(1) ابن دقماق، الجوهر، ج٢، ص٢٣٥. ابن حجر، إنبا، ج١، ص٥٧. ابن خليل، دولة الإسلام، ص٧٥.

(2) ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٥٤٨. ابن دقماق، الجوهر، ج٢، ص٢٣٥. السخاوي، الذيل التام، حوادث (٧٤٥-٨٥٠هـ)، ص٢٦٥.

(3) الخرقانية: تقع على شاطئ نهر النيل وهي ظاهر قليوب ويقال عنها الخاقانية. أنظر ابن حجر، إنباء، ج١، ص٥٦، حاشية رقم ٢.

(4) ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٥٤٨. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢١٤.

حكمهم وتضمن لهم مراقبة التيارات العديدة التي يمكن ان تؤثر في كيانهم فضـلا عـن مراقبـة الطرق الرئيسية التي سلكها الأعداء في تهديدهم لمصر والشام في العصور الوسطى[١].

واذا كان سلاطين المماليك قد نظروا الى بلاد الشام نظرة خاصة فوضعوا لها تقسيما إداريا يشهد على مدى إدراكهم لأهمية تلك البلاد فإننا نلاحظ في نفس الوقت ان نواب الشـام وامـراء المماليك وامراء الأعراب (العربان ) في تلك البلاد أدركوا أهميتهم واستغلوا موقع البـلاد مـن ناحية وبعدها عن مركز السلطة من ناحية اخرى في محاولة فرض أرادتهم وإملاء كلمتهم علـى السلاطين[٢].

ولذلك لم تخل ساحة بلاد الشام من الاضطرابات السياسية فالاعراب (العربان)كانوا المحور الرئيسي لهذه الاضطرابات فقد توالت الهجرات العربية على مصر والشام من أطراف الجزيـرة العربية و أطراف العراق والشام ، بدافع الحصول على المال و الرزق ، لكن سرعان ما أصبـح هؤلاء العرب مصدر قلق و إزعاج لأهلها لكثرة إغارتهم على القـرى و المـدن المصريـة و الشامية ، وبعد ان انقرضت دولتهم في مصر أصبحوا يعرفون فيها بالعربان[٣] ويذكر المقريـزي أنه في أيام المماليك وجد في مصر جميع فروع شجرة النسب العربي والذين[٤] أنفوا الخضـوع

---

(١) عاشور، سعيد عبدالفتاح، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢م، ص٣٣٨.

(٢) المرجع نفسه، ص٣٣٩.

(٣) المقريزي، الخطط، ج١، ص٣٦٤. ماجد عبدالمنعم، التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك في مصر دراسة تحليلية للازدهار والانهيار، مكتب الأنجلو المصرية، القاهرة، د.ط، ١٩٨٨، ص١٤٠-١٤١.

(٤) البيان والاعراب عما بارض مصر من الاعراب مع دراسة في تاريخ العروبة في وادي النيل، تحقيق وتأليف عبدالمجيد عابدين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م، ص٣.

لحكم المماليك بحكم أنهم غرباء وقد مسهم الرق ، واعتبروا أنفسهم بحكم توالي أجيالهم في مصر والشام منذ الفتح الإسلامي أحق بالحكم منهم[١]، ولذلك حينما تسلطن المعز أيبك في مصر سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م ثاروا ضده وقطعوا الطرق وقالوا نحن أولى بالملك منهم ،فتصدى لهم المعز و كسر شوكتهم[٢]، لكنهم مع الأيام أجبروا على الاعتراف بسلطة المماليك مقابل بعض الإقطاعات والإمريات التي أعطيت لهم في مناطقهم أو كما يشبه الحكم الذاتي في زماننا، فأصبح مشايخهم يعرفون ولهم شهرةً كشهرة الملوك، وأصبح لهم مكاتبات رسمية تصدر من الديوان في مصر بأسمائهم، ولكن مع هذه الامتيازات لم يركنوا إلى الهدوء وبقي فسادهم يقلق السلاطين طوال فترة حكم دولة المماليك الأولى[٣].

بالنسبة لثورات العربان (الأعراب) التي هددت دولة المماليك في فترة حكم السلطان شعبان، فأهمها ثورة الأمير حيار بن مهنا[٤]، أمير عرب الشام ، وهذا الأمير هو أحد زعماء قبيلة ربيعة[٥]، وهم بطن من طئ عرب الجنوب القحطانية وينسبون الى جد لهم اسمه ربيعة[٦].

---

(١) المقريزي، البيان، ص٩. خليفات، عوض محمد، مملكة ربيعة العربية في وادي النيل (القرن ٣-٩هـ) نشر بدعم من الجامعة الأردنية، عمان، ص٩٧.

(٢) المقريزي، البيان، ص٣٨- السلوك، ق٢، ص٣٨٦.

(٣) ماجد، التاريخ السياسي، ص١٤٥.

(٤) حيار بن مهنا بن عيسى أمير آل فضل، توفي سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م. أنظر ابن حبيب، درة الأسلاك، ج٣، ورقة ١٢٢/أ. ابن حجر، الدرر، ج٢، ص١٦٩. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٥، ص١٨٧.

(٥) ربيعة: بطن من الأزد من القحطانية وهم بنو ربيعة بن عمرو بن الأزد مساكنهم البلاد الشامية، القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق ابراهيم الأبياري، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٥٩م، ص٢٥٩.

(٦) ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٨٠٧.

فقبل تولية السلطان شعبان الحكم، ثار الأمير حيار بن مهنا بوجه دولة المماليك عندما أغار على مدينة تدمر في شعبان سنه ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م، ونهب أهلها وحرق أشجارها ودمّر بيوتها بعد ان قطع الأمير يلبغا إقطاعاته وأرزاقه لكثرة فساده وخروجه عن الطاعة مع اتباعه من الأعراب، فارسل إليه الأمير يلبغا قوةً في سادس شعبان بقيادة نائب الشام منكلي بغا الشمسي لتأديبه على فعلته وما ان وصلت هذه القوة تدمر حتى بدأت بطرد الأعراب وتشتيتهم[1]، ولكن الأمير حيار استطاع بمهارته وحنكته تجميع قواته مرة أخرى وانقض على التجريدة العسكرية التي كانت بطريقها نحو الرحبة[2] فكبدهم العديد من القتلى والجرحى[3]، وهرب بعد ذلك خوفاً من بطش الأمير يلبغا وقواته نحو العراق، وهناك استجار بالسلطان أويس[4] بن حسن سلطان المغول، فمكث ببلاده نحو سنتين حتى حدثت وحشة بينهما بعد ان رفض الأمير حيار تسليم السلطان اويس بعض الأمراء الذين ثاروا مع نائب بغداد الخواجا مرجان[5] عندما أعلن العصيان عليه، فغضب

---

(١) ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٣٢٢. ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٥٤٦. ابن قاضي شهبة، تاريخ، م٣، ص٢٢٠.

(٢) الرحبة: قرية بحذاء القادسية وعلى بعد أميال من الكوفة على يسار الحجاج اذا أرادوا مكة. ياقوت، معجم، م٢، ص٣٩٤.

(٣) ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٣٢٣. ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٥٤٦.

(٤) أويس بن حسن الجلائري، ملك ببغداد وتبريز وأذربيجان. توفي سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م. أنظر ترجمته ابن حجر، الدرر، ج١، ص٤٤٨. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص١١٦. ابن قاضي شهبة، تاريخ، م٣، ص٤٥٦.

(٥) الخواجا مرجان: هو أمين بن عبدالله مولى أويس صاحب بغداد والعراق قبل كنحلة أويس سنة (٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م) وقيل عفى عنه وقرره نائباً توفي سنة ٧٧٤هـ ١٣٧٢م. أنظر بن حجر، الدرر، ج٥، ص١١٤- إنباء الغمر، ج١، ص٥٤.

عليه السلطان أويس وأرسل له يطرده من بلاده وينذره بسوء العاقبة[1] لذلك اضطر الأمير حيار ان يلتجئ الى نائب حماة الأمير عمر شاه[2] ورجاه ان يشفع له عند السلطان شعبان ، فكتب نائب حماة الى السلطان يخبره بأمره، وتشفّع له عنده، فقبل السلطان شفاعته ، وتجـهز للسـفر الـى القاهرة فوصلها في ١٥ شوال سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م بعد ان عصى لمده سنتين ، فوقف بيـن يدي السلطان طائعاً، فعفى عنه السلطان شعبان وأعاده على إمرة العرب بالشام كما كـان سـابقاً وخلع عليه وعلى إبنه نعير بالأعطيات والاقطاعات[3].

تحسنت العلاقات بين الأمير حيار والسلطان شعبان، وتردد على الأبواب السـلطانية فـي القاهرة ويذكر المقريزي " أن الأمير حيار قدم طائعاً في شهر ربيع الآخر سنة ٧٧٠هـ/١٣٦٨م فخلع عليه السلطان شعبان وأكرمه"[4] لكن سرعان ما ساءت العلاقة مرة أخرى بعـد ان أغـار عرب بني كلاب[5] على الحجيج بين حماة وحلب وقطعهم للطريق ،ونهبهم للمسـافرين، وكـثر

---

(1) ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٥٤٦. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٢٢.

(2) الأمير عمر شاه التركي الحاجب ولي نيابة حماة مدة طويلة توفي في دمشق سنة ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م. أنظـر ابن حجر، الدرر، ج٣، ص١٩٨. ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٣، ص٣٧٦.

(3) ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٣٤٢-٣٤٣. ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج٢، ص٢٢٤. المقريزي، السـلوك، ج٣، ق١، ص١٢٢.

(4) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٧٠. وأنظر ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٨٢.

(5) عرب بني كلاب: بطن من عامر بن صعصعة وكانت ديارهم في جهات المدينة المنورة ثم انتقلوا بعـد ذلـك الى الشام. ابن خلدون، العبر، م٦، ص١٤.

ظلمهم وتسلطهم بحلب، مما جعل الأمير قشتمر المنصوري[1] نائب حلب يخرج لقتالـــهم فـــي ذي الحجة سنه ٧٧٠هـ/١٣٦٨م، ولما وصل تل السلطان[2] قرب حلب اتجه بقواته نحو مضـــارب بعض الأعراب الساكنين في تلك المنطقة وأغار عليهم ونهب مواشيهم وجمالهم انتقاما لما بـــدر من بني كلاب من اعتداء على المسافرين والحجيج[3].

ولسيطرة العصبية القبلية أرسل هؤلاء الأعراب بطلب النجدة من الأمير حيار بـــن مـــهنا، فلبى نداءهم واتجه بقواته نحو جيش حلب بعد ان انضم اليه بنو كلاب وغـــيرهم مـــن الأعـــراب ودارت بين الطرفين معركة عنيفة أسفرت عن مقتل الأمير قشتمر وولده محمـــد والعديـــد مـــن عساكر حلب، وهرب العدد الباقي نحو حلب ولحق الأعراب فلولهم وكبدوهم مزيدا من القتلـــى[4] وهذا ما جعل ابن حبيب يلقي اللوم على المماليك بقوله : ان هذه المعركة كانت عاقبـــة الطمـــع وهذا جزء من عدل عن العدل ولو تبينوا واستعانوا بالملك الجليل لم يكن للمتخلفين من الأعـــراب سبيل[5].

---

(1) قشتمر المنصوري الأمير سيف الدين نائب حلب توفي مقتولا في سنة ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م. أنظر ترجمته ابـــن حبيب، درة الأسلاك، ج٣، ورقة ٧٥/أ. ابن حجر، الدرر، ج٣، ص٣٣٤. ابن تغري بردي، النجـــوم، ج١١، ص٨٥.

(2) تل السلطان: موضع جنوب حلب فيه خان ومنزل للقوافل. ياقوت، معجم، م١، ص٤٥٢.

(3) ابن حبيب، درة الأسلاك، ج٣، ورقة ٧٦/أ. المقريزي، الســـلوك، ج٣، ق١، ص١٧٥. Irwin. Op. Cit. P. 148

(4) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٧٥. ابن قاضي شهبة، تاريخ، م٣، ص٣٥١. ابن تغري بردي، النجـــوم، ج١١، ص٤٣-٤٤.

(5) درة الأسلاك، ج٣، ورقة ٧٦/ب.

كان نتيجة هذه الوقعة ان عزل السلطان شعبان الأمير خيّار من إمارة عرب الشام ، وولّى مكانه الأمير زامل بن موسى بن مهنا[1]، كذلك أرسل تقليداً الى الأمير قشتمر المارديني[2] بنيابه حلب خلفاً للأمير قشتمر الذي قتل. اما الأمير جيار فإنه هرب بقواته جتى بدى له الندم. وأرسل الى السلطان الأشرف شعبان طالباً الأمان والعفو، فعفا عنه السلطان، ولتقديم الولاء والطاعة، توجه الأمير حيار الى القاهرة في عام ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م ، فاستقبله السلطان وأعاده الى إمارته، ولم يؤاخذه على ما صدر منه من قتل الأمير قشتمر[3].

وبقي الأعراب طوال المدة الباقية من حكم السلطان الأشرف شعبان ملتزمين بطاعة السلطان والدولة.

---

(1) زامل بن موسى بن مهنا، ولاه الأشرف إمرة الحجاز سنة ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م عوضاً عن الأمير حيار، توفي سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م. أنظر ابن حجر، الدرر، ج٢، ص٢٠٥. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٥، ص٣٦٢.

(2) أقشتمر الماريديني ولي نيابة حلب عدة مرات وهو الذي فتح سيس، توفي سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م. أنظر ترجمته ابن حجر، الدرر، ج١، ص٤١٦. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٢، ص٤٥١.

(3) المقريزي، السلوك، ج٧، ق١، ص١٨٠، ٢١٨. ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص٦١. ابن قاضي شهبة، تاريخ، م٣، ص٤٣١.

## ثالثاً: في الحجاز واليمن:-

حرصت دولة سلاطين المماليك منذ نشأت دولتهم على بسط نفوذهم السياسي والديني على الحجاز، أسوة لما كان عليه الوضع منذ ايام الطولونيين . وكان شرفاً عظيماً ودعامة كبرى لكل حاكم مسلم ان يظهر امام المسلمين في مشارق الارض ومغاربها في صورة حامي الحرمين والمدافع عن الحجاز وارضه الطيبة المطهرة . ومنذ قيام سلطنة المماليك في مصر ، وسلاطين المماليك يبدون اهتماما خاصاً بالحجاز وعناية كبرى بشئونه[1] ولم يقتصر ذلك الاهتمام وتلك العناية على رعاية الحرم النبوي وارسال الكسوة الى الحجاز[2]، وانما امتدت تلك العناية الى بسط نفوذ المماليك السياسي على الحجاز ولذا منذ ايام الظاهر بيبرس خطب امراء الحجاز الاشراف لسلاطين المماليك، وضربوا اسماءهم على السكة[3].

والواقع ان الخلافات بين اشراف الحجاز هي التي اتاحت فرصة طيبة لسلاطين المماليك لتحقيق اغراضهم، فأصبح السلطان المملوكي يتدخل في عزل وتعيين الأمراء والأشراف على مكة والمدينة ليضمن طاعتهم وولائهم له، حتى انهم اشركو اكثر من شخص على إمرة مكة ، واذا حدث خلاف بين الشريكين فإن السلطان لا يجدُ حرجاً في التدخل لكي يؤكد سلطانه على الحجاز[4].

---

[1] عاشور، مصر والشام، ص٣٥٦. سرور، محمد جمال الدين، دولة بني قلاوون في مصر، (الحالة السياسية والاقتصادية في عهدها بوجه خاص)، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٠م، ص١١٧.

[2] المقريزي، السلوك، ج١،ق٣، ص٤٤٥.

[3] المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٤٤٥. عاشور، مصر والشام، ص٣٥٦.

[4] سرور، بني قلاوون، ص١١٧، ١٢٥. حسن، المماليك البحرية، ص١٧٦.

وقبيل تولي السلطان الاشرف شعبان للسلطنة، ولّي الشريف عجلان بن رميثة[1]، إمرة مكة بعد وفاة الأمير سند بن رميثة[2] وكان سنداً شريكاً لاخيه ثقبة بن رميثة[3]، وصادف وجود ثقبة في القاهرة ، وفي طريق رجوعه الى مكة مرض ومات اوائل سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠، مما جعل الشريف عجلان وحيداً بإمرة مكة[4]، ولكنه اشرك معه ابنه احمد[5]، وجعل له ربع المتحصل يصرفه في خاصته، ثم زادهُ بعد ذلك ربعاً اخراً ولكن يبدو ان الشريف احمد أراد الإنفراد بالإمارة لوحده مما جعل الشريف عجلان يعرض على ولده الشريف احمد الاعتزال عن الامارة في سنة ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م ، مقابل ثلاثمائة الف درهم تدفع له مع استمرار ذكر اسمه في الخطبة والدعاء على منابر الحجاز مدة حياته فوافق الشريف احمد على ذلك والتزم تنفيذ الشرطين ، وبذلك اصبح الشريف احمد منفرداً بالإمارة دون شريك وارسل الى السلطان الأشرف شعبان ليقره

---

(1) الشريف عجلان بن رميثة بن أبي نمي، ولي إمرة مكة غير مرة مستقلاً وشريكاً لأخيه ثقبة مرة ولإبنه أحمد مرة أخرى. الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد، (ت ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م)، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٧٩هـ/ ج٦، ص٥٧. ابن حجر، الدرر، ج٣، ص٦٨.

(2) الشريف سند بن رميثة بن أبي نمي، وليّ إمرة مكة شريكاً لابن عمه محمد بن عطيفة سنة ٧٦٠هـ/ ١٣٥٨م. ثم اشرك معه أخوه ثقبة، توفي سنة ٧٦٣هـ/ ١٣٦١م. الفاسي، العقد الثمين، ج٤، ص٦١٧. ابن تغري بردي، المنهل، ج٦، ص٨٣.

(3) ثقبة بن رميثة بن أبي نمي، ولي إمرة مكة شريكاً لأخيه عجلان. توفي سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م. الفاسي، العقد الثمين، ج٣، ص٣٩٥. ابن حجر، الدرر، ج٢، ص٦٦.

(4) الفاسي، العقد الثمين، ج١، ص١٧٩. ابن فهد، النجم عمر بن محمد، (ت ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م)، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، دار المدني، جدة، جامعة أم القرى، مكة، ١٩٧٧م، ج٣، ص٢٩٠-٢٩١. الجزيري، عبدالقادر بن محمد من وفيات القرن ١٠هـ/ ١٦م)، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، دار اليمامة للبحث والنشر، الرياض، ط١، ١٩٨٣، ص١٨٨.

(5) أحمد بن عجلان، أمير مكة توفي سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م. الفاسي، العقد الثمين، ج٣، ص٨٧. ابن حجر، الدرر، ج١، ص١٤.

على الإمارة. فرد عليه السلطان بالايجاب[1]، وارسل له تقليداً وتشريفاً[2] وبعد استقراره في إمارة مكة اشرك معه ولده محمد بن احمد سنة ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م[3] بعد ان اخذ الموافقة من السلطان الظاهر برقوق[4] ويجدر الإشارة انه خلال إمرة الشريف عجلان وابنه احمد لمكة المكرمة، ظهر منافس لدولة المماليك حول بسط السلطة على هذه الإمارة، وهذا المنافس هو السلطان المغولي اويس بن حسن[5]، وحول ذلك يذكر الفاسي " انه في اثناء سنة ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م ، وصلت هدية ثمينة من السلطان اويس بن حسين الى الشريف عجلان بن رميثة امير مكة ، ومن جملتها قناديل حسنة للكعبة وهدية ثمينة باهظة الثمن"[6] ويبدو ان الهدف من هذه الهدية هو بسط سيطرة السلطان اويس على الحرمين الشريفين ولو اسمياً ، فقبل الشريف عجلان الهدية وامر خطيب المسجد الحرام بأن يذكر اسم السلطان اويس في الخطبة ، ولكن يبدو ان السلطنة المملوكية انكرت

---

(1) الفاسي، العقد الثمين، ج١، ص١٧٩. ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٢٩١، ٣١٨-٣٢٠. مورتيل، ريتشارد، الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، جامعة الملك سعود، الرياض، ص١٠٥.

(2) التقليد والتشريف هو عبارة عن كتاب مختوم من السلطان يوقع عليه عندما ينصّب نواب النيابات. والتشويف هي ملابس خاصة ينعم بها السلطان على الأمراء حسب رتبهم وولاياتهم. أنظر القلقشندي، صبح، ج٤، ص٥٢-٥٤. البقلي، التعريفات، ص٧٦. وأنظر دهمان، معجم، ص٤٥، ٤٧.

(3) محمد بن أحمد بن عجلان أمير مكة أشركه والده معه بالإمرة لمدة ثماني سنوات وبعد وفاة أبيه ظل حوالي مائة يوم فقط ثم أغتيل. الفاسي، العقد الثمين، ج١، ص٣١٧.

(4) ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٣٤١. مورتيل، الأحوال السياسية، ص١٠٨. عبدالغني، عارف، تاريخ أمراء مكة المكرمة، دار البشائر، دمشق، ط١، ١٩٩٢م، ص٥٧٢.

(5) السلطان أويس بن حسن الجلائري، سلطان بغداد وتبريز، توفي سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م. ابن قاضي شهبة، تاريخ، مج٣، ص٤٥٦.

(6) العقد الثمين، ج١، ص١٩٦.

عليه فعل ذلك . مما جعل الشريف عجلان يأمر بقطع الخطبة للسلطان اويس ويعيدها للسلطان شعبان[1].

وهكذا ظل الحجاز مسرحاً لمنازعات عديدة الأمر الذي جعل السلطان شعبان يرسل بين الحين والاخر بعض القوات الى هناك لإقرار الامور ولولا ذلك لما اعاد الشريف عجلان الخطبة والتبعية للسلطان شعبان.

اما بلاد اليمن فقد ارتبط حكامها من بني رسول[2] بعلاقات طيبة مع سلاطين المماليك في مصر . وتبادل هؤلاء الحكام مع سلاطين المماليك السفارات والهدايا ، ومن جملة هذه الهدايا التحف والفيلة والحيوانات والطيور[3].

ويبدو ان ملوك اليمن من بني رسول كانوا يخشون سطوة سلاطين المماليك في مصر ، لانه كان من المفروض ان تظل بلاد اليمن تابعة لمصر منذ ان فتحها تورانشاه اخو السلطان صلاح الدين الايوبي سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م[4]. هذا الى ان قيام الخلافة العباسة في مصر جعل لسلاطين المماليك نوعا من الولاية على بقية ملوك العالم الاسلامي ، وبخاصة البلاد التي ورد

---

(1) الفاسي، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، حققه وعلق عليه لجنة من كبار العلماء والأدباء، دار الكتب العلمية، بيروت، ج٢، ص٢٥٠. السباعي، أحمد، تاريخ مكة (دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران)، مطبوعات نادي مكة الثقافي، مكة المكرمة، ط٦، ١٩٨٤م، ج١، ص٢٨٢.

(2) بني رسول: أسرة عاشت وحكمت اليمن وينسبون الى رسول وهو تركماني الأصل، انتهى حكمهم باليمن سنة ٨٥٨هـ/ ١٤٥٤م. ترتيون، مادة رسول، دائرة المعارف الإسلامية، ج٣، ص١٠١-١٠٤.

(3) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٥٦٣-٥٦٥-٥٩٥-٦٢١. سرور، دولة بني قلاوون، ص٢٩.

(4) المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ٥٦٣، ٥٩٥. عاشور، مصر والشام، ص٣٥٩.

ذكرها في التقليد الذي منحه الخليفة المستنصر بالله[1] العباسي للسلطان الظاهر بيرس وهي" الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية "[2]. ولعل هذا هو السر في حرص ملوك بني رسول باليمن على علاقاتهم الودية مع سلاطين المماليك في مصر.

فقد كان السلطان شعبان يحسن استقبال هؤلاء الرسل ويكافئ ملكهم باحسن الهدايا واجودها[3] وكان حرص سلطان دولة المماليك والملك اليمني على دوام تحسين العلاقات بينهما نابعا من اهتمامهما بتأمين طرق الملاحة والتجارة بين الدولتين، والمعروف أن البحر الأحمر كان منذ أقدم العصور الطريق الهام للتجارة بين الشرق والغرب والشريان الحيوي المتحكم في التجارة العالمية في ذلك الوقت، لذلك كان من مصلحة الجانبين دوام العلاقات الودية حتى تكون هذه الطريق سهلة المسلك وبعيدة عن المنافسات والأخطار الخارجية التي كان تتهددها[4].

---

[1] المستنصر بالله العباسي أحمد بن الظاهر بن الناصر العباسي، كان محبوسا ببغداد فلما اجتاحها المغول هرب الى عرب العراق واتصل ببيبرس لما تسلطن الذهبي، شمس الدين محمد، (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م). سير أعلام النبلاء، تحقيق بشار عواد معروف ومحي السرحان وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٢م، ج٢٣، ص١٦٨.

[2] المنصوري، الأمير ركن الدين بيبرس الداوادار، (ت ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م)، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق دونا لدس ريتشارد، الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، ١٩٩٨م، ص١٤٦-١٤٧.

[3] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٢٣. سرور، دولة بني قلاوون، ص٢٩.

[4] عبد العال، محمد، بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما (٦٢٨-٩٢٣هـ/١٢٣١-١٥١٧م)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ص٣٧٦-٣٨٣.

ولذلك توالت السفارات بين الدولتين في عهد السلطان الأشرف شـــعبان والملـــك اليمنـــي الأفضل عباس[1] بن المجاهد علي الرسولي، ففي ذي القعدة سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م، وصل الــــى القاهرة وزير الملك اليمني الأفضل عباس بهدية الى السلطان الأشرف شعبان، وكان من جملة هذه الهدية فيل، فاستقبله السلطان شعبان وأنعم عليه ورده إلى بلاده محملاً بالهدايا[2]، وبعد سنة من هذه السفارة أرسل الملك الأفضل عباس سفارة أخرى على رأسها الوزير شرف الديـــن حسين بن علي الفارقي[3]، فقدم هدية الأفضل عباس اليمني وهي عبارة عن فرس، فأحسن اليـــه السلطان شعبان وأعاده الى بلاده محملاً بالهدايا فوصل عدن في صفر سنة ٧٦٨هـ/١٣٦٦م[4].

كما أشار المؤرخون الى سفارة يمنية أخرى وصلت القاهرة محملةً بالهدايا في رمضان سنة ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م، فأدوا سفارتهم للسلطان الأشرف شعبان، واستقروا في القاهرة نحـــو ســنتين

---

(1) الأفضل عباس بن المجاهد علي الرسولي، تولى أمر الدولة الرسولية سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م وكان ملكاً عالمـــاً ذكياً، توفي سنة ٧٧٨هـ/١٣٧٦م. الخزرجي، علي بن الحسن، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولـــة الرســولية، عني بتحقيقه الشيخ محمد بسيوني عسل، مطبعة الهلال، مصر، ١٩١٤، ج٢، ص١٥٧. ابن علي، يحيى بـــن الحسين بن القاسم، (ت ١١٠٠هـ/١٦٨٨م)، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق سعيد عبد الفتـــاح عاشور، ومحمد مصطفى زيادة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨، ق٢، ص٥٢٦، ٥٢٧.

(2) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٢٣. الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج٢، ص١٣٤.

(3) شرف الدين حسين بن علي الفارقي: لم أعثر له على ترجمة.

(4) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٢٧. الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج٢، ص١٣٥. الشيباني، أبي الضيـــاء عبدالرحمن بن علي الربيع الزبيدي، (ت ٩٤٤هـ/ ١٥٣٧م)، قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، المكتبة الحوالية، اليمن، ط٢، ١٩٨٨م، ص٣٧٠.

حتى رجعوا الى اليمن فوصلوها في محرم سنة ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م، بعد أن حملهم السلطان شعبان الهدايا النفيسة مما يؤكد عن مدى الصلات القوية التي كانت تربط بين الدولتين[١].

وهكذا ظل ملوك اليمن يكنون الاحترام والولاء لسلاطين المماليك في مصر ويحرصون على إرضائهم مما حقق لأولئك السلاطين سيادة ولو إسمية على هذه البلاد المتميزة بموقعها الاستراتيجي المسيطر على طرق التجارة في ذلك الوقت.

## رابعاً: في بلاد النوبة:

حكم بنو الكنز[٢]عرش مملكة النوبة الشمالية وعاصمتها دنقلة[٣] وكان وصولهم الى الحكم نتيجة للمصاهرة التي تمت بين أمراء الأسرتين الكنزية والملكية النوبية حيث أن عادات النوبيين تقضي بأن يرث العرش ابن الأخت أو ابن البنت، ولذلك تمكن أحد أمراء ربيعة واسمه كنز الدولة نصر بن شجاع الدين[٤] من اعتلاء العرش النوبي في دنقلة في سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م، لكن كثرة

---

[١] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢٢٢. ابن حجر، إنباء، ج١، ص٦١. الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج٢، ص١٥٢-١٥٤.

[٢] بنو الكنز: أصلهم من قبيلة ربيعة القاطنين اليمامة، قدموا مصر في خلافة المتوكل العباسي ونزلوا أعالي الصعيد حيث ساعد شيخهم أبو المكارم هبة الله سنة ٣٩٧هـ/ ١٠٠٦م الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله في القضاء على ثورة أبي ركوة فمنحه لقب كنز الدولة، حتى أصبحت قبيلة ربيعة تعرف فيما بعد ببني الكنز. المقريزي، البيان والاعراب، ص٤٤-٤٦. وللمزيد أنظر الربطي، ممدوح عبدالرحمن، دور القبائل العربية في صعيد مصر منذ الفتح الإسلامي حتى قيام الدولة الفاطمية وأثرهما في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ص٨٨.

[٣] دنقلة: مدينة كبيرة في بلاد النوبة على الضفة الشرقية لنهر النيل. ياقوت، معجم، مج٢، ص٣١٢.

[٤] كنز الدولة نصر بن شجاع الدين بن فخر الدين مالك. حكم سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٧م بعد أن اغتصب عرش دنقلة من خاله كرنبس ملك النوبة، توفي في النصف الأول من القرن الثامن الهجري. المقريزي، السلوك، ج٢، ق١، ص١٦١. القوصي، عطية، تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٧٦م، ص١٣٢.

الاضطرابات التي حدثت بين أفراد الأسرة الكنزية، فضلاً عن تدخل بعض القبائل العربيـــة التـــي استقرت في منطقة النوبة كبني جعد[1] وحلفائهم الذين استطاعوا السيطرة على دنقلة وتمكنوا مـــن التدخل المباشر في شؤون العرش النوبي في سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م. مما أضعف نفوذ بني الكـنز في دنقلة وبالتالي اضطروا للخروج منها بعد أن تحالفوا مع قبائل أخرى كبني عكرمة[2] وارتحلـوا شمالاً أملاً في استرداد نفوذهم في الصعيد حيث يشير المقريزي الى أن أولاد الكنز كانوا في سـنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م في ثغر أسوان.

وتشير الروايات التاريخية أنه قبل سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م، حدث نزاع بين ملك النوبة وابـن أخته، وكان الأخير قد ثار على الملك النوبي واستعان بعرب بني جهد في قتاله، واستطاع انـــتزاع عرش دنقلة منه وقتله. غير أن اتباع الملك النوبي المقتول أقاموا أخاه خلفاً له على العـرش عنـد قلعة الدو[3] متخلين عن دنقلة للأمير الثائر ولأتباعه من بني جعد، ويبدو أن هذا الثائر لم يعجبـــه تدخل بني الجعد في أمور مملكته، فأخذ يُعد للخلاص منهم، واستطاع قتل العديد منـــهم وتشـتيت العدد الباقي. بعد أن استخرج أموال وذخائر دنقلة[4].

ومن ثم عاد الى قلعة الدو طائعاً تحت إمرة حاكمها الجديد، ولذلك اتفق الاثنان فيما بينـــهما على ارسال سفارة الى السلطان الأشرف شعبان في سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م طالبين منـــه التدخـل

---

(1) بنو جعد: قوم من لخم إحدى القبائل العربية سكنوا بساحل اطفيح. المقريزي، البيان، ص٦٠.

(2) بنو عكرمة: بطن من الأوس القحطانية ومساكنهم بجوار منفلوط من صعيد مصر. القلقشندي، نهايـة الأرب، ص٣٦٧. المقريزي، البيان، ص٤٧.

(3) قلعة الدو: قلعة قريبة من ابريم وهي أول بلد النوبة. المقريزي، الخطط، ج١، ص٥٣٦.

(4) المقريزي، السلوك، ج٢، ق١، ص١٠٩. ابن إياس، بدائـــع، ج١، ق٢، ص٢٩. القوصـــي، دولـة الكنـوز، ص١٠٠.

أخته عنه في قلعة ابريم، كما أرسل الملك النوبي الهدايا الى السلطان الأشرف شعبان وهي عبارة عن عدد من الخيل والهجن والرقيق وغير ذلك[1].

وعندما وصلت الحملة الى أسوان أمر السلطان الأشرف شعبان الأمير حسام الدين المعروف بالدم الأسود[2] بقتل الأسرى جميعاً، ثم أرسل رؤوسهم الى القاهرة، لكن هذه الحملة كانت بمثابة محرك جديد لبني الكنز ولحلفائهم للثأر لما حل بهم وببلادهم، فجمعوا شتاتهم وثاروا مرة أخرى بعد سنة من حملة المماليك عليهم، حيث هاجموا مدينة أسوان وأوقعوا الهزيمة بقوات المماليك المرابطة فيها، وقتلوا الوالي الأمير حسام الدين، ثم قاموا بحملة أخرى نهبوا على أثرها الغلال والمواشي والأقمشة وأحرقوا البيوت وقتلوا كل من أمسكوه من الأهالي وأسروا الأطفال والنساء وألحقوا بالمدينة الدمار والخراب[3].

ظلت بلاد النوبة مستعصية على دولة سلاطين المماليك حتى بعد وفاة السلطان الأشرف شعبان سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م، وما لبث أن استقلت بشؤونها نهائياً في سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٤م، وأصبح لها مكاتبه من جملة مكاتبات الملوك في ديوان دولة المماليك[4].

---

(١) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١١٢. القاضي عبدالباسط، نيل الأمل، ج١، ورقة ٧٧/ب. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٣١-٣٢.

(٢) الأمير حسام الدين المعروف بالدم الأسود تولى ولاية مدينة أسوان. قتله بني الكنز سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٢٣.

(٣) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٢٣. القوصي عبدالباسط، نيل الأمل، ج١، ورقة ٨٠/ب.

(٤) القلقشندي، صبح، ج٨، ص٥، ٤٤. القوصي، دولة الكنوز، ص١٠٤.

## الفصل الثاني: علاقة دولة المماليك في عهد السلطان الأشرف شعبان مـــع الممالك المجاورة.

أ- أرمينية الصغرى

ب- مغول فارس والقفجاق

جـ- الدولة البيزنطية

د- مملكة بلاد الروم

هـ- الأراتقة في مدينة ماردين

و- دولة التركمان وسنجار

ز- الدول الإفريقية الشمالية والأندلس

# الفصل الثاني

## علاقة دولة المماليك في عهد السلطان الأشرف شعبان مع الممالك المجاورة

استطاعت دولة سلاطين المماليك التي قامت في مصر والشام سنة ٦٨٤ هـ / ١٢٥٠م أن تثبت أنها أعظم قوة معاصرة في المشرق الإسلامي؛ فنظر إليها حكام وشعوب الدول الإسلامية والغربية نظرة إكبار وإجلال؛ في حين نظرت إليها القوى الأخرى – خارج المحيطين العربي والإسلامي – نظرة خوف واحترام. وحسب دولة المماليك أنها استطاعت أن تواجه الأخطار الخارجية التي هددت المشرق الإسلامي في شجاعة وبأس، فحمت الشام ومصر من خطر المغول، وطردت الصليبيين كلية من أرض الشام، بل لاحقتهم في مراكزهم القريبة مثل أرمينية الصغرى وقبرص ورودس. هذا فضلا عن أن نجاح سلاطين المماليك في إحياء الخلافة العباسية في مصر – بعد سقوطها في بغداد – جعل لهم ولدولتهم مكانة مرموقة في العالم الإسلامي ، إذ جعلهم يبدون في صورة الزعماء الحقيقيين للعالم الإسلامي أجمع بوصفهم حماة الخلافة المتمتعين ببيعتها[1].

وهكذا اصبحت القاهرة في عصر سلاطين المماليك قبلة الأصدقاء والأعداء. جميعا؛ الاصدقاء يطلبون تأييدهم وينشدون مساعدتها، والاعداء يبغون ملاطفتها ومسالمتها، أو مهادنتها اتقاء لبطشها. وبين هذا وذاك من التيارات السياسية ظهر تيار التجارة والإقتصاد أشد ما يكون قوة وانطلاقا في ذلك العصر، ليجعل التجار والسفراء يترددون على مصر بين فينة وأخرى،

---

(١) عاشور، مصر والشام، ص٣٥٢.

يبغون عقد اتفاقية تجارية أو إلغاء مكس أو تخفيف ضريبة. وبذلك شهدت القاهرة نشاطا دبلوماسيا ضخما في عصر المماليك، وصارت مركزا لشبكة واسعة من العلاقات الخارجية مع الدول الصديقة وغير الصديقة، بحيث أصبح ديوان الإنشاء في عصر المماليك يمثل أضخم وزارة خارجية شهدها العالم أجمع في ذلك العصر.[1]

فالعلاقات التي قامت بين دولة المماليك في مصر والشام في فترة حكم السلطان الأشرف شعبان والدول المجاورة لها كمملكة ارمينية الصغرى والايلخانية المغولية في فارس وبلاد القفجاق والدولة البيزنطية ومملكة سلاجقة الروم والارانقة في مدينة ماردين ودولة التركمان وسنجار والدول الافريقية الشمالية والأندلس. هذه العلاقات يعتبر بعضها استمرارا للعلاقات التي ارتبطت بها الدولة مع هذه الدول قبل ذلك منذ أيام أسلافه السلاطين، وبعضها الآخر كان نتيجة لما استجد من ظروف فيما بعد في كل من دولة المماليك نفسها وهذه الدول، فضلا عن كون دولة المماليك مركزا للعالم الإسلامي لوجود المقدسات الإسلامية في الحجاز وفلسطين مما جعلها تتمتع بمكانة مرموقة بين هذه الدول، فأخذوا يطلبون ود سلطانها ومباركة الخليفة الإسلامي المقيم على أراضيها ونشير الى هذه العلاقات كما يلي:-

---

(1) عاشور، مصر والشام، ص٣٢٥.

## أ- أرمينية الصغرى[1]:

قامت مملكة أرمينية الصغرى في اقليم قيليقية بين جبال طوروس والبحر المتوسط وامتدت حتى حدود إمارة انطاكية. وكان أهلها خليطاً من سكان آسيا الصغرى المسيحيين[2] وقد تميزت علاقة دولة سلاطين المماليك ببلاد الأرمن المسيحية بالعداء الشديد، وجاء هذا العداء إبّان الحروب الصليبية. وذلك لتحالف مملكة الأرمن مع البابوية والصليبيين الذين كانت لهم إمارات في بلاد الشام، وكذلك لتواطئهم مع المغول واشتراكهم معهم في العديد من الحملات التي استهدفت بلاد الشام في دولة سلاطين المماليك[3].

ولذلك استمرت الحرب قائمة بين المماليك والأرمن، حتى بعد انهيار الصليبيين بسقوط عكا وخروجهم نهائياً من الساحل الشامي في سنة ٦٩١ هـ / ١٢٩١م[4] وتفكك الإيلخانية المغولية في

---

(1) أرمينية الصغرى (مملكة الأرمن) وهم طائفة من النصارى ومعتقدهم معتقد اليعاقبة وهذه البلاد ما بين بلاد الشام وبلاد الروم، وكانت أيام الخلفاء تسمى بلاد الثغور لمتاخمتها بلاد الروم وكانت عليهم جزية مقدرة يؤدونها في كل عام. الخالدي، المقصد، ورقة ٢٨٢/ب.

(2) Setton, Kenneth M. The Papacy and The Levant, (1204-1571). The American philosphical society. Philadelphia. 1976. Vol 1. P 630-685.

(3) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب، (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق محمد عبدالهادي شعيرة ومحمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠، ج٣، ص٢٥٩-٢٦٠. رنسيمان، ستفين، تاريخ الحروب الصليبية (مملكة عكا والحملات الصليبية المتأخرة)، نقله الى العربية السيد ألباز العريني، دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٨٠م، ج٣، ص٧٥٢. عاشور، فايد حماد، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي، جروس برس، طرابلس، لبنان، ط١، ١٩٩٥، ص٢٣٠.

(4) المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٨٠. أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل، (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، تاريخ أبو الفداء المسمى المختصر في أخبار البشر، علق عليه ووضع حواشيه محمود أيوب، دار الكتب العالمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧، ج٣، ص٣٦٠. ابن الجزري، شمس الدين محمد بن ابراهيم، (٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م)، تاريخ حوادث الزمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط١، ١٩٩٨، ج١، ص٤٥.

فارس فيما بعد، مما جعلها وحيدة أمام المماليك بعد أن فقدت سندا قويا بإنهيار كلا القوتين[1].

ومع ذلك استمر المماليك يغزون بلادهم ويغيرون على مملكتهم بين الحين والأخـــر لعـدم احترامهم العهود وخرقهم للاتفاقيات المعقودة بينهم وبين دولة سلاطين المماليك، ملحقين بـهم الهزائم المتلاحقة حتى أجبروهم على دفع جزية سنوية بشكل منتظم كدليل علـى الخضـوع والطاعة[2] كما استطاع المماليك الاستيلاء على معظم أملاك الأرمن وضمها الى أملاكهم، الامـر الذي أدى الى إلحاق اضرارا بالغة باقتصاد دولتهم[3] خاصة بعد انصراف التجـار عـن مينائـها الرئيس إياس[4] على ساحل البحر المتوسط بعد الاضطرابات التـي حدثـت للطريـق التجـاري المغولي المشهور تبريز[5] – الجزيرة – إياس، بسبب تفكك الإيلخانية الفارسية، ونتج عـن ذلـك أزمـة اقتصادية خانقة منعتها من أداء واجباتها المالية المفروضة عليها للمماليك[6]. حتى أن ملكهم ليو الخـامس ( ٧٢٠ – ٧٦٥ هـ / ١٣٢٠ – ١٣٦٣ م) بعث رسالة الى السلطان الأشـرف شـعبان طالبـا تخفيـف الضريبة المقررة عليهم نتيجة سوء الأحوال الاقتصادية، وأثناء وجود الرسل في القاهرة توفي الملك ليـو

---

[1] ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٦٥١-٦٥٢. عاشور، سعيد عبدالفتاح، تاريخ الحركة الصليبية، مكتبـة الأنجلـو المصرية، ط٤، ١٩٨٢، ج٢، ص١١٦١. العريني السيد البـاز، المغـول، دار النهضـة العربيـة، ١٩٨٦، ص٣١٩-٣٢٠. Irwin: Op.cit., P145.

[2] ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٤٥٩، المقريزي، السلوك، ج٢، ق١، ص١٧، ٢٤٦. عاشور، الجهاد الإسلامي، ص٢٣٠، ٢٣٢.

[3] ابن الجزري، حوادث الزمان، ج٣، ص٩٤٠. ابن الشحنة، أبي الفضل محمد، (ت ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م). الـدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تقديم عبدالله محمد رويشد، دار الكتاب العربي، دمشق، ١٩٨٤م، ص١٨٩.

[4] إياس: بلدة كبيرة من بلاد الأرمن على ساحل بحر الشام فيها ميناء أحدثه الصليبيين. أبو الفداء، تقويم البلـدان، دار صادر، بيروت، ص٢٤٩.

[5] تبريز: أشهر مدن أذربيجان وهي مدينة عامرة ذات أسوار محكمة. أنظر ياقوت، معجم، مج١، ص١٣.

[6] عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٥٧. عاشور، الجهاد الإسلامي، ص٢٣٢.

عليهم نتيجة سوء الأحوال الاقتصادية، وأثناء وجود الرسل في القاهرة توفي الملك ليو الخامس، فرفض السلطان شعبان طلبهم ورجعوا الى بلادهم دون تحقيق هدفهم[1].

بعد وفاة الملك ليو الخامس. تولى عرش مملكة الأرمن الملك ليو السادس،ويبدو أنه تأخر في دفع الإتاوة المفروضة على مملكته لدولة المماليك مما استوجب إرسال حملة لتأديبه، فتحركت قوات المماليك سنة ٧٧٠هـ / ١٣٦٨م بقيادة الأمير قشمتر المنصوري نائب حلب. واستطاع فتح سيس[2]، ولكن بمجرد رجوع نائب حلب الى بلاده، استطاع الأرمن إرجاع سيس وضمها ثانية الى املاكهم[3].

عد المماليك ذلك عصيانا وتمردا من الأرمن، فقرر السلطان الأشرف شعبان سنة ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م إرسال حملة كبيرة اليهم للخلاص من خطر الأرمن نهائيا، فأمر نائبه على حلب الأمير أقشتمر الماريديني بتجهيز الحملة والسير لغزو أرمينية، فخرجت قوات المماليك من حلب حتى وصلت العاصمة سيس، وضربت عليها حصارا محكما لمدة شهرين حتى قلت عنهم الأقوات، وضربها بالمنجنيق، وقد اشترك في القتال العديد من التركمان[4]. ثم أحكموا الحصار على قلعتها حتى طلب ليو السادس الأمان وسلم القلعة إلى الأمير اقشتمر الذي قبض عليه ونقله مع عائلته وجنده إلى القاهرة، ففرح السلطان الأشرف شعبان وابتهج المسلمون لهذا النصر العظيم، بعد أن زال خطر المملكة التي كانت تساند

---

[1] الخالدي، المقصد، ورقة٧٤ / ب. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٩٢.

[2] سيس. اعظم مدن الثغور الشامية بين أنطاكية وطرطوس وهي قاعدة ملك بلاد الأرمن. ياقوت، معجم، مج ٣، ص ١٠٥.

[3] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص ١٧٢. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٨٧. موير، وليم، تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٥، ص١١٧.

[4] التركمان: وهم قبائل بدوية وأصولهم ترجع الى الترك الغز المسلمين. استقروا في منطقة جنوب روسيا الحالية ثم قدموا نحو سواحل بلاد الشام ومنطقة حلب وشمال سوريا في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. ابن شداد، عزالدين محمد بن علي، ( ت٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م ) تاريخ الملك الظاهر، اعتناء أحمد حطيط، نشر دار فرانز شتاينر بفبادن، ألمانيا، ١٩٨٣ م، ص ١٢١. وأنظر بارتولد " تركمان " دائرة المعارف الاسلامية، ج٥، ص ٢١٢ – ٢٢٥.

الصليبيين والمغول في هجماتهم على بلاد الشام وأطراف العراق، فضلاً عن تهديدها الاقتصادي لدولة المماليك في مصر والشام[١].

وهكذا انتهى خطر الأرمن وأصبحت منطقتهم تابعة لدولة المماليك، واشرف على شؤونها نائب حلب ثم اصبح لها نائب يعرف بنائب سيس وهو الأمير يعقوب شاه[٢].

### ب- مغول فارس والقفجاق :-

كان المغول منذ أيام هولاكو[٣] يتطلعون إلى فتح مصر. في حين كان سلاطين المماليك حريصين من جانبهم على كسر شوكة المغول لما حل بالإسلام من الخطوب على أيديهم[٤]. ولذا كانت علاقات المماليك مع مغول فارس مضطربة قليلاً، فهي علاقات جيدة أحياناً، وعدائية حيناً آخر، وذلك حسب الأوضاع السياسية، إلا أنها تحسنت قليلاً في عهد الإيلخان أبو سعيد[٥] الذي ارتبط بعلاقات الود مع السلطان الناصر محمد، ولكن هذه العلاقات أخذت تضعف تدريجياً بعد وفاة الإيلخان أبو سعيد الذي توفي

---

[١] ابن حجر، إنباء، ج١، ص٧٥.ابن أجا، محمد بن محمود الحلب، (ت ٨٨١ هـ / ١٤٧٦م) ، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك من مهدي الداوادار، تحقق محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٦، ص١٣٧. موير، دولة المماليك، ص١١٧– ١١٨. خرابشةسليمان عبد العبدالله، نيابة طرابلس في العصر المملوكي، مطبعة جامعة اليرموك، عمان، ١٩٩٣، ص٦٨. .

[٢]الأمير يعقوب شاه بن عبدالله الحاجب. توفي سنة ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦ م. ابن تغري بردي، الدليل الشافي، ص٧٩٢.

[٣] هولاكو بن باطوخان بن جنكيز خان ملك المغول. كان أحد قواد أخيه منكوخان ملك بلاد المغول وبعد وفاة أخيه سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م، استولى على الحكم. توفي سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م. الكتبي، محمد بن شاكر، (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق احسان عباس، دار صادر، بيروت، ج٤، ص٢٤٠.

[٤]سرور، دولة بني قلاوون، ص١٦٦.

[٥] الإيلخان أبي سعيد بن خدبندا ملك المغول وصاحب العراق والجزيرة وخراسان والروم. تولى الملك لمدة عشرين سنة وتوفي في الأردو بأذربيجان سنة (٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م). أنظر ترجمته: اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى، (ت٧٥٩هـ/ ١٣٨٥م) نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق ودراسة أحمد حطيط، عالم الكتب، ط١، ١٩٨٦م، ص٣٣٤-٣٣٥. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، الوافي بالوفيات. تحقيق يوسف فان إس وآخرون، نشر دار فرانز شتاينر، شتوتجارت، ألمانيا، ط١، ١٩٨١م، ج١٠، ص٣٢٢. ابن حجر، الدرر، ج٢، ص٣٤.

سنة ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥م، حيث اضطربت الامبراطورية نتيجة كثرة الفتن والمؤامـرات، ومـا لبـث أن استقلّ الأمراء كلّ بولايته[1].

ونتيجة لهذا التفكك، فقد طمع السلاطين المماليك في وراثة أراضي هذه الإمبراطوريـة[2]، وبقي الحلم يراودهم حتى تحقق ذلك في عهد السلطان الأشرف شعبان، ذلـك أن القـائد خواجـا مرجان[3] والي بغداد من قبل الإيلخان أويس بن حسن[4] قد تمرد على سيده الإيلخان أويس بعـد خلاف حدث بينهما في سنة ٧٦٧ هـ / ١٣٦٥ م[5]، فأعلن عصيانه عليه، وخطب علـى منـابر بغداد باسم سلطان المماليك الأشرف شعبان، بعد أن قطع الخطبة للإيلخان أويس وألغى أسمه عـن السكة وأنفذ رسله إلى القاهرة في أوائل جمادى الأولى يطلب من السلطان الأشرف شعبان تقليـداً رسمياً بنيابة بغداد وأنه أخذ البيعة له في بغداد، ولما وصلت الرّسل الى القاهرة رحّـب السـلطان

(1) ابن خلدون، العبر، مج ٥، ص ٦٥١-٦٥٢. المقريزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٤٢١. العلبـي أكـرم حسـن، معارك المغول الكبرى في بلاد الشام، دار المأمون للتراث، دمشق، بيروت، ط١، ١٩٨٨م، ص ٣٢. وللمزيـد انظر المولى سالم يونس محمد، العراق في السياسة المملوكية ٦٥٦ – ٧٨٤هـ، رسـالة ماجسـتير غـير منشورة، كلية الآداب، جامعة الموصل، ١٩٨٩، ص ١٢٢ – ١٢٤.

(2) موير، دولة المماليك،ص ٩٠، المولى، العراق، ص١٣٠. سرور، دولة بني قلاوون، ص ٢١٤.

(3) الخواجا مرجان الطواشي، نائب الإيلخان أويس بن حسن على العراق توفي سنة ٧٧٣ هـ / ١٣٧١ م. ابـن حجر، الدرر، ج ٥، ص ٨٤.

(4) أنظر ترجمة ص (٢٢) من الفصل الأول

(5) ابن كثير، البداية، ج ١٤، ص ٣٤١ ، المقريزي، السلوك، ج ٣ ، ق١،ص ١١٢ ، السـخاوي، الذيـل التـام. حوادث (٧٤٥- ٨٥٠ هـ )،ص ٢١٣

الأشرف شعبان بهذا الولاء وأكرم الرسل، وأرسل معهم الخِلع والتقاليد السلطانية والخليفية بنيابة بغداد عنه[1].

قوبل هذا التمرد بالغضب الشديد من قبل الإيلخان أويس، فأرسل قاضي تبريز الى السلطان الأشرف شعبان مستنكراً ومحذراً من هذه التبعية، وطالباً عدم السماح لهذا الحاكم من دخول الأراضي التابعة لدولة المماليك إذا فر من وجه القوات المغولية لأن الإيلخان ينوي الهجوم على بغداد لإستردادها[2].

رفض السلطان الاشرف شعبان طلبه هذا وهدد رسله بعدم الاقتراب من بغداد وان مرجان هو نائب السلطان على بغداد، وأي مساس بها يعدُّ انتهاكاً لأراضي دولة سلاطين المماليك[3]. ولكن يبدو أن الإيلخان أويس كان الأسرع في تنفيذ تهديده، لذلك سار بقواته إلى بغداد واستطاع إعادتها وضمها إلى أملاك دولته ثانية أما القائد مرجان فإنه هرب حسب أقوال المؤرخ ابن كثير[4] خارج بغداد، وفي رواية أخرى قيل أنه قبض عليه وسمله.

يبدو أن سبب عدم مساندة المماليك للقائد مرجان يرجع الى الاضطرابات السياسية والتي تمثلت بكثرة الفتن الداخلية كفتنة الأمير طيبغا وصغر سن السلطان الأشرف شعبان وقلة خبرته في وقت تحتاج فيه مصر الى من يحسن تقدير الأمور ليقود البلاد بحنكة وحزم.

---

(1) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١١٢. ابن ناظر الجيش، تقي الدين بن محب الدين بن موسى، (ت٧٨٦هـ/١٣٨٤م، تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف، مخطوط مصور، ميكروفيلم تحت رقم (١٠٧٠)، مركز الوثائق والمخطوطات، مكتبة الجامعة الأردنية، ورقة ٢٩/ب.

(2) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١١٤. القاضي عبدالباسط، نيل الأول، ج١، ورقة ٧٨/ب.

(3) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١١٤. السخاوي، الذيل التام، حوادث (٧٤٥-٨٥٠هـ)، ص٢١٣.

(4) البداية، ج١٤، ص٣٤٢.

وبعد ثلاث سنوات من محاولة ضمّ بغداد الى دولة سلاطين المماليك، حلّ الوئام محل الخصام بدليل ورود رسل الإيلخان أويس في ذي الحجة سنة ٧٧٠ هـ / ١٣٦٨م الى القاهرة، كما أرسل السلطان الأشرف شعبان الامير ناصر الدين محمد بن الأمير سرقطاي الى تبريز حاملاً رسالته رداً على الرسالة السابقة، فظل الهدوء بين الدولتين حتى وفاة الإيلخان أويس في ذي القعدة سنة ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م[١] فورثه على العرش ابنة الإيلخان حسين[٢] الذي أبقى على صلات الود قائمة بينهما[٣]، كما أبقت دولة السلطان شعبان علاقاتها مع مغول القفجاق[٤] (القبيلة الذهبية) وتميزت هذه العلاقات بالتفاهم والإحترام المتبادل، نظراً للصلات الوثيقة التي ربطت ملوك القفجاق وسلاطين المماليك لارتباطهم بوحدة الدين وذلك منذ عهد ملكهم بركة خان[٥] (٦٥٤- ٦٦٦هـ/٢٥٦-١٢٦٧م) الذي اعتنق الإسلام ودخل في حلف مع السلطان الظاهر

---

(١) أنظر ترجمة ص (٣٢) من الفصل الأول

(٢) الإيلخان حسنين بن أويس الجلائري ، سلطان بغداد وتبريز . توفي سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م . ابن تغري بدوي ، المنهل الصافي ، ج ٥ ، ص ١٤٩ .

(٣) المولى ، العرق ، ص ١٣٢

(٤) مغول القفجاق أو القبجاق وهم فرع من الترك مساكنهم الأصلية حوض نهر أورتش وقد تنقلوا حتى استقروا للحوض نهر اتل ( الفولغا ) في جنوب روسيا الحالية فعرفت تلك الجهة باسم القبجاق أو القبيلة الذهبية . القلقشندي، صبح ، ج٤، ص٤٥١ ، ٤٥٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ .

(٥) بركة خان بن باطوخان بن دوشي بن جنكيزخان ملك القفجاق وصحراء سوراق وهي مملكة متسعة البراري والمروج .وبركة هذا إبن عم هولاكو خان ، ولما ملك البلاد أسلم وحسن إسلامه وأكرم الفقهاء والعلماء . توفي سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م. أنظر ترجمتة . اليونيني . أبو الفتح قطب الدين موسى بن محمد ، ( ٧٢٦ هـ / ١٣٢٥م ) ، ذيل مرآة الزمان مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ن صيدر آباد الركن ، الهند ، ط١ ، ١٩٥٤ -١٩٥٥ ، ج ٢ ، ص ٣٦٤ . الذهبي تاريخ الاسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، ( حوادث ٦٥١ - ٦٦٠ ق ) ، تحقق عمر عبد السلام تدمري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٩ ، ص ١٨٩ -١٩١.

٦٦٦هـ/١٢٥٦-١٢٦٧م) الذي اعتنق الإسلام ودخل في حلف مع السلطان الظاهر بيبرس[١]، كما اتفق خلفه منكوتمر مع هذا السلطان على مناوأة بيت هولاكو والقضاء عليه[٢].

وكان من أثر سياسة حسن التفاهم بين دولتي المماليك ومغول القفجاق أن تبادل ملوك الدولتين السفارات والمجاملات والهدايا مما أبقى الصفاء سائداً بين هاتين الدولتين حتى أصبح الإسلام ثابت الأركان في دولتهم[٣] كما اقترنت العلاقة بينهما بمصاهرة سلطان المماليك ببيت الملك أزبك خان، ذلك أن الناصر محمد أنفذ رسله سنة ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م الى أزبك خان يطلب فيها ربط أواصر الصداقة بينهما عن طريق المصاهرة[٤].

واستمرت عرا الصداقة مستحكمة بين هاتين الدولتين في عهد جاني بك ابن ازبك خان، فتبودلت المراسلات بينه وبين السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون سنة ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م[٥].

ولم يكن للانحلال الذي أصاب دولة مغول القفجاق بعد وفاة بردي بك بن جاني بك أثر في تغيير مجرى العلاقات بينهما وبين دولة سلاطين المماليك في مصر[٦] بل ظل الصفاء سائداً بينهما؛ فأرسل السلطان الأشرف شعبان الى الملك "أرض خان" الذي انتزع الملك من أحفاد أزبك، وفداً مزوداً بهدية من الاقمشة المنسوجة بالاسكندرية وبعض التحف والهدايا، كما بعث إليه برسالة

---

[١] المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص ٤٦٥ .

[٢] المصدر نفسة ،ج١ ، ق٢ ، ص ٦٤٠ – ٦٤٤

[٣] المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١١٧ – ١١٨

[٤] النويري ، نهاية الأدب ، ج٣ ، ص ١٢٥ ، المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق١ ، ص ٢٠٤.

[٥] القلقشندي ، صبح ، ج٧ ، ص ٢٩٥ –٢٩٦ .

[٦] عاشور، مصر والشام، ص٣٥٥.

يتباهى فيها بعظمة ملكه وتوارث الحكم في أسرته، ويعتذر عن تأخره في الكتابة إليـه بإنشـغاله بمحاربة الصليبيين الذين أغاروا على الاسكندرية؛ ومما ورد في هذه الرسالة:

" ...... الحمد لله الذي وهبنا ملكاً دانت له ملوك الأقطار وازدانت الأسرة والتيجان بما لـه من عظمة وفخار ...... نحمده على أن جعل مملكتنا الشريفة هي محل الإقامة العباسـية، فـلا جحود ولا إنكار ...... ونشكره على أن أورثنا ملك أسلافنا الشهداء، فأقر العيون وسر الأسـوار، وجعل السلطنة المعظمة في بيتنا المكرم تنتقل تنقل البدور في بروجها.

وكان لنا مدة مديدة، وقد تأخرت رسلنا عن (حضرتك) ولم تصدر من جهتنا الشريفة... ولا وردت رسل من ( جهتك )؛ ولم يشغلنا عن ذلك إلا موافقة الفرنـج المخذوليـن أعـداء الديـن، ومقارعتهم في سائر السواحل بشدة البأس والتمكين.

وقد وجهنا إلى المقام العالي أعلى الله شأنه صحبة رسلنا المذكورين من الاقمشة الإسكندري وغيرها على سبيل الهدية والمواهب السنية"[1] وصفوة القول أن علاقة السلطان شـعبان بمغـول القفجاق كانت مبنية على أساس متين نظراً للصلات الوثيقة التي تربط ملوك القفجاق بسـلاطين المماليك؛ فإلى جانب الوحدة الدينية، كان هناك المنفعة السياسية المتبادلة وهي العداوة المتأصلـة لبيت هولاكو.

### جـ- الدولة البيزنطية:-

أثبت سلاطين المماليك أنهم على جانب كبير من المهارة السياسية والقدرة علـى اكتسـاب الحلفاء في الخارج ضد أعدائهم الذين هددوا دولتهم تهديداً مباشراً في مصر والشام. وهكذا حالف

---

[1] القلقشندي، صبح، ج٧، ص٣١٨.

يكونوا الخطر الوحيد الذي هدد نفوذ المماليك وأمن دولتهم في بلاد الشام؛ وإنما كان هناك الخطر الصليبي الذي ما زال قائماً عند قيام دولة المماليك ليتمثل خطراً حقيقياً لا يستهان به.

وكان طبيعياً أن يحالف المماليك أعداء الصليبيين، مثلما حالفوا أعداء مغول فارس فمنذ عهد السلطان الظاهر بيبرس بدأت دولة المماليك في مصر تعنى بإنماء العلاقات بينها وبين الدولة البيزنطية، فحالف الظاهر بيبرس امبراطبورها ميخائيل باليولوجس ليستعين به على الصليبيين، وليفسح المجال للتجارة المصرية حتى يصير التجار آمنين على أنفسهم وأموالهم[1].

كذلك ارتبطت دولة سلاطين المماليك في عهد السلطان الأشرف شعبان بعلاقات جيدة مع الإمبراطورية البيزنطية، وقد توالى إرسال الرسل والسفارات إلى البلاط السلطاني في القاهرة طالبين وّدّ السلطان الأشرف شعبان[2]. ففي ربيع الأول سنة ٧٧٠هـ/ ١٣٦٧م وصل إلى القاهرة رسول من قبل الإمبراطور البيزنطي جون الخامس ( ٧٤٢ -٧٩٤هـ/ ١٣٤١ - ١٣٩١م)، وكان بصحبة بطريرك الطائفة الملكانية[3]، ويبدو أن هذه السفارة حملت طابعاً دينياً لمرافقة البطريرك للرسول ومع أن المصادر التاريخية لم تشر إلى سبب قدوم هذه السفارة فإنه يحتمل أن يكون الإمبراطور البيزنطي قد أنفذ هذه السفارة لتلتمس من السلطان الأشرف شعبان

---

(1) سرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٥٩ . عاشور ، مصر والشام ، ص ٣٨٩ – ٣٩٠

(2) المقريزي ، السلوك ، ج١ ، ق٢ ،ص ٤٧١ .عاشور ومصر والشام ، ص ٣٩٠ – ٣٩١. برتولد، شبولر، العالم الإسلامي في العصر المغولي، نقله الى العربية خالد أسعد عيسى، مراجعة وتقديم سهيل زكار، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ط١، ١٩٨٢م، ص١٠٩.

(3) الطائفة الملكانية :- تنتب هذه الطائفة الى ملكان الذي ظهر في بلاد الروم وهم يدينون إلى طاعة بطريرك رومة . القلقشندي، صبح ،ج ١٣ ، ص ٢٧١ –٢٧٦ .

أن يعيد للنصارى حريتهم[1] بعد المرسوم الذي أصدره الأتابك يلبغا العمري بملاحقتهم والقبض عليهم وتغريمهم الأموال انتقاما لإفعال الصليبيين في واقعة الإسكندرية وما نتج عنها من أضرار فادحة[2]، ومع ذلك لم تشر المصادر التاريخية لما أسفرت عنه هذه السفارة في حينها، ويبدو أنه بعد أن وقعت اتفاقية الصلح بين دولة المماليك وقبرص في سنة ٧٧٢هـ / ١٣٧٠م أفرج عن هؤلاء النصارى وأصبحت حياتهم طبيعية في مجتمع دولة المماليك[3].

كذلك أوفدت الإمبراطورية البيزنطية رسلها مرة أخرى في سنة ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م للتأكيد على تنمية العلاقات السياسية والتجارية، وكانوا محملين بالهدايا الثمينة ومن ضمن هذه الهدايا صندوق فيه شخوص لها حركات كلما مضت ساعة في الليل ضربت تلك الشخوص بأنواع الملاهي وكلما مضت درجة سقطت بندقة[4].

مما سبق نلاحظ حرصا شديدا من قبل الإمبراطور البيزنطي على دوام صداقة دولة المماليك لذلك إستمر في إرسال الهدايا الى السلطان الأشرف شعبان بين الحين والآخر.

---

(1) المقريزي ، السلوك ، ج ٣ ق١ ، ص ١٦٩ . ابن إياس ، بدائع ، ج١ ، ق٢ ، ص ٨١ . سرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٦١ .

(2) ابن كثير ، البداية ، ج١٤ ، ص ٣٤٥ . المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق١ ، ص ١٠٧ . القاضي عبدالباسط ، نيل الأمل ، ج١ ، ورقة ٧٧ / ب .

(3) المقريزي ، السلوك ، ج ٣ ، ق١ ، ص ١٩١ . السخاوي ، الذيل التام ، حوادث ( ٧٤٥ –٨٥٠ هـ ) ، ص ٢٤٦ –٢٤٧.

(4) ابن حجر ، إنباء ، ج١ ، ص ١٠٦ . ابن قاضي شهبة ، تاريخ ، م٣ ، ص ٤٨٣ .

## د- مملكة بلاد الروم[1]:-

حكم سلاجقة الروم مملكة بلاد الروم بآسيا الصغرى، وقد كـــان هـــؤلاء يدينـــون بـــالولاء لإيلخانات مغول فارس، على أن الفتن والاضطرابات ما لبثت أن قامت في دولة المغول بفـــارس بعد وفاة الإيلخان ابي سعيد سنة ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م، مما جعل سلاجقة الروم يلتمسون ودّ سلطان دولة المماليك[٢].

ففي أوائل سنه ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م أرسل الشيخ حسن الجلائري يطلب مســـاعدة السـلطان الناصر محمد ضد أعدائه أمراء الأقاليم المغولية[٣]. فطمع الناصر محمد في مد نفـــوذه وأرسـل بعض قواته الى حدود دولة المغول[٤].

كذلك عقد الناصر محمد حلفاً مع علاء الدين أرتنا[٥] حاكم آسيا الصغرى المغولـــي الــذي استقل بإمارة سيواس وما تبعها من البلاد سنة ٧٣٦هـ / ١٣٣٥م وقد كتب الأمير عـــلاء الديـــن إلى الناصر محمد يقول: " أريد أن أكون نائبك بممالك الروم" فأجابه بالموافقة وأرسل إليه الخلـــع

---

[1] مملكة بلاد الروم : عرفّها القلقشندي بقوله :" ما بيد المسلمين مما في شرقي الخليج القسطنطيني فيما بينه وبين أرمينية". وتعرف أيضاً ببلاد الدربندات ( أسيا الصغرى ). القلقشندي، صبح ، ج ٥، ص ٣٣٨ -٣٣٩ .

[٢] ابن خلدون، العبر، مج ٥، ص ٦٥١.المقريزي،السلوك، ج٢، ق٢، ص٤٢١. الصلبي، المغول، ص ٣٢.

[٣] الشيخ حسن الجلائري: يسمى الكبير تولى حكم الروم بآسيا الصغرى بعد وفاة الأيلخان أبي سعيد المغولي سـنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م. المقريزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٢٣٩.

[٤] المقريزي ، السلوك ، ج٢ ، ق٢،ص٢٤١-٢٤٢ . موير ، الدولة المملوكية ، ص ٨٨ .

[٥] علاء الدين أرتنا أحد حكام بنو أرتنا وهم قوم من سلاجقة الروم حكموا آسيا ألصغرى من قبل المغـــول منـذ سينة ٧٢٨ هـ/ ١٣٢٧م. ثم خضعوا للمماليك . زامباور ، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فـي التـاريخ الاسلامي ، أخرجه زكي محمد حسن بك ، وحسن أحمد محمود ، مطبعة جامعة فـواد الأول ، ١٩٥١ ، ص ٢٣٢ .

السنية وصارت ترد إليه الكتب بإسم نائب السلطنة الشريفة بالبلاد الرومية كما أصبح الناصر محمد يذكر على منابر تلك البلاد[1].

استمرت هذه العلاقة جيدة مع بنو أرتنا في عهد السلطان شعبان، ويذكر ذلك المقريزي[2] :"حيث خرجت قوات المماليك في رجب سنة ٧٦٦هـ / ١٣٦٤م من حلب بقيادة نائبها لنجدة الملك غياث الدين محمد بن أرتنا[3] لنجدته ضد منافسيه." كذلك تميزت علاقات دولة السلطان الاشرف شعبان مع مملكة سلاجقة الروم بأنها علاقات جيدة، ففي شوال سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م، وصل الى القاهرة رسول ملك الروم أرخان بن عثمان[4]، لإطلاع السلطان الأشرف شعبان بأن الملك أرخان قد جهّز مائتي مركبة بحرية تعرف بالغراب[5] كمشاركة منه في أسطول المماليك المتجه نحو جزيرة قبرص لتأديبها على ما فعلته بالاسكندرية، فرد عليه السلطان الأشرف شعبان بالشكر وأثنى عليه وأخبره أن تنتظر هذه السفن مكانها حتى يتم تجهيز الأسطول المصري للانضمام إليه[6].

---

[1] القلقشندي ، صبح ، ج٥ ، ص ٣٦٣ . ابن تغري بردي ، النجوم ، ج٥ ،ص١٣٧ .

[2] السلوك ،ج ٣ ، ق١ ،ص١٠٠ .

[3] غياث الدين محمد بن أرتنا ،صاحب الروم استقر بعد وفاة والدة سنة ٧٥٣ هـ / ١٣٥١ م . توفي سنة ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م . ابن حجر ، الدرر ، ج٣ ، ص ٤٦٧ .

[4] أرخان بن عثمان التركماني تغلب على بلاد الروم وعظم قدرة وكثرت فتوحاته وهو أول من أشتهر من بني عثمان ملوك الروم . ابن حجر ، الدرر ، ج١ ، ص ٣٦٩ .

[5] الغراب . مركب لحمل الغزاة له مجاذيف منها ماله ١٨٠ مجذاف أو أقل وسمي كذلك لأن مقدمته تشبة رأس الغراب أو الطائر . ابن مماتي ، أسعد ، ( ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م ) ، قوانين الدواوين ، تحقيق وجمع عزيز سوريال عطية ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط١ ، ١٩٩١ ، ص ٣٤٠ ، وانظر النخيلي ، درويش ، السفن الاسلامية على حروف المعجم ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٧٩ م ، ص ١٠٤.

[6] المقريزي ، السلوك ، ج٣ ، ق١ ، ص ١٢١ . القاضي عبد الباسط ، نيل الأمل ، ج١ ، ورقة ٨٠ / ب . ابن إياس ، بدائع، ج١ ، ق٢ ، ص ٣٨ .

## هـ- الأراتقة[1] في مدينة ماردين[2].-

كذلك تميزت علاقات دولة سلاطين المماليك بالود مع الأراتقة في مدينة ماردين، منذ تولـي السلطان الأشرف شعبان الحكم، وعاصره على حكم ماردين وقتئذ الملـك الصـالح بـن غـازي أرسلان [3]. ثم خلفه ابنه الملك المنصور أحمد[4] الذي أرسل رسله إلى السلطان الاشرف شـعبان يحذره بأن الأمير بيرام خجا التركماني[5] قد زاد خطره منذ أن أحتل الموصل وأن قواتـه بلغـت ثلاثين ألف مقاتل، ولما استعاد السلطان أويس بن حسن الموصل بعد تمرد نائبه الطواشي مرجان، هرب بيرام خجا الى بلاد العجم وأطمع الملك المنصور السلطان أويس بضم ماردين، وحذره مـن عواقب ذلك فإنه متى استطاع ضم ماردين لدولته فإن حلب ستكون الخطوة التالية لقواته[6].

---

[1] الأراتقة: أسرة تركية حكمت ديار بكر كلها أو جزء منها، كانوا يتبعون المغول أحيانا. وينسب الأراتقـة الـى أرتق بن أكسب وهو من قبيلة دوكر التركمانية. كاهن، مادة أرتق، دائرة المعـارف الإسـلامية، ص٥٢٦-٥٣٦.

[2] ماردين قلعة مشهورة على قمة جبل الجزيرة مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين في ديار بكر .ياقوت ، معجم ، مج ٤ ، ص١٩٤ . القلقشندي صبح ، ج٧ ، ص ٢٨٨.

[3] الملك الصالح صالح بن غازي بن أرسلان بن أرتق صاحب ماردين ملكها ٤٥ سنة توفي سـنة ٧٦٥ هـ / ١٣٦٣ م. ابن حجر ، الدرر ، ج٢، ص٣٠١ .ابن قاضي شهبة .تاريخ ، مج ٣ ، ص٢٦٣.

[4] ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج٢، ص٢٢١. أما المقريزي وابن إياس فجعلا وفاته سـنة ٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م. السلوك، ج٣، ق١، ص٩٥. البائع، ج١، ق٢، ص١٢.

[5] الملك المنصور أحمد بن صالح بن أرتق صاحب ماردين . توفي سنة ٧٦٩ هـ / ١٣٦٧ م. ابن تغري بـردي، المنهل ، ج١، ص٣١٨ .

[6] المقريزي ، السلوك ، ج٣ق١، ص١٢٢ . ابن قاضي شهبة .تاريخ، مج ٣ ، ص ٢٧٧ .

تنبه السلطان الاشرف شعبان للمخاطر التي تنتظر دولته ان لم يستعد لحماية أطراف الشام الشمالية ولذلك جهز قوة لنجدة صاحب ماردين وعزز قوات حلب بالرجال مما درع خطر المغول وجعلهم يحسبون عواقب مهاجمة أراضي دولة المماليك[1].

## و- دولة التركمان وسنجار :-

أما الأطراف الشمالية لدولة المماليك في شمال بلاد الشام وأعالي الفرات وشرق آسيا الصغرى. فكانت على نزاع دائم مع التركمان وخاصة دولة بني دلغادر[2] الذين لطالما أعلنوا تمردهم على دولة المماليك، لذلك وجه السلطان الاشرف شعبان الأمير سيف الدين جرجي الناصري[3] نائب حلب في سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م نحو بلاد التركمان لمحاربة الأمير خليل بن قراجا بن دلغادر التركماني[4]، واستطاعت الحملة السيطرة على مدينة خرتبرت[5] وعلى قلعتها الحصينة بعد أن حاصرها جيش المماليك لمدة أربعة أشهر حتى أضطر أميرها إلى التسليم بمقتضى الأمان الذي أعطي له، وبذلك دخلها المماليك وأقرت سلطنة السلطان الأشرف شعبان

---

(1) المقريزي ، السلوك ، ج٣ ،١ص١٢٢ .ابن اياس ، بدائع ،ج١،ق٢،ص٣٩ .

(2) دولة بني دلغادر قوم من التركمان زعموا أن نسبهم يعود إلى كسرى أنوشروان الفارسي عرفوا بالشهامة والشجاعة . زامباور ، معجم ، ص ٢٣٥ .

(3) سيف الدين جرجي بن عبدالله الأدريسي الناصري . توفي سنة ٧٧٢ هـ / ١٣٧٠ م . ابن تغري بردي ، النجوم ، ج ١١ ، ص ٩٢ . ابن قاضي شهبة ، تاريخ ، مج ٣ ،ص ٣٨٦

(4) خليل بن قراجا بن دلغادر التركماني ، كبير التركمان البندقية وأمير الأبلستين توفي سنة ٧٨٨ هـ / ١٣٨٦ م . ابن حجر ، الدرر ، ج٢ ، ص ١٧٨ .

(5) خرتبرت: مدينة وسط تركيا الى الشرق منها وهو اسم أرمني وسماها العرب حصن زياد وتقع أقصى ديار بكر من بلاد الروم. ياقوت، معجم، مج٢، ص٢٢٢.

فيها بعد أن أحضر الأمير خليل صاحبها الى القاهرة، فعفى عنه السلطان شعبان وانعم علية بإقطاع[1].

كذلك استطاع السلطان الاشرف شعبان ضم مدينة سنجار[2] الى أملاك دولته في سنة ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م بعد حصار قوات المماليك لها حتى أضطر صاحبها الى التسليم ومن ثم أحضر الى القاهرة بعد أن استتاب بها السلطان شعبان أميرا نائبا عنه فيها فأصبحت تابعة لدولة سلاطين المماليك[3].

## ز- الدول الإفريقية الشمالية والأندلس :-

تبوأت مصر بين أمم العالم الإسلامي في عهد أسرة قلاوون مكانة سامية، فأصبح الملوك يخطبون ود السلطان المملوكي ومن هؤلاء ملوك دول أفريقيا ذات الصلات بالمماليك وأشهرها دولة بني مرين بفاس والمغرب ودولة بني زيان[4] بتلمسان ودولة بني حفص[5] بتونس، ويتصل بشمال أفريقيا ملوك الأندلس في غرناطة. [6]

---

[1] ابن حبيب، درة الأسلاك، ج٣، ورقة ٤٢/ب – ٤٣/أ. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٢٠.

[2] سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة في لحف جبل عال وهي قريبة من الموصل. ياقوت، معجم، مج٣، ص٧٨.

[3] ابن حجر، إنباء، ج١، ص١٠٥. ابن قاضي شهبة، تاريخ، مج٣، ص٤٨٣.

[4] بنو زيان: أسرة بربرية من ملوك تلمسان حكمت المغرب الأوسط من القرن الثالث عشر حتى القرن السادس عشر الميلادي وينسبون الى الشريف الأدريسي. الفرد بل، مادة زيان، دائرة المعارف الإسلامية، ص٤٧٣-٤٧٤.

[5] بنو حفص: أسرة من البربر حكمت في شمالي أفريقية نيفا وثلاثة قرون ونسبت هذه الأسرة الى الشيخ أبي حفص عمر. أيفر، مادة الحفصيون، دائرة المعارف الإسلامية، ص٤٧٤-٤٧٨.

[6] غرناطة: هي أقدم مدن كورة البيرة من أعمال الأندلس، ياقوت، معجم، مج٣، ٣٨٣.

وقد تميزت هذه العلاقات بأنها في جملتها أساسها تبادل الهدايا والمجاملات في المناسبات المختلفة وخاصة موسم الحج في كل عام نظرا لموقع مصر في طريق الحاج المغربي، ومكانه دولة المماليك الدينية لاشرافها على الأراضي المقدسة، فقد عمل السلاطين المماليك على تسهيل أداء هذه الفريضة للحجاج المسلمين في شتى الأقطار ولا سيما الأقطار الافريقية.[١]

كذلك كانت مصر في عصر سلاطين المماليك ملجأ كثير من المغاربة اللاجئين اليها فرارا من حكام بلادهم، ولم يقتصر الأمر على الأمراء المغاربة الفارين من بلادهم، وإنما تعدى ذلك الى هجرة بعض الأفراد والطوائف من أهل المغرب الى مصر يتلمسون فيها العلم والرزق.[٢]

ولا يخفى علينا أن ملوك المغرب كانوا ينظرون الى سلطنة المماليك نظرة أمل بوصفهم حماة العالم الاسلامي ضد الأخطار التي هددته من جهة المشرق وهناك في المصادر التاريخية ما يشير الى أن ملوك المغرب كانوا يقفون موقف المرتقب عندما دهم خطر المغول المشرق الاسلامي على أيام هولاكو وأنهم كانوا يسارعون الى تهنئة المماليك عقب كل انتصار يحرزوه على خصومهم.[٣]

كذلك حرص سلاطين المماليك على ارسال البشائر الى المغرب كلما أحرزوا انتصارا على أعداء المسلمين في الشرق مثل المغول أو الصليبيين.[٤]

---

[١] ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٥٧٠-٥٧١. طرخان، مصر، ص١٤٣.

[٢] ابن خلدون، العبر، مج٧، ص٤٥١.

[٣] النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٥٦.

[٤] القلقشندي، صبح، ج٧، ص٤٠٧-٤١١.

ولا شك في أن تلك العلاقات الطيبة بين مصر والمغرب مهدت لانتعاش التبادل التجاري والثقافي بين الطرفين وخاصة عبر ميناء الاسكندرية. [١]

واستمرت العلاقات جيدة بين دولة المماليك في عهد السلطان الأشرف شعبان ودول افريقية الشمالية ففي سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م قدم الى القاهرة السلطان عبدالحكيم بن أبي علي عمر المريني[٢] من المغرب هاربا من بلاده – بعد أن ثار عليه أحد أقاربه – ومستنجدا بالسلطان شعبان لاستعادة ملكه، فأكرمه السلطان الأشرف شعبان وأجرى له الرواتب وزوجه من إمرأة مصرية، ثم توجه هذا السلطان مع الركب المصري الى الحج، ولما رجع جهزه السلطان شعبان للرجوع الى بلاده، وخلع عليه الثياب وأهداه سيفا مذهبا، ولكنه توفي في طريق رجوعه في أوائل ربيع الأول سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م. [٣]

وكان ملوك افريقية يحرصون دوما على تقوية العلاقات مع دولة سلاطين المماليك، فقد بعث ملك المغرب عبد العزيز بن أبي الحسن علي بن أبي سعيد المريني[٤] مكاتبه الى السلطان

---

[١] ابن الصيرفي، علي بن داود، (ت ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م)، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، مطبعة دار الكتاب، الجمهورية العربية المتحدة، ١٩٧٠م، ج١، ص١٤٥. طرخان، مصر، ص١٤٣.

[٢] السلطان عبدالحكيم بن أبي علي عمر المريني، استقل بسجلماسة ثم خلع. توفي سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م. ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبدالله، (ت ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م)، الإحاطة في أخبار غرناطة، حققه ووضع حواشيه محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٧٧، مج٣، ص٥٢٩-٥٣٣.

[٣] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٠٠،١٠٨.

[٤] السلطان عبدالعزيز أبو الحسن علي المريني. سلطان بني مرين في المغرب، تولى السلطنة سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م، وتوفي سنة ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م. الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد، كتاب الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى (الدولة المرينية)، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٥م، ق٢، ج٤، ص٥٩.

الأشرف شعبان يحرص بها على التودد اليه ويقر فيها ويعترف له بالأفضلية والمنزلة العالية لما خصه الله من ضخامة الملك وشرف الولاية بالمساجد المعظمة وخدمة الحرمين. [1]

كما تبادل ملوك غرناطة مع سلاطين المماليك مراسلات عديدة تنم عن الرغبة في توطيد الصلات، ويتبين لنا ذلك جليا من هذا الخطاب الذي أرسله السلطان الغني بالله[2] ملك غرناطة (٧٥٥-٧٩٣هـ/ ١٣٥٤-١٣٩٢م) إلى الأمير يلبغا العمري أتابك العساكر الذي كان مستأثرا بالسلطة دون السلطان الأشرف شعبان، ومما جاء فيه: " إلى الأمير المؤتمن على أمر سلطان المسلمين ... زين الأمراء، علم الكبراء ... الأمير الأوحد يلبغا الخاصكي[3] ... أما بعد حمد الله تعالى ... فأنا كتبنا اليكم كتب الله تعالى لكم حظا من فضله وافرا ... من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى، دار ملك الأندلس ... ولا رائد لنا الا الشوق إلى التعارف بتلك الأبواب الشريفة التي أنتم عنوان كتابها المرقوم ... والتماس بركتها الثابتة الرسوم ... وإلى هذا فإننا كانت بين أسلافنا، تقبل الله تعالى جهادهم ... وبين تلك الأبواب ... مراسلة ينم عرف الخلوص من خلالها وتسطع أنوار السعادة من آفاق كمالها ... اشتقنا إلى أن نجددها بحسن منابلكم ونواصلها بمواصلة جنابكم ... فخاطبنا الأبواب الشريفة في هذا الغرض مخاطبة خجلة من التقصير وجلة من النافذ البصير ... وهذه البلاد مباركة، والله عز وجل يجمع القلوب على طاعته وينفع بوسيلة النبي صلى الله

---

(١) ابن ناظر الجيش، تثقيف التعريف، ورقة ١٤/ب.

(٢) السلطان الغني بالله محمد بن يوسف بن نصر. ثامن سلاطين بني نصر في غرناطة توفي سنة ٧٩٣هـ/ ١٣٩٢م. أنظر ترجمته ابن الخطيب، الإحاطة، مج٢، ص٢-٥٩.

(٣) الخاصكي مفرد خاصكية وهم جماعة من المماليك السلطانية ممن دخلوا في خدمة السلطان صغارا يدخلون عليه بدون إذن ويلازمونه بخلواته ويسوقون المحل الشريف ويتميزون في مركوبهم وملبوسهم وحملهم لسيوفهم في الخدمة. الظاهري، زبدة، ص٩٧.

عليه وسلم الذي نعول على شفاعته ويبقى تلك الأبواب ملجأ للاسلام والمسلمين ...... وإقامة الشعائر الحرم الأمين ويتولى إعانة إمارتكم على وظائف الدين". [1]

ولم يكتف السلطان محمد الغني بالله بتلك الرسالة التي بعثها الى الأمير يلبغا العمري بل أنفذ سفارة وخطابا آخر الى السلطان الأشرف شعبان في سنة ٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م يخبره فيها بقيامه بمحاربة المسيحيين في الأندلس واستعادته لملكه بعد أن اغتصبه أحد أقاربه، وفي هذا دليل قاطع على توثيق العلاقات بين مصر وغرناطه وعلى روح الإخاء والمودة التي كانت سائدة بين حكام البلدين. وقد بعث السلطان الأشرف شعبان الى السلطان محمد الغني بالله رسالة جوابية رد فيها على كتابه نقتطف منها ما يأتي:

"...... نوضح لعلمك الكريم أن كتابك ورد علينا مشتملا على المحاسن الغراء، مغربا بل معربا لنا بحمرة لونه أن نسبته الى الحمراء ... فوقفنا على مضمونه جميعه، وعلمنا ما فيه: من استمرارك على عادة سلفك في القيام بأمر الجهاد وقطع دابر الكفرة ذوي الشقاق والعناد وتوطيد ما لديك من تلك البلاد ... وأما غير ذلك فقد وصل رسول الحضرة العلية الينا وتمثل بمواقفنا المعظمة ... وأقبلنا عليه، وضاعفنا الاحسان اليه، وأدى الينا ما تحمله من المشافهة الكريمة ورسائل المحبة والمودة القديمة، فرسمنا بإجابة قصده ... وقضاء شغله الذي حضر فيه، وتسهيل

---

[1] التلمساني، أحمد بن محمد المقري، (ت ١٠٤١هـ/ ١٦٣١م)، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، شرحه وعلق عليه مريم قاسم طويل ويوسف علي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، ج٨، ص٤٠٩-٤١١. عنان، محمد عبدالله، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٣، ١٩٦٦م، ص١٤٧.

مآربه ... ومسامحه الحضرة العلية بما يتعين على ما قيمته ألفا دينار مصرية حسب ما عينه رسولك". [1]

على أن العلاقات لم تقتصر على تبادل الهدايا والمجاملات بل تعدتها الى المشاركة في المسائل السياسية، فعندما نهب الصليبيون مدينة الاسكندرية في سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م. كان رد فعل أهل غرناطة على ذلك قويا بأن هاجموا افرنج مدينة جيان[2] انتقاما لإخوانهم في مصر، وهذا ما سنتحدث عنه لاحقا عند الحديث عن غزو الصليبيين مدينة الاسكندرية. [3]

---

[1] القلقشندي، صبح، ج٧، ص٤٤٢.

[2] جيان: مدينة في الأندلس تقع الى الشرق من قرطبة بينها وبين غرناطة مائة كم. ياقوت، معجم، مج١، ص١٩٥. حتاملة، محمد عبده، موسوعة الديار الأندلسية، الجامعة الأردنية، عمان، ط١، ١٩٩٩، ج٢، ص٤٠٨.

[3] ابن الخطيب، الإحاطة، مج ٤، ص٥٨٠. التلمساني، نفح الطيب، ج٧، ص٣.

## الفصل الثالث: علاقة دولة سلاطين المماليك مع الصليبيين في عهد السلطان الأشرف شعبان.

أولاً: الأطماع الصليبية تجاه مصر والشام

ثانياً: حروب المماليك مع الصليبيين في السواحل الشامية والمصرية

ثالثاً: حملة الملك بطرس الأول لوزنيان على الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م

رابعاً: النتائج التي ترتبت على هذه الحملة على الصعيدين الإسلامي والصليبي.

خامساً: صدى الوقعة على العالم الإسلامي والغربي

# الفصل الثالث

## علاقة دولة سلاطين المماليك مع الصليبيين في عهد السلطان الأشرف شعبان

### أولا- الأطماع الصليبية تجاه مصر والشام:-

لقد كان الشرق الإسلامي في العصور الوسطى يعيش إنقساما داخليا عنيفا من الناحيتين السياسية والدينية، فمن خلافة عباسية سنية في بغداد إلى خلافة فاطمية شيعية في القاهرة.[1] وبسبب هذا الانقسام عاشت مصر وبلاد الشام صراعا مريرا بين الخلافتين. ونتيجة لضعف الخلافة العباسية وعجزها عن توحيد الأمة والذود عن بلاد المسلمين[2]، تمكن الصليبيون بدعوة من البابوية من إحتلال مدينة بيت المقدس[3] سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٨م وجميع الساحل الشامي من أقصاه إلى أقصاه.

---

(١) ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة بن أسد، (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م)، ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م، ص٢٣٤-٢٣٥. عمران، محمود سعيد، الحملة الصليبية الخامسة (حملة جان دي برين على مصر، ٦١٥-٦١٨هـ/١٢١٨-١٢٢١م)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م، ص٤٩.

(٢) ابن الأثير، عز الدين علي بن أبي الكرم، (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٤م)، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٦٧م، ج١٠، ص٢٨٤. الغامدي، مسفر بن سالم عريج، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، دار المطبوعات الحديثة، جدة، ط١، ١٩٨٦م، ص١٠٦-١٠٨. عاشور، الحركة الصليبية، ج١، ص٣٨٤-٣٨٥.

(٣) عن سقوط بيت المقدس بيد الصليبيين. أنظر ابن الأثير، الكامل، ج١٠، ص٢٨٢-٢٨٥. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٣٦-١٣٧.

وقد شكّل الاحتلال الأوروبي الصليبي تحدياً خطيراً للأمة الإسلامية، ليس على الأرض فقط، ولكن في معتقداتها الدينية، إذ أن هدف الصليبيين الظاهري والمُعلن كان هدفاً دينياً شعاره الصليب[1].

وأمام هذا التحدي ظهرت في أوائل القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، بعض القوى الإسلامية الفتية بشمال العراق والشام، التي أخذت على عاتقها مهمة توحيد الأمة الإسلامية لمقاومة الصليبيين ورد خطرهم[2]. وتمثلت هذه المقاومة بظهور شخصية عماد الدين زنكي[3]، أتابك الموصل، وسلطان حلب (٥٢٠-٥٤١هـ/١١٢٦-١١٤٦م) الذي تمكن من الاستيلاء على إمارة الرها[4] سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م[5]، ومن بعده ابنه نور الدين محمود[6] الذي واصل سياسة

---

(1) يوسف، جوزيف نسيم، العدوان الصليبي على مصر (هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور)، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م، المقدمة.

(2) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص١٨١. يوسف، العدوان الصليبي، ص٢٣.

(3) عماد الدين زنكي هو ابن آقسنقر البرسقي بن عبدالله المعروف والده بالحاجب. تولى ولاية الموصل سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م. وتوفي سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م. ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٨٢-٢٨٥. ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٠، ج١، ص٩٩-١٠٠.

(4) الرها مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام. ياقوت، معجم، مج٢، ص٤٥٠.

(5) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٢٧٩. ابن الأثير، الكامل، ج١١، ص٩٨. ابن العديم، كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله، (ت ٦٦٠هـ/١٢٦٢م)، زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق سامي دهان، دمشق، ١٩٥١م، ج٢، ص٢٧٩. ابن العبري، غريغوريوس الملطي، (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، تاريخ مختصر الدول، دار المسيرة، بيروت، ص٢٠٦.

(6) نور الدين زنكي وهو ابن عماد الدين زنكي. تولى أتابكية الموصل وحلب سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م بعد وفاة والده. توفي سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م. بعد جهاد طويل في سبيل توحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين. للمزيد أنظر. ابن العديم، زبدة الحلب، ج٢، ص٣٤٠. أبو شامة، شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل، (ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م)، تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجريين المعروف بالذيل على الروضتين، تقديم محمد زاهد الحسن الكوثري، نشره وراجع أصله السيد عزت العطار، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٧٤، ج١، ص٥٥٩.

أبيه في الجهاد ضد الصليبيين[1]، ثم جاء صلاح الدين الأيوبي الذي تمكن من توحيد مصر وبلاد الشام وأنهى الخلافة الفاطمية في مصر، ثم توج أعماله هذه باسترداد بيت المقدس من أيدي الصليبيين إثر معركة حطين الشهيرة سنة (٥٨٣هـ/ ١١٨٧م). وطرد الصليبيين الغزاة منها في نفس السنة[2].

ولقد هيأ هذا الجهاد لمصر في عصر الأيوبيين مكان الصدارة في العالم الإسلامي في ذلك الوقت وأصبحت مصر معقل الإسلام المنيع ومصدر الإمداد الذي احتشدت فيها قوى المسلمين لمكافحة الصليبيين والمعتدين[3]، وانحصر هدف الغرب الأوروبي منذ ذلك الحين في إزالة قوتها من الميدان، لإدراك الغرب أنه لن يتم استرداد بيت المقدس إلى حظيرة الصليبيين إلا بمُلك مصر أولاً وقبل كل شيء، وعلى هذا الأساس يمكن تفسير السر في اتجاه الحملات الصليبيّة الكبيرة نحو مصر منذ أوائل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي[4].

وقد امتازت فترة الأيوبيين بكثرة الحملات الصليبية على الدولة الأيوبيّة، وكانت هذه الحملات تهدف إلى استرداد بيت المقدس، فضلاً عن المنازعات الداخلية بين أبناء البيت الأيوبي في مصر وبلاد الشام للانفراد بالحكم. ففي ربيع الآخر سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م أبرم الإمبراطور

---

(1) ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، ص٣٣٣، ٣٣٩-٣٤٢. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٧، ٢١، ٣٢. ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص٢١٩.

(2) الأصفهاني، عماد الدين محمد بن محمد بن حامد، (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م)، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م، ص١٧-٢٥، ٣٦-٤٥، ١٤٠، ٢٦٠، ٣١٤-٣١٧. ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص١٧٧-١٧٨، ١٨٨.

(3) سالم، السيد عبد العزيز، بالاشتراك مع سحر سالم، دراسة في تاريخ الأيوبيين والمماليك، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٢م، ص٧٥.

(4) المرجع نفسه، ص١٤٠-١٤١، ١٤٤.

لمحاربة السلطان الصالح أيوب[1] ملك مصر، وسلّما للصليبيين بيت المقدس وطبرية وعسقلان في سنة ٦٤١هـ/١٢٤٣م.[2]

وبقيت بيت المقدس بأيديهم إلى أن حررها الخوارزمية[3] سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٣م. [4] وبذلك فقد الصليبيون بيت المقدس نهائياً. كما منيت غزة بضربة قاسية على يد القوات المصرية والخوارزمية وأصيب الصليبيون عندها بهزيمة كبيرة، إذ وقعوا كلهم تقريباً ما بين قتيل وأسير، وفضلاً عن ذلك فقد استولى المسلمون على بعض المدن الساحلية بالشام التي كانت تخضع للصليبيين، وأصبحت باقي ممتلكاتهم ومعاقلهم في الشام مهددة بالخطر والضياع[5]. كما أنزل الخوارزمية بالصليبيين في الشرق صنوفاً شتى من العذاب واستهتروا بحرمة الكنائس، وأشعلوا

---

(1) السلطان الصالح نجم الدين أيوب وهو ابن الكامل محمد. استنابه والده على مصر سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٧م، ثم تسلطن على مصر بعد مقتل أخيه العادل. توفي سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م. أثناء حصار الصليبيين لدمياط. أنظر ترجمته الصفدي، الوافي بالوفيات، ج١٠، ص٥٥-٥٧.

(2) ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص٣٣٢. المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٣١٨. عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٠٤٠.

(3) الخوارزمية:- هم بقايا الدولة الخوارزمية التي حكمت بلاد ما وراء النهر. هربوا نحو الدولة الأيوبية وخوارزم اسم لكورة وتسمى مدينتها الكبرى قيلا. للمزيد أنظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص٣٣٦-٤٣٠. الحميري.

(4) ابن العبري، مختصر الدول، ص٤٥٢-٤٥٦. ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص٣٢٦-٣٢٧. المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٣١٦، ٣٣١.

(5) أبو شامة، ذيل الروضتين، ص١٨٠. المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٣١٨. الحنبلي، مجير الدين عبدالرحمن بن محمد، (ت ٩٢٨هـ/١٥٢١م)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣م، ج٢، ص٣٦٢.

النيران بقبر السيد المسيح[1] – عليه السلام – فكان كل ذلك باعثاً على فزع الغرب، و سـببًا فـي إثارة شعورهم وحفزهم للثأر لما نزل بالأراضي المقدسة[2].

وعندما تبلورت فكرة غزو مصر للاستيلاء على بيت المقدس، قام القديس لويس التاسـع[3] بالدعوة إلى حملة صليبية كبيرة على مصر اتخذت الطابع الديني، وذلك بعد مرضٍ خطير أصيـب به كاد أن يودي بحياته، ولما شفي من مرضه تعهد منذ ذلك الحين بحمل الصليب والذهاب لغـزو الأراضي المقدسة، ايماناً منه بأن الله منَّ عليه بالشفاء ليقوم بهذه المهمة التي كرس حياتـه مـن أجلها[4].

وقامت الاستعدادات في فرنسا على قدم وساق من أجل الحملة. وكان أول ما اهتم له لويـس التاسع هو مسألة إعداد أسطول قوي لنقل الجند والعتاد عبر البحر حتى يضمن لحملتـه النجـاح. ولما لم يكن لديه بحرية خاصة يمكنه الاستعانة بها، فقد استأجر عدداً مـن السـفن مـن جنـوة ومرسيليا، وعقد معهما اتفاقيات بهذا الشأن، فمنها المرسوم الذي أصدره سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م الخاص باستئجار ست عشرة سفينة جنويّة ما بين كبيرة وصغيرة من أجل الحملة علـى الشـرق، أما البندقية فقد رفضت تزويده بما يحتاج اليه من سفن نظراً للعلاقات الطيبة مع مصر. إذ كـانت

---

[1] ابن واصل، مفرج الكروب، ج٥، ص٣٣٧-٣٣٩. الفقي، عصام عبدالرؤوف، الدول الاسلامية المستقلة فـي الشرق، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٢٩٨، ٣٠١-٣٠٢.

[2] يوسف، العدوان الصليبي على مصر، ص٤٧، ٥٠.

[3] القديس لويس التاسع Lewis IX ملك فرنسا قاد حملة صليبية نحو مصر سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م. لكنه فشل في مهمته حتى أنه أسر ثم أطلق سراحه مقابل فدية ثم غادر إلى عكا ومنها إلى أوروبا. أنظر ترجمته. رنسـيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٤٣٩.

[4] جوانفيل، جان دي، مذكرات جوانفيل (القديس لويس، حياته وحملاته على مصر والشام)، ترجمة حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٦٨م، ص٨١-٩٠.

تخشى قيام حملة صليبية بحرية عليها تؤدي إلى إغلاق أبواب التجارة في وجهها، وهي مصدر ثروة طائلة بالنسبة لها[1].

وبعد أن أتم لويس التاسع استعداداته الحربية والمالية والمؤن وغيرها، غادر فرنسا وحملته متجهاً إلى قبرص، وتجمعت جيوش الصليبيين في قبرص، ثم غادرت الحملة إلى مصر، فوصلت ساحل دمياط في ٢٠ صفر سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م، ثم احتلوا دمياط بسهولة[2]، وتقدموا إلى المنصورة، ودارت هناك معارك طاحنة[3]، وحدث أن توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب أثناء المعركة في شعبان سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م[4]، فأخفت زوجته شجر الدر خبر وفاته وأدارت دفّة الحكم وكأنه حي[5]، وفعلت ذلك كي لا ينهار الجند ريثما يأتي ولده تورانشاه[6] ليلي والده في الحكم.

---

[1] باركر، أرنست، الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت، ط٤، ١٩٦٧م، ص٩٨-١٠٣، ١٢٢. رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٤٤٤، ٢٤٦، ٤٥٢-٤٥٣.

[2] أبو شامة، ذيل الروضتين، ص١٨٣. ابن العبري، مختصر الدول، ص١٥٨.

[3] أبو شامة، ذيل الروضتين، ص١٨٣. أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٢٨٦. الكتبي، محمد بن شاكر، (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، عيون التواريخ، تحقيق فيصل السامر ونبيلة عبدالمنعم داوود، دار الرشيد، الجمهورية العراقية، ١٩٨٠م، ج٢٠، ص٣٠.

[4] أبو شامة، ذيل الروضتين، ص١٨٣. ابن عبد الظاهر، محيي الدين أبي الفضل عبدالله، (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م)، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبدالعزيز الخويطر، الرياض، ط١، ١٩٧٦م، ص٤٧-٤٨.

[5] ابن العبري، مختصر الدول، ص٢٥٩. ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر، (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، تاريخ ابن الوردي المسمى، (تتمة المختصر في أخبار البشر)، دار الكتب العلمية، بيروت،ط١، ١٩٩٦، ج٢، ص١٧٦.

[6] تورانشاه. الملك المعظم بن الصالح أيوب كان أولاً صاحب حصن كيفا في حياة أبيه ثم استلم عرش مصر بعد وفاة والده. توفي مقتولاً سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م. الكتبي، فوات الوفيات، ج١، ص٢٦٤.

وتطورت أحداث المعركة فيما بعد لصالح المسلمين، إذ تمكنوا من الانتصار على الصليبيين وأسر الملك لويس التاسع، وترحيل الصليبيين إلى السواحل الشامية ثم أطلق سراح لويس التاسع مقابل مبلغ من المال يدفع للمسلمين[1]. وهكذا انتهت الحملة الصليبية السابعة على مصر مع فشل ذريع حال دون تحقيق نتائجها، والتي كان من أهم أهدافها الهدف الديني وهو الاستيلاء على بيت المقدس عن طريق مصر[2].

وان كان الهدف الظاهري للحملات الصليبية على بلاد المسلمين دينيا فإن لهذه الحملات أهدافا اقتصادية أبعد من ذلك، ففي الحملة الصليبية السابعة على مصر مثلا - رغم أن الهدف المعلن كان دينيا - إلا أننا نلمس هدفا آخر وهو أن دمياط وهي مدينة ساحلية على البحر المتوسط جعل منها سوقا تجارية دولية تنقل اليها بضائع الشرق الأقصى عن طريق البحر الأحمر ونهر النيل. تلك البضائع التي تحملها السفن في البحر المتوسط إلى سواحل الشام وآسيا الصغرى ومنها تنقل إلى الغرب الأوروبي. وكانت هذه التجارة تدر على سلطان مصر أرباحا طائلة، لذا كان احتلال الصليبيين لدمياط من اشد وسائل مضايقة المصريين وعرقلة تجارتهم مع العالم الخارجي[3]، إضافة إلى ذلك، فقد اشتهرت دمياط في العصور الوسطى - وفي العصر الأيوبي بصفة خاصة - أنها مدينة صناعية هامة تخصصت في صناعة النسيج واشتهرت بتصديره إلى

---

(1) أبو شامة، ذيل الروضتين، ص١٨٤. ابن شداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق يحيى عبادة، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي، دمشق، ١٩٧٨، ج٢، ق٣، ص٥٣٤. رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٤٥٦-٤٥٩. باركر، الحروب الصليبية، ص١٢٢.

(2) يوسف، العدوان الصليبي على مصر، ص٢٨١-٢٨٢. عمران، الحملة الصليبية الخامسة، ص٣٦٧.

(3) يوسف، العدوان الصليبي على مصر، ص٩١.

الأسواق الخارجية[1]، وبالاضافة إلى ما ذكر من مزايا دمياط فقد كانت أقرب موانئ مصر إلى بيت المقدس[2]، وهي الهدف الأساسي الذي قامت من أجله هذه الحملة – أي الحملة الصليبية السابعة – وكون ميناء دمياط يؤدي إلى القاهرة مباشرة وهي عاصمة دولة المسلمين آنذاك، وبإسقاطها تكون الطريق سهلة وقريبة إلى بيت المقدس. وحين يتم هذا فإن مصر ستضعف قوتها، وبذلك يتخلص الصليبيون من عدو قوي كان يفرض عليهم الجزية والضرائب ويلزمهم بتقديم الهدايا والأموال[3].

واستمر الصليبيون فيما بعد باتباع سياستهم هذه ضد مصر وبلاد الشام والتي أصبحت تحت حكم سلاطين المماليك الذين وضعوا على عاتقهم الذود عن ديار المسلمين، وأحبطوا كل محاولات الغرب في السيطرة على بلادهم أو النيل منها. وكانت جزيرة قبرص أكثر المهتمين بتحطيم قوة المماليك[4].

ولا بد من الإشارة إلى أن ملوك آل لوزنيان[5] في قبرص كانوا وليدي الحروب الصليبية، وأصول مملكتهم ترجع إلى القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، أي منذ أيام الحملة الصليبية الثالثة، وقد أخذت أسرة لوزنيان الحاكمة في قبرص على عاتقها مساندة الصليبيين بالشام طوال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، حتى تم استيلاء المماليك على آخر معاقل

---

[1] يوسف، العدوان الصليبي على مصر، ص٩١-٩٢.

[2] المقريزي، الخطط، ج١، ص١١٢، ١٨١.

[3] يوسف، العدوان الصليبي على مصر، ص٩٤.

[4] عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٤٣.

[5] أسرة لوزنيان هي أسرة فرنسية إقطاعية، توارثت لقب ملك بيت المقدس بعد سقوط بيت المقدس على يد صلاح الدين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، ولما سقطت عكا في يد المماليك انتقل الملك هنري لوزنيان إلى قبرص ومن يوم وصوله اليها أصبح للجزيرة طابع لاتيني بعد أن كان طابعها من قبل يوناني. ماجد، التاريخ السياسي، ص٢٢٤.

الصليبيين في بلاد الشام وهي عكا في سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م. ثم صارت جزيرة قبرص تحت حكم الملوك من آل لوزنيان أكبر مركز للصليبيين بالشرق، واستمرت من قبرص الذيول الرئيسة للحركة الصليبية في الشرق في القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين[1].

وقد أخذ تفكير ملوك قبرص الصليبي صورته العملية بعد أن تولى الملك بطرس الأول لوزنيان[2] عرش قبرص (٧٦١-٧٧١هـ/١٣٥٩-١٣٦٩م) وهو ما سنراه لاحقاً أثناء الحديث عن حملته ضد الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م.

ويمكن إجمال أهم الأهداف التي جعلت الصليبيين يفكرون جدياً بغزو أراضي مصر والشام بثلاثة أهداف رئيسية: الأول هدف ديني وهو بسط سيطرتهم على بيت المقدس وعلى كنيسة القيامة لما لهذه المدينة من مكانة خاصة عندهم. أما الهدف الثاني فهو إقتصادي بقصد السيطرة على ثروات المنطقة الغنية بالموارد. وهدف ثالث نابع من حُب السيطرة على طرق التجارة الرئيسية في ذلك الوقت الواقعة على البحر المتوسط والبحر الأحمر ومحاولة منهم في تقويض التجارة المملوكية واحتكارها لهم وحدهم. وهو هدف إستراتيجي يحقق لهم هدف سياسي بالسيطرة على المنطقة بأسرها. ولكن المماليك وقفوا بكل عزم وحزم ضد هذه المحاولات الفاشلة، وحافظوا على بلاد المسلمين فترة طويلة من الزمن إلى أن آل الأمر إلى العثمانيين.

---

[1] عاشور، مصر والشام، ص١٩٩. علي، وفاء محمد، جهود المماليك الحربية ضد الصليبيين، المكتب الجامعي الحديث، ط٢، ١٩٩١م، ص٤٧.

[2] بطرس الأول لوزنيان. ملك قبرص تولى العرش بعد وفاة والده هيو الرابع سنة ٧٦١هـ/١٣٥٩م، وأنشأ طائفة أطلق عليها اسم طائفة السيف لتخليص الأراضي المقدسة. توفي مقتولاً سنة ٧٧١هـ/١٣٦٩م. أنظر رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٣٩-٧٤١. باركر، الحروب الصليبية، ص١٣٧.

## ثانياً – حروب المماليك مع الصليبيين في السواحل الشامية والمصرية:-

منذ أن اعتلى المماليك عرش السلطنة في مصر سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م[١]، وهم يعملون على توحيد بلاد المسلمين والمحافظة عليها، وتطهيرها من المغتصبين لا سيما الصليبيين الذين كانوا عندما يغزون بلاد المسلمين يشكلون فيها الإمارات ويعيّنون الحكام من قبلهم لتكون خاضعة لحكمهم مباشرة، لذا فقد انصبت جهود المماليك في تطهير بلاد المسلمين منهم[٢]، وأكثر ما تركزت إمارات الصليبيين في سواحل بلاد الشام، ولأن دولة سلاطين المماليك كانت منشغلة في بداية قيامها بأخطار أخرى كالخطر المغولي، والفتن الداخلية، فقد امتازت علاقاتهم في السنوات الأولى لقيام دولتهم بالمهادنة والهدوء النسبي[٣]، ريثما يتمكنون من إنهاء الأخطار المحيطة بهم، وتصفية مشاكل دولتهم الداخلية، ومن ثم التفرغ للخطر الصليبي الذي كان مغتصباً لأراضيهم، وهذا ما حدث في عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقداري عندما تفرغ للصليبيين وأخذ بإخضاع الحصون المحتلة من قبلهم واحداً تلو الآخر[٤]، وسار خلفاؤه من بعده على نفس النهج، فقد كان للسلطان المنصور قلاوون جهود عظيمة في منازلة الصليبيين وتطهير البلاد منهم[٥]، ولم

---

[١] المنصوري، مختار الأخبار، (تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ)، حققه وقدم له ووضع فهارسه عبدالحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٩٩٣م، ص٨-٩.

[٢] العبادي، أحمد مختار، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ١٩٦٩م، ص٢٢٢. الصوافي، طالب عبدالفتاح، القلاع في شمال فلسطين في فترة الصراع الفرنجي الاسلامي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، اربد، ١٩٩٧م، ص٢٣٤.

[٣] ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص١١٨-١١٩. النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٢٥٥.

[٤] ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر، ص١٢١. أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٣٢٤.

[٥] العسقلاني، شافع بن علي، (ت٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م)، الفضل المأثور من سيرة الملك المنصور، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ص١٤١-١٤٢، ١٤٩. أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٣٥٥-٣٥٧. عاشور، مصر والشام، ص٢١٣-٢١٦.

ينجز قلاوون كل ما يريد أثناء حياته، إذ توفي سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م وما زال الحلم يراوده في تطهير مصر والشام من الصليبيين[١]، وعندما استلم الأشرف خليل بن قلاوون السلطنة خلفاً لوالده سار على نهجه في منازلة الصليبيين، وكان لديه إصرار كبير للخلاص من الوجود الصليبي في الشام، فأول ما اهتم به عند تسلمه زمام الأمر في السلطنة هو تحرير عكا من أيدي الصليبيين[٢] الذين استولوا عليها سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م، وارتكبوا أبشع الجرائم بحق المسلمين فيها، فقام الأشرف خليل بتجهيز قواته للزحف صوب عكا، وأرسل إلى جميع النيابات في مصر والشام لإعداد آلات الحرب والحصار، كما دعا إلى استنفار الأهالي للمشاركة في هذه الحملة العسكرية، وموافاته على أبواب عكا[٣]. وقد تشكلت القوات الإسلامية بعد تكاملها من قوات نظامية وأخرى متطوعة ضمت الغزاة والصناع والحجارين وغيرهم، وكان مجموع هذه القوات مجتمعة ستين ألفاً من الفرسان ومائة وستين ألفاً من المشاة الرجالة[٤].

بدأ الحصار على عكا في ١٣ ربيع الآخر سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م، واستمر الحصار عليها ثلاثة أيام، قرر السلطان الأشرف خليل بعدها الزحف عليها، واستخدم في ذلك عدداً كبيراً من

---

[١] المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٧٠. ابن الوردي، تتمة المختصر، ج٢، ص٢٢٨.

[٢] ابن الجزري، حوادث الزمان، ج١، ص٤٣. العبادي، أحمد مختار، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٥م، ص٢١٩.

[٣] ابن الفوطي، كمال الدين أبي الفضل البغدادي، (ت ٧٢٤هـ/ ١٣٢٣م)، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة، دار الفكر الحديث، بيروت، ١٩٨٧م، ص٢٢٣. المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٧٩-٢٨٠. أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٣٥٩-٣٦٠.

[٤] ابن تغري بردي، النجوم، ج٨، ص٥.

المجانيق بلغت اثنين وتسعين منجنيقاً[1]. ولم تمضِ ثلاث ساعات من نهار يوم ١٧ ربيع الآخر سنة ٦٩٠هـ، حتى كان النصر قد تحقق للمسلمين، وتمكنوا من دخول المدينة، في حين اتجه أهلها الصليبيون إلى سفنهم الراسية في ميناء عكا يطلبون النجاة عن طريقها. وتبعهم المسلمون يأسرون منهم ويقتلون فيهم حتى لم ينج أحد منهم إلا القليل، كما نهبت الأموال والذخائر والسلاح وقتل وأسر من بقي من أهلها فيها[2].

ثم أن السلطان الأشرف خليل أمر بهدم أسوار المدينة حتى لا تكون مرة ثانية رأس حربة لهجوم صليبي جديد على بلاد الشام، وقد بث فتح عكا الرعب في صفوف من تبقى من مدن الصليبيين بالساحل الشامي، فسُلمت صور في يوم ١٩ جمادى الأولى سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م[3]، وهرب الصليبيون منها، وقد أمر السلطان الأشرف خليل بهدم أسوارها، ثم تلتها صيدا فسلمت في نفس الشهر، كما تم فتح مدينة بيروت[4]، وبهذا يمكن القول أن سقوط عكا قرر مصير المدن الساحلية القليلة الباقية، ففي بضعة أشهر تم الاستيلاء على سائر المدن الساحلية التي كانت في يد الصليبيين مثل حيفا وأنطرطوس[5] وعثليت[6] وغيرها.

---

[1] أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٣٥٩-٣٦٠. حتي، فليب، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة كمال اليازجي، دار الثقافة، بيروت، ط٢، ١٩٧٢م، ص٢٤٨.

[2] ابن كثير، البداية، ج١٣، ص٣٢١. ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج١، ص١٣٧-١٣٨. رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٠٦-٧٠٨.

[3] المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ق٧٦٥. رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٠٨-٧١٠.

[4] ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن، (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٤م)، تاريخ ابن الفرات، حققه وضبط نصه قسطنطين زريق، المطبعة الأميركانية، بيروت، ١٩٣٨، مج٨، ص١١٣-١١٤. حتي، فليب، موجز تاريخ الشرق الأدنى، ترجمة أنيس فريحه، دار الثقافة، بيروت، ص٢٢٥. الصوافي، القلاع، ص٢٦٤.

[5] انطرطوس بلدة من سواحل البحر المتوسط وهي آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية وأول عمل حمص. ياقوت، معجم، مج١، ص٢١٦.

[6] عثليت: حصن بساحل البحر المتوسط بين حيفا وقيسارية وكان يعرف بالحصن الأحمر. المصدر السابق، مج٣، ص٢٩٩.

وهكذا انتهت مملكة الصليبيين في الشرق الإسلامي، وانتقلت بقايا الصليبيين إلـــى جــزر البحر المتوسط كأرواد[1] وقبرص[2].

وبالسيطرة على هذه المعاقل الصليبية أمر السلطان الأشرف خليل بهدمها جميعـــاً كـــي لا يعود الصليبيين اليها مرة أخرى فيتحصنون بها.

وقد علّق أبو الفداء على نتائج هذا التطهير فقال "وأتفق لهذا السلطان من السعادة ما لم يتفق لغيره من فتح هذه البلاد العظيمة الحصينة بغير قتال ولا تعب وأمر بها فخربت عـــن آخرهـــا. وتكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية للإسلام، وكان أمراً لا يطمع فيه ولا يرام، وتطـهير الشام والسواحل من الفرنج بعد أن كانوا قد أشرفوا على أخذ الديار المصرية وعلى ملك دمشـــق وغيرها من الشام"[3].

ولقد جاء تحرير بلاد الشام من الاحتلال الصليبي على يد المماليك نهاية للمطامع الصليبيـــة في الشرق الإسلامي بعد قرنين من تأسيس دولتهم اللاتينية في بيت المقدس. ولذلك فقد صعقـــت أوروبا وعلى رأسها البابوية لفقدان مكتسباتها في هذه المنطقة الحيوية، فحـــاولت تجديـد هــذه الحروب بصورة أو بأخرى، وكان من الطبيعي أن تتزعم البابوية في أعقاب ذلك الانهيار الدعـوة إلى تشكيل حملة صليبية جديدة وإرسالها إلى الشرق لإعادة احتلال الأراضي المقدســـة وإحيـــاء وجودها فيها، ولا يخفى علينا أن دعوة البابوية هذه لم تكن لأسباب دينية -كما كانت تدعي علـــى

---

[1] أرواد. جزيرة على ساحل بلاد الشام إلى الغرب من طرطوس. المصدر السابق، مج١، ص١٣٤.

[2] ابن الفرات، تاريخ، مج٨، ص١١٣-١١٤. المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٧٦٥. عطية، حسين محمـــد، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ط١، ١٩٨٩م، ص٤٩٣. العبـــادي، فـــي تاريخ الأيوبين، ص٢٢١.

[3] المختصر، ج٢، ص٣٦١-٣٦٢.

الدوام – بل كانت فرصة منها كي تتمكن من استعادة هيمنتها على ملوك وأمراء الغرب الأوروبي، تلك الهيمنة التي فقدتها منذ زمن طويل، فلعل حملة صليبية جديدة ترسل نحو الشرق تعمل على توحيد ملوك وأمراء الغرب الأوروبي في ظل ردائها الصليبي[١].

وقد ساعدت البابوية في دعوتها كثرة التقارير التي كانت تتلقاها من دعاة تجديد الحروب الصليبية[٢]، الأمر الذي شجع البابا نقولا الرابع إلى التحمس لهذه الفكرة، فعقد المجالس الكنسية للمداولة في أنجع وأفضل الطرق لتحقيق الهدف الذي كان يصبو إليه، كما طلب من فرقتي الداوية[٣] والإسبتارية[٤] توحيد نظاميهما والعمل بيد واحدة، ولكي يضفي على دعوته دعما دينيا فقد أصدر مرسوما حرم بموجبه الاتجار مع دولة سلاطين المماليك، وأخذ في استنفار الغرب الأوروبي بالترغيب والترهيب لشن حملة صليبية على المماليك[٥].

---

[١] عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٩٣.

[٢] المرجع نفسه، ج٢، ص١١٩٣.

[٣] الداوية: (جمعية فرسان المعبد)، فرقة دينية عسكرية، أسسها الفارس هيوباينز سنة ٥١٢هـ/١١١٨م، عندما رفض الملك بلدوين الأول ملك بيت المقدس الصليبي السماح له ولرفاقه النزول في جناح من أجنحة القصر الملكي في ساحة المعبد – المسجد الأقصى – ثم اصبحت طائفة مستقلة اتخذت من الصليب الأحمر شارة لها، وقد تألفت من ثلاث طبقات هي الفرسان والأجناد ورجال الدين، وقد اشتركت في جميع الأعمال الحربية التي قامت بها مملكة بيت المقدس. أنظر رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٤٩-٢٥٠.

[٤] الإسبتاريه: فرقة دينية عسكرية أسسها جيرار أحد الفرنج الغربيين في بيت المقدس سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م، وقد تأسست أولا في نزل يعود لحجاج الفرنج ليأوي اليه الحجاج الفقراء، وبعد أن احتل الصليبيون بيت المقدس، تحول القائمون على هذا النزل إلى طائفة مستقلة تتبع البابا مباشرة وخصص لها رجال الكنيسة عشر دخلهم. تحولت هذه الفرقة إلى قتال المسلمين وقد اتخذوا من الصليب الأبيض شارة لهم. أنظر حول ذلك رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٢، ص٢٤٨.

[٥] برجاوي، سعيد أحمد، الحروب الصليبية في المشرق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٨٤م، ص٦٤٢.

غير أن دعوة البابا في استثارة الغرب الأوروبي لإرسال حملة صليبية إلى الشرق قد بـاءت بالفشل إذ أن الملوك والأمراء الذين دعاهم لم يلبوا الدعوة، وأداروا ظهورهم له[1]. كما أن دعوتـه إلى فرض حصار إقتصادي على دولة سلاطين المماليك وحرمان الاتجار معها، لم يلـق النجـاح الكافي، فقد عاد التجار الأوروبيون وبخاصة تجار المدن الإيطالية للمتاجرة مع المماليك، ومـات البابا سنة ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م دون تحقيق ما يصبو إليه[2].

على إن الدولة التي شكلت خطراً على دولة سلاطين المماليك هي مملكـة قبرص التـي أصبحت بعد تحرير عكا الملجأ الذي لجأ اليه بقية الصليبيين المنهزمين من بلاد الشام، وقد وجـد فيهم الملك هنري الثاني[3] أداة صالحة لتنفيذ سياسته العدائية تجاه دولة سلاطين المماليك[4].

وأولى اعتداءات الملك هنري الثاني على سواحل بلاد الشام كانت سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م، بالاتفاق مع محمود غازان[5] قائد المغول الذي هاجم بدوره بلاد الشام واحتـل دمشـق لبضعـة أشهر[6]، وقد أرسل الملك هنري الثاني قطعاً بحرية وصلت مقدمتها إلى البـترون ونزلـت فـي

---

(1) عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٩٢.

(2) عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٩٢. زيادة، نقولا، رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، بـيروت، ١٩٤٣، ص٢٥.

(3) هنري الثاني: ملك قبرص الصليبي حاول القيام بحملة صليبية نحو الشرق، وهو جدّ الملك القبرصي بطـرس الأول لوزنيان. رنسيمان، ج٣، ص٧٢٦.

(4) عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٢٣. العبادي، في تاريخ الأيوبيين، ص٢٢٠.

(5) محمود غازان بن أرغون ايلخان المغول، أغار على بلاد الشام مرتين الأولى سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م والثانيـة سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م توفي بالقرب من همذان سنة ٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م. الصفدي، أعيان العصـر وأعـوان النصر، تحقيق علي أبو زيد وآخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ج٤، ص٥.

(6) ابن الفوطي، الحوادث الجامعة، ص٢٣٧. المنصوري، مختار الأخبار، ص١١١. المقريـزي، السـلوك، ج١، ق٣، ص٨٩٠.

مياهها بانتظار الجيش الذي كان في طريقه اليها، وقبل وصول هذا الجيش انضمت اليها وحـدات نصرانية مارونية[١] انحدرت من جبل لبنان، واتجهت جميعاً لمهاجمة طرابلس، غير أن القـوات الإسلامية المرابطة فيها تصدت لهم ودحرتهم وقتلت قادتهم، كما أسـرت الوحـدات النصرانيـة المارونية[٢]. وكان أسطول جنوي في الوقت ذاته يقتحم جبيل[٣] ويستولي عليها ثم يتركها دون أن يبقى له أثراً فيها[٤].

وفي سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م أرسل الملك هنري الثاني أسطولاً بحرياً أقلع من "فماجوسـتا" إلى ميناء رشيد في مصر بقيادة "بودوان دي بيكيني" الذي أرسل مائة فارس من قواته لتخليـص الأسرى المغول والصليبيين الذين كانوا فيها منذ تحرير عكا، ثم دخل الأسطول إلى الإسـكندرية بقصد إرهاب أهاليها، وغادرها صوب الساحل الشامي، ثم نزلت قواته في عكا وطرطوس، حيث اشتبكت هذه القوات مع المسلمين هناك، ثم عادت الحملة إلى قبرص دون تحقيق النتيجة المطلوبة[٥].

وما أن انتهت الحملة السابقة حتى شرعت قبرص بالتحالف مع المغول في الاعداد لحملـة أخرى تجمعت قواتها في جزيرة أرواد بقصد احتلال طرابلـس. إذ قـام الصليبيـون بـاحتلال طرطوس، غير أن اقتراب القوات الإسلامية من المدينة جعلهم ينسحبون منـها، وتجمعـوا فـي أرواد، وأخذوا يشنون هجماتهم البحرية على الساحل. إزاء ذلك أمر السلطان الناصر محمد بـن

---

[١] المارونية نسبة إلى القديس مارون وهم طائفة كاثوليكية كانت موضع رعاية ملوك فرنسا وحمايتهم في فـترة الحروب الصليبية. يوسف، العدوان الصليبي على مصر، ص٦٧.

[٢] المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٨٩٦-٨٩٩، ٩٠١.

[٣] جبيل بلدة على ساحل البحر المتوسط شرقي بيروت. ياقوت، معجم، مج٢، ص٣٤.

[٤] البرجاوي، الحروب الصليبية، ص٦٤٤.

[٥] المرجع السابق، ص٦٤٤-٦٤٥.

قلاوون بإنشاء السفن سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م لمهاجمة جزيرة أرواد[1]. وتم له ذلك وقامت قوات المماليك بمهاجمة الجزيرة ودحر الصليبيين وأسر من تبقى فيها، ثم عادت الحملة بالأسرى والغنائم[2].

ظلت فكرة إرسال حملة صليبية إلى المشرق الإسلامي تتسع في الغرب الأوروبي في أوائل القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، فقد وضع "ريموند ليل"[3] مشروعا سنة ٧٠٥هـ/ ١٣٠٥م دعا فيه إلى كسب المسلمين وطوائف النصارى الشرقيين إلى جانب معسكر البابوية عن طريق التبشير، وفي نفس الوقت إرسال حملة صليبية إلى الشرق تشترك فيها جميع هيئات الفرسان من داوية واسبتارية وغيرها، وكانت خطته أن تقوم الحملة بطرد المسلمين من إسبانيا ثم تنتقل الحملة إلى شمال افريقية والزحف بحذاء الساحل إلى تونس ثم مصر، ويتخذ الأسطول الصليبي من جزيرتي مالطة ورودس قاعدتين لمساعدة الحملة البرية في محاربة المسلمين، كما دعا في سبيل إنجاح مشروعه هذا إلى استيلاء غرب أوروبا على القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الشرقية التي كانت على علاقات ودية مع دولة سلاطين المماليك[4].

واقتراح الملك هنري الثاني على البابا فكرة أخرى، بأن يقوم بمحاصرة مصر مدة عامين أو أكثر لاضعاف دولة المماليك ومن ثم السيطرة على الأراضي المقدسة بعد إسقاط مصر، وتحمس الملك هنري لهذه الفكرة، وشرع في تجهيز حملة صليبية، واتفق مع بعض ملوك أوروبا على بناء ستين قطعة حربية

---

(1) ابن تغري بردي، النجوم، ج٨، ص١٥٦. البرجاوي، الحروب الصليبية، ص٦٤٨.

(2) أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٣٩٠. ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٢١.

(3) ريموند ليل هو مبشر اسباني طاف بالعديد من البلاد الاسلامية، وأتحف الباب بكتاب يحتوي على تفاصيل أفكاره الداعية إلى التبشير بين المسلمين والمسيحيين المنشقين إلى جانب دعوته لإرسال حملة صليبية نحو الشرق. رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٢٤. حتي، موجز تاريخ الشرق، ص ٢٢٥.

(4) عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٩٣. سرور، دولة بني قلاوون، ص٢٤٥.

لغزو دمياط، غير أن المماليك كانوا يراقبون الموقف عن كثب، فلما أحسوا بذلك الخطر، أمـر السـلطان بيبرس[١] الجاشنكير[٢] ببناء جسر يمتد من القاهرة إلى دمياط خشية نزول الصليبيين وقت فيضان نهر النيل، وأمر ببناء جسر آخر بطريق الإسكندرية، غير أن هذه الحملة لم تتم[٣]، وفي خضم تلـك المحاولات لتشكيل حملة صليبية استغل الملك الفرنسي "فليب الرابع"[٤] ٦٨٤-٧١٤هـ/ ١٢٨٥-١٣١٤م الموقف وأعلن عن عزمه على قيادة حملة جديدة، وتحت ستار الاستعداد للحملـة، أخـذ يُحصّل أموال الكنيسة ويصادر أموال فرقة فرسان الداوية وذلك سنة ٧١٢هـ/ ١٣١٢م. وعندما اكتشفت البابوية عدم جديته سعت إلى استشارة أصحاب الخبرة في قتال المسـلمين مـن ملـوك النصارى وغيرهم[٥].

وعندما تولى فيليب السادس عرش فرنسا أراد أن يُجّرب أقصر الطرق وأسـهل السُبل، فربما يحقق ما يحلم به من مجد في السيطرة على الأراضي المقدسة، فأرسل سـفارة فـي سـنة ٧٣٠هـ/ ١٣٣٠م، إلى الناصر محمد بن قلاوون يطلب منه تسليم بيـت المقـدس والسـواحل

---

[١] السلطان بيبرس الجاشنكير كان أستاداراً في فترة حكم الناصر محمد الثانية ثم انقلب عليـه وخلعـه وتولـى السلطنة سنة ٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م. أنظر ترجمته. الصقاعي، فضل الله بن أبي الفخر، (ت في القـرن ٨هـ/ ١٤م)، تالي كتاب وفيات الأعيان، تحقيق جاكلين سوبلة، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٧٤م، ص٥٧. الصفدي، الوافي، ج١٠، ص٣٤٨.

[٢] الجاشنكير هو الذي يتحدث بأمر السماط مع الاستادار ويتذوق الشراب قبل السلطان في الولائم والأطعمة خوفاً من أن يدس فيه سماً أو نحوه. القلقشندي، صبح، ج٤، ص٢١، ٤٦. البقلي، التعريفات، ص٨١.

[٣] المقريزي، السلوك، ج٢، ق١، ص٤٨-٤٩. عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ١١٩٤. سـرور، دولـة بنـي قلاوون، ص٢٤٥-٢٤٦.

[٤] الملك فليب الرابع هو ملك فرنسا كان يسمى فليب الجميل توفي سنة ٧١٤هـ/ ١٣١٤م. يوسـف، العـدوان الصليبي على مصر، ص٤.

[٥] عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٩٥، ١٢٠٤. Atiya S. Aziz. The Crusade in the Later Ages, London, 1938, P. 54.

الشامية، غير أن السفارة عادت إلى فيليب مهانة دون تحقيق أي هدف[١]، فقام فيليب السادس بتجهيز حملة وبدعم من البابا، ولكنه لجأ إلى مشاورة ذوي المعرفة في محاربة المسلمين فأخذ يشاورهم في طريقة تنفيذ الحملة وأثناء مشاوراته حدث في أوروبا ما لم يكن في الحسبان، فقد تجددت في ذلك الوقت حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا ولذلك تحطم المشروع وفشلت الحملة[٢].

ولم يكن فشل الحملة يعني توقف الاعتداءات الصليبية على الموانئ الإسلامية في مصر والشام، فقد استمرت مملكة قبرص وحلفاؤها في حوض البحر المتوسط في شن الغارات على الموانئ الإسلامية في مصر وبلاد الشام بين الفينة والأخرى، ومن أشهرها تلك الحملة التي حدثت سنة ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م. فقد قدمت لهم حملة بحرية مؤلفة من سبعة مراكب على بيروت ثم توجهت إلى صيدا، حيث دخلوها وقتلوا عدداً من الأهالي فيها، وأسروا عدداً آخر، ونهبوا المدينة، غير أن تلك الحملة لم تحقق هدفهم في إضعاف عزيمة المسلمين، فقد تصدى المسلمون لهم وقتلوا عدداً منهم، ثم أُرسلت رؤوس من قتل منهم بعد انتهاء الحملة إلى دمشق لتعليقها على أسوار القلعة هناك، وحضر إلى صيدا نائب صفد، وسبق العسكر الشامي، ولحق بالمراكب الصليبية على جزيرة مقابل صيدا، ولكنهم لم ينالوا منهم، فقد تحصنوا بالجزيرة قبل وصول المسلمين إليها، عند

---

[١] المقريزي، السلوك، ج٢، ق١، ص٣١٩.

[٢] عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٩٥-١١٩٨.

ذلك قام المسلمون بمراسلة الصليبيين لتحرير أسرى المسلمين، وتم دفع مبلغ من المال إلى الصليبيين مقابل إطلاق سراح الأسرى، ورحل الصليبيون واكتفوا بما أخذوه من غنائم وأموال[١].

### ثالثاً- حملة الملك بطرس الأول لوزنيان على الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م

كانت الإسكندرية في عصر سلاطين المماليك قاعدة ساحل مصر وميناؤها الرئيسي على البحر المتوسط[٢]؛ امتازت بشوارعها الواسعة وأبوابها المتعددة[٣] التي يفتح بعضها على الميناء، حيث يمتد الحي الأكثر ازدحاماً بالسكان وهو الحي التجاري، وفيه كانت تنتشر مؤسسات الأجانب التجارية ومراكز قناصلهم[٤] ويعمل بالمدينة كثير من الطوائف وأهالي جنوة والبندقية وقطالونيا وارغون وبيزا وفلورنسا.

ولا تقل الإسكندرية آنذاك اتساعاً وأهمية عن أكبر المدن التجارية الأوروبية كالبندقية وجنوة ومرسيليا ولشبونة[٥].

---

[١] ابن يحيى، صالح، (من وفيات القرن ٩هـ/ ١٥م)، تاريخ بيروت، تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي وآخرون، دار المشرق، بيروت، ١٩٦٩، ص٢٩.

[٢] العمري، أحمد بن يحيى بن فضل الله، (ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)، مسالك الأبصار في ممالك الأبصار، دراسة وتحقيق دوريتا كرافولسكي، المركز الاسلامي للبحوث، ط١، ١٩٨٦، ص١٥١. الحميري، الروض المعطار، ص٥٤-٥٥.

[٣] ابن بطوطة، شمس الدين أبي عبدالله محمد بن عبدالله اللواتي، (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروفة برحلة ابن بطوطة، قدم له وحققه ووضع خرائطه وفهارسه عبدالهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ١٩٩٧م، ج١، ص٣٧.

[٤] أبو الفداء، تقويم البلدان، ص١١٣. الظاهري، زبدة، ص٣٩. ضومط، أنطوان خليل، الدولة المملوكية التاريخ السياسية والاقتصادية والعسكرية، دار الحداثة، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م، ص١٩٠.

[٥] فهمي، نعيم، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م، ص١٣٠. زيادة، رواد الشرق، ص١٩٦.

كانت الإسكندرية ذات مرافئ عظيمة منها المرفأ الشمالي المخصص لاستقبال السفن الأوروبية[1] وهو غير آمن، لا سيما عند هبوب الرياح الشمالية، وقد بنيت على فم هذا الميناء منارة على غرار المنارة القديمة التي كانت قد تهدمت لهداية السفن التي لا تجرؤ على دخول الميناء دونها[2]. أما الميناء الثاني وهو المعروف بمرسى السلسلة فيحظر على السفن الأوروبية الدخول فيه أو الاقتراب منه، إذ كان مخصصاً لاستقبال السفن الإسلامية القادمة من بلاد الشام والمغرب[3]. ويتجه هذا الميناء نحو الغرب ويعتبر آمناً من الناحية الملاحية لأن مدخله منحن ومتعرج وآمن من العواصف والرياح الشديدة، كما أنه أكثر ملاءمة لتفريغ السفن[4].

وكانت تجارة الإسكندرية برية وبحرية ونهرية. وكان لها – فضلاً عن موانئها على البحر المتوسط – قناة تصلها بالنيل وعن طريقها تأتي المراكب من القاهرة أو دمياط[5]. ويبعد الميناء النيلي عن الإسكندرية ميلاً واحداً (٢كم) حيث يتم الوصول اليه براً بواسطة الدواب وتعبر السفن

---

(1) النويري، محمد بن قاسم الإسكندري، (ت بعد سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٢م)، الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، تحقيق أيتين كومب وعزيز سوريال عطية، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، الهند، ١٩٦٨م، ج٢، ص٩٨، ١٣٥. ضومط، الدولة المملوكية، ص١٩٠. فهمي، طرق التجارة، ص١٣١.

(2) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص١١٣. المقريزي، الخطط، ج١، ص١٥٨.

(3) النويري، الإلمام، ج٢، ص٩٨، ١٣٥. الظاهري، زبدة، ص٤١.

(4) الحميري، الروض المعطار، ص٥٥.

(5) العمري، مسالك الأبصار، ص١٥٢. الحميري، الروض المعطار، ص٥٤-٥٦. القلقشندي، صبح، ج٣، ص٣٣٤. ليون الأفريقي، الحسن بن محمد الوزان، (ت ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م)، وصف افريقيا، ترجمه من الفرنسية عبدالرحمن حميدة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، ١٣٣٩هـ، ص٥٧٢.

القادمة عن طريق قناة أقيمت لهذا الغرض يبلغ عرضها من ١٦-١٨ ذراعاً وطولها ٥٠-٥٥ ميلاً[١].

واهتم المماليك بتحصينات المدينة ودفاعاتها، فقد أقيمت حولها الأسوار المنيعة والأبراج الحصينة، ونصب عليها المجانيق اضافة إلى شحنها بحامية عسكرية كبيرة لحمايتها والدفاع عنها. كما كان سكانها على درجة كبيرة من اليقظة والحذر من أمور البحر ومهاجمة الأعداء[٢].

وامتازت الإسكندرية بموقعها الإستراتيجي من الناحيتين الجغرافية والتجارية. فمركزها الساحلي بين مصب فرع النيل الغربي والبحر المتوسط جعل منها سوقاً تجارية دولية تنقل اليها بضائع الشرق الأقصى عن طريق البحر الأحمر ونهر النيل، والبضائع التي تحملها سفن الأوروبيين في البحر المتوسط، كما تنقل منها البضائع إلى الغرب الأوروبي[٣].

وتميزت الإسكندرية بازدحام أسواقها التجارية، وقدرتها على استيعاب كل الفعاليات التجارية فيها، فانتشرت فيها المساجد والربط والخوانق والفنادق والخانات والأسواق الممتدة ومعامل الأقمشة والطرز[٤]، فضلاً عن مراكز قناصل الدول الأوروبية وسفرائها ووكالاتها

---

[١] ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص٥٧٢.

[٢] العمري، مسالك الأبصار، ص١٥٠-١٥١.

[٣] القلقشندي، صبح، ج٣، ص٣٣٤. سعيد، ابراهيم حسن، البحرية في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، ١٩٨٣م، ص١٩٩. سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٢م، ص٥١٥.

[٤] العمري، مسالك الابصار، ص١٥٢. القلقشندي، صبح، ج٣، ص٥٣١. الظاهري، زبدة، ص٣٩. سالم، الإسكندرية، ص٥١٥.

التجارية والأحياء الخاصة بالتجار الافرنج من مختلف الطوائف[1]، وكان التجار البنادقة فيها أكثر عدداً من تجار الطوائف الأخرى، ولهم فيها فندقان؛ واحد كبير وآخر صغير[2].

شهدت مدينة الإسكندرية فترات من الركود والتراجع. لا سيما في فترات الاضطراب السياسي والفتن، وسياسة المصادرة التي اتبعها المماليك، وساهم في هذه الأوضاع ما تعرضت له المدينة من غزوات القراصنة الأوروبيين الذين هاجموا ميناءها أكثر من مرة وتم فيها احراق السفن ونهب البضائع والاعتداء على السكان[3]، ويجدر الاشارة إلى أن الصراع بين الصليبيين والمسلمين لم ينته نهائياً بعد تصفية الحركة الصليبية في الشام بسقوط عكا وصيدا وصور وبيروت في أيدي المماليك في سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م، فقد اتخذ الصليبيون من قبرص وأرواد قاعدة للعدوان يوجهون منها غاراتهم على سواحل الشام ومصر[4].

وقد مر بنا سابقاً أن تفكير ملوك قبرص نحو المشروع الصليبي قد تبلور بصورته العملية بعد أن تولى الملك بطرس الأول لوزنيان – حفيد الملك هنري الثاني – سنة ٧٦٠هـ/ ١٣٥٩م، وكان اعتلاؤه للحكم فاتحة عهد جديد في تاريخ الحركة الصليبية المتأخرة، والتي بلغت ذروة نشاطها في سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م بغزوة القبارصة للإسكندرية[5]، وكان الملك بطرس هذا من

---

[1] الظاهري، زبدة، ص٣٩. ضومط، الدولة المملوكية، ص١٩٠.

[2] ديل، شارل، البندقية، ترجمة أحمد عزت عبدالكريم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٧، ص١٤١-١٤٢. طرخان، مصر، ص٢٨٥.

[3] ابن اياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٢١.

[4] عاشور، مصر والشام، ص٢٣٨. نيدس، أشيل أميليا، تاريخ قبرص، ترجمة معهد اللغات والترجمة، مكتبة ريمون الجديدة، لبنان، ص٩٧. Setton, Kenneth M. The Papacy and the later, (1204-1571). The American Philosophical Society Philadelphia, 1976, Vol.1, P. 266.

[5] النويري، الإلمام، ج١، ص٢. الحجي، حياة ناصر، العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الاسبانية في القرنين ٨-٩هـ/ ١٤-١٥م، دراسة وثائقية، الكويت، ط١، ١٩٨٠م، ص٢٥٥.

أشد ملوك الصليبيين عداءً للإسلام، إذ كان شديد التحمس للقضية الصليبية. وكان موقـع قـبرص الاستراتيجي قد أتاح لملوكها أن يظهروا في صورة الأبطال الحقيقيين للمسيحية[1].

وعلى الرغم من أن الملك بطرس قد وضع كل ثروات جزيرته تحت تصرف الصليبيين، فان حاجته إلى مزيد من الرجال والأموال لضمان إنجاح خطته كان واضحاً، وهذا يفسر رحلاته الطويلة في ربوع بلدان أوروبا استجداءً لمساعدة ملوكها له بالمال والعتاد[2].

ومن حسن حظ الملك بطرس أن عهده كان مزامنا مع فترة من الضعف والانحلال كانت تجتازها مصر عقب وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون وتولية عدد كبير من أولاده وأحفاده العرش، مما هيأ المجال لكبار أمراء المماليك للاستبداد بشؤون الدولة، وقام النزاع بين هؤلاء الأمراء من أجل الاستئثار بالسلطة، وشغلوا بذلك الصراع عن العناية بشؤون البلاد الداخلية[3] ولذا فإن الملك بطرس عمل على استغلال حالة الضعف تلك التي آلت اليها السلطنة المملوكية، وهي فرصة مواتية قد لا تتاح له بعد ذلك لتسديد ضربته إلى مصر مصدر المتاعب للقوى الصليبية، ولكن مثل هذه الضربة تحتاج إلى استعداد مسبق، وقدرات وامكانيات مادية ودعائية حتى يتمكن من تنفيذ مأربه.

---

(1) عاشور، مصر والشام، ص٢٣٨. حبشي، حسن، هجوم القبارصة على الإسكندرية، من نصوص جديدة للنويري، المجلة التاريخية المصرية، مج١٥، ١٩٦٩م، ص٣.

(2). رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٤٠. هايد، ف، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ترجمة أحمد رضا محمد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١م، ج٢، ص٢٣٠. Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages, p.322

(3) العبادي، تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٢٣٣.

ولهذا كان اهتمام الملك بطرس الأول متركزاً على ضرب المعاقل الإسلامية أنى وجـــدت. وساعدته الظروف أنذاك في أرمينيا على وجه الخصوص في أن يجد لقدمه موضعاً بها، حيـــث بعث إليه ملكها ليو الخامس يستنجد به في سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م ضـــد الخطريـن المملوكـي والعثماني، فوافق ذلك هوى في نفس الملك بطرس إذ كان متلهفاً على امتلاك أرضٍ فـــي آسـيا الصغرى حتى تصبح له ركيزة حربية تتاخم القوى الإسلامية[١]. ولذلك بادر الملك بطرس إلـــى امداد الملك ليو الخامس بالسفن الحربية والرجال والعتاد، وجعل لنفسه القيـــادة العامـــة وهـاجم أنطالية[٢] والعلايا[٣] وفعلاً استطاع رفع راياته في هذين الميناءين[٤].

بهذه الوسيلة وبهذه النتائج التي تمخضت عنها هذه الحركة من جانب الملك بطـــرس أدرك الأخير مواضع الضعف في الجبهة الشرقية الإسلامية، كما أن هذه الانتصارات التـــي اكتسـبها دفعته لتوجيه اهتمامه نحو ضرب المواقع الإسلامية الكبرى بغية استخلاص بيت المقدس واحتلال بعض أراضيها والسيطرة على معابر التجارة الشرقية ومسالكها[٥]. وعليه كان لا بد من خطـــوة ثانية في سلسلة التحركات التمهيدية لبث الروح الصليبية، وهي الاتصالات الشخصية الدبلوماسـية التي قام بها الملك بطرس بين سنتي ٧٦٤-٧٦٧هـ/ ١٣٦٢-١٣٦٥م. في غرب أوروبا بـــالقوى

---

(١) حبشي، هجوم القبارصة، ص٤.

(٢) أنطالية. بلد كبير وحصن للروم على شط البحر المتوسط وهو منيع واسع الرستاق. ياقوت، معجـــم، مـــج١، ص٢١٦.

(٣) العلايا. ذكرها ياقوت بقوله: " لا أدري أيّ شيء هذه الصيغة. معجم، مج٣، ص٣٤٥.

(٤) حبشي، هجوم القبارصة، ص٤.

(٥) المرجع نفسه، ص٤. Atiya S. Aziz. "the Crusade in the Fourteenth Century". A History of the Crusades. Ed., Kenneth M. Setton, Vol.3, USA. Wisconsin, University. Press. 1975, P. 13.

المسيحية وهي البابوية والبندقية وجنوة والممالك الأوروبية وعلى رأسها انجلترا وفرنسا وجماعة الإسبتارية[1].

وكان أول من اتصل به الملك بطرس جماعة الفرسان الإسبتارية في رودس، واستطاع اقناع رئيسهم وكان له ما أراد، ثم توجه نحو أفينيون في فرنسا حيث مركز البابا إربان الخامس، وقد كان الأخير من أشد المتحمسين لفكرة بعث الروح الصليبية من جديد ولذلك لقي الملك بطرس استجابة طيبة من البابا وأثنى عليه عزمه القيام بهذه الحملة[2].

كذلك توجه الملك بطرس إلى البندقية إدراكاً منه لما تستطيع أداءه هذه الجمهورية لصالح الفكرة الصليبية ومساعدتها مادياً. فرحب به دوقها ووعده بمساعدته بالسفن وببعض الرجال، وتابع الملك بطرس سيره بعدئذ نحو لمبارديا وجنوة حيث صادف ترحيباً به وبفكرته. ثم اتصل بطرس بفرنسا وملكها جان الثاني المعروف بنزعته الدينية القوية، وقد رحب الملك الفرنسي به كثيراً لا سيما إعجابه به لما حازه من نصر في آسيا الصغرى[3].

واستمر الملك بطرس يطوف بعدد من الإمارات والدول الأوروبية مثل فلاندر ونورمندي وبريتاني ثم توجه إلى انجلترا حيث استقبله ملكها إدوارد الثالث استقبالاً كريماً. على أن بطوس لم يحصل منه إلا على وعود كلامية بل أن ملكها صارحه بأن قبرص من أملاك سلفه ريتشارد قلب الأسد[4].

---

(1) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٤٠-٧٤٢، هايد، تاريخ التجارة، ج٢، ص٢٣٠. باركر، الحروب الصليبية، ص١٣٧. نيدس، تاريخ قبرص، ص٩٧.

(2) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٤١. هايد، تاريخ التجارة، ج٢، ص٢٨٣-٢٨٤.

(3) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٤١.

(4) المرجع نفسه، ج٣، ص٧٤٢.

ولذلك لم يحصل على تأكيد رسمي من انجلترا في معاونته في مشروعه، وإنما كان منتهى نجاحه يتمثل في انضمام بعض الأفاقين والمخاطرين إلى جانبه ممن يدفعهم حب المغامرة إلى الانخراط تحت رايته. ثم عاد الملك بطرس إلى فرنسا مرة ثانية حيث قابل شارل الخامس ملك فرنسا الجديد وحاول تأكيد الوعود التي قطعها والده جان الثاني بمساعدة الحملة، لكنه لم يجد بارقة أمل بسبب انشغال الملك الجديد بأحوال مملكته الداخلية وما عانته من ويلات الحروب، على أنه تعهد بمدّه ببعض المال[1].

بعد الإحباط الذي مني به بطرس في بلاط الملك الفرنسي شارل الخامس، توجه إلى الإمبراطور الألماني شارل الرابع والتقى به في براغ حيث رحب فيه وعقد له اجتماعاً لمناقشة مشروعه الصليبي، وقد عرف عن هذا الإمبراطور تدينه العميق مع جنوحه إلى الواقعية لإدراكه من مجريات الأحداث بأن الحروب الصليبية لم تجلب نفعاً بعد احتلالها لأراضي المسلمين لمدة قرنين وأكثر من الزمن، وتجلت واقعية الإمبراطور الألماني في بيان ما يهدد الصليبيين من خطر لا سيما والملك القبرصي في قوة ضئيلة لا تستطيع أن تقف أمام القوات الاسلامية، لذلك اقترح الإمبراطور عقد مؤتمر لمناقشة هذا الموضوع يحضره ملوك بولندة وهنغاريا، واتفق الرأي في هذا المؤتمر على تأييد بطرس في حملته الصليبية، ووسيلة ذلك الكتابة إلى شتى الأمراء الألمان لدعوتهم للمساهمة فيها[2].

لكن السؤال الذي يطرح، ما هو مدى تحقيق هذه القرارات والتوصيات واتخاذها الصورة العملية؟ ويبدو أنه لم يبق أمام الملك بطرس إلا الرجوع إلى قبرص وفي جعبته وعود وعهود

---

[1] رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٤٢-٧٤٣.

[2] رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٤١. باركر، الحروب الصليبية، ص١٣٧-١٣٨.

وفي نفسه آمال وآلام، ولكن قبل عودته إلى قبرص شاء أن يجعل ختام رحلته نحو البندقية وهنـاك رحب فيه دوقها "شلزي" ووعده بتقديم السفن والمساعدة، حتى أنه جهز له سـفينة حربيـة بكـل معدات القتال، وغادر الملك بطرس البندقية نحو قبرص بعد إقامة طالت فيها ستة أشهر[1].

وأثناء إقامة الملك بطرس في البندقية وصل إليه خطاب من البابا أوربان الخامس يبارك فيـه خطواته القادمة هو ومن معه من المقاتلين، ولذلك كتب الملك بطرس إلى أخيه حنا بقبرص يطلـب منه أن يعد العدة والسفن والرجال وتجهيز الحملة من مؤن وأسلحة وغيرها. على أن تتوجه هـذه الحملة إلى جزيرة رودس وهناك ينتظر قدومه عليه[2].

وعندما وصل الملك بطرس رودس في سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م. كان بانتظـاره المنـدوب البابوي وعدد كبير من الأمراء الفرنسيين والفرسان الألمان والطليان وبعض البيزنطيين وجماعة الفرسـان الإسبتارية ووجد الأسطول الحربي مكتمل الاستعداد. فعقد مجلس خاص للتشاور في تحديد وجهة الحملـة، فنصحه برسفال دي الكولوني بالاتجاه إلى الإسكندرية، فقد عرفها من قبل وعرف مسـالكها ودروبـها وراح ييسر لهم أمر الفتح ويهون عليهم ما يلقونه من المقاومة، فوجدت هذه النصيحة استجابة من الملـك بطرس، وعمل على كتمان هذا التوجه حتى لا يتسرب خبر الحملة إلى المسلمين فيستعدون له[3].

---

(1) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٤٣.

(2) النويري، الإلمام، ج٢، ص١١٠-١١١. Atiya, The Crusade in the Later Middle Ages. P. 341-343.

(3) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٤٢. عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٦٤. Setton: OP. Cit., Vol 1, P 267. Atiya, "The Crusade in the Fourteenth Century, Vol.3, P.15.

ويجدر الإشارة إلى أن الملك بطرس كان قد مهد لحملته المزمع القيام بها على الإسكندرية بغزوة تمهيدية لسواحل الشام لإيهام المماليك في مصر بنيته في مهاجمة الشام بهدف استرجاع بيت المقدس. واشترك في هذه الحملة فرسان رودس والبنادقة، ونجح في دخول طرابلس في نيابة منجك اليوسفي[1] في أول سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م، وأضرم النيران في أبنيتها، كما هاجم اللاذقية وأنطرطوس بعد ذلك، ويبدو أن بعض نصارى طرابلس قدّموا المساعدات للغزاة، فما أن انسحب القبارصة من طرابلس حتى أمر الأمير منجك اليوسفي بالقبض على بطريرك النصارى وأمر بإحراقه خارج طرابلس عقاباً له على خيانته[2].

كذلك بعث الملك بطرس بنداء إلى رعاياه المسيحيين في بلاد الشام يخبرهم بالعودة إلى الوطن ويحظر عليهم ممارسة نشاطهم التجاري فيها. وقد هدف من وراء ذلك أن يعتقد الناس أن بلاد الشام هي هدفه[3].

وقد حرص الملك القبرصي على كتمان وجهة الحملة ليموّه على أهدافها، وتقرر أن تحتشد في جزيرة رودس في شهر ذي الحجة سنة ٧٦٦هـ/ آب سنة ١٣٦٥م، وانطلقت الحملة من الجزيرة في شهر محرم سنة ٧٦٧هـ/ تشرين أول ١٣٦٥م[4]، وقد تألفت من مائة وخمسٍ وستين سفينة[5] أقلت حمولة كاملة من الرجال الذين بلغ عددهم ما يزيد عن ثلاثين ألفاً بالاضافة إلى

---

[1] الأمير منجك اليوسفي: تولى عدة وظائف في دولة الأشرف شعبان، وتوفي سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م. أنظر ترجمته ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص١٠٨.

[2] سالم، تاريخ الإسكندرية، ص٣١٤.

[3] رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٤٣.

[4] عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٦٤. Setton: OP. Cit., Vol.1, P 267.

[5] رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٤٣. هايد، تاريخ التجارة، ج٢، ص٢٨٣.

العتاد والمؤن[1]، وبالمقارنة مع ضخامة الحملات الصليبية السابقة، فلم ينهض منذ الحملة الصليبية الثالثة، من الحملات ما يفوق نسبياً تلك التي أعدها بطرس لوزنيان[2].

ولما وصلت السفن عرض البحر، جرى الإعلان بأن الحملة تقصد ثغر الإسكندرية في مصر، بناءاً على النصيحة التي أولاها برسغال دي الكولوني للملك بطرس، كذلك كان الاعتقاد السائد بين الصليبيين آنذاك، أنه من العسير من الناحية العملية غزو بلاد الشام ما لم يكن ثمة قاعدة على الساحل. والمعروف أن الموانئ على ساحل البحر الشامي قد جرى تخريبها من قبل المماليك، باستثناء ميناء طرابلس. وقد دلّت تجربة سابقة على أنه متى فقد سلطان مصر ثغر دمياط، أضحى مستعداً لأن يتنازل عن بيت المقدس مقابل استرداده، والإسكندرية تفوق بأهميتها ثغر دمياط، ومن يضع يده عليها فإنه يستطيع بمساعدة أسطول صغير اعتراض المواصلات بين مصر والعالم الخارجي، فيمكن والحالة هذه اتخاذها قاعدة انطلاق نحو الأراضي المقدسة، يضاف إلى ذلك أنه بمعاونة جيش مدرب يجتاح كل المواقع الداخلية، ثم يتقدم نحو القاهرة، حيث يتيسر له القضاء على عاصمة المماليك[3].

ويضاف إلى ما سبق أنه سوف يؤدي ضياع الإسكندرية إلى تعرض المماليك إلى نوع من الحصار الإقتصادي نظراً لأهميتها كثغر تجاري عالمي تنتهي عنده طرق التجارة الشرقية، لتبدأ منه الطرق التجارية المتجهة نحو الغرب.

---

[1] يذكر ابن حبيب، تذكرة النبية، ج٣، ص٢٨٨. بأن عدد السفن الصليبية بلغ سبعين قطعة، كما يذكر المقريزي، ج٣، ق١، ص١٠٦ بأن العدد ما بين السبعين والثمانين قطعة.

[2] ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٢٩.

[3] رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٤٤-٧٤٥.

ولا بد من الإشارة إلى أن أخبار الحملة وصلت إلى مسامع المماليك في مصر قبل أن تتحرك الحملة من رودس بوقت طويل، وقد أشيع حول ذلك الكلام الكثير فالناس في القاهرة منذ سنوات كثيرة وهم يقولون " في يوم الجمعة تؤخذ الإسكندرية"[1] كذلك ذكر النويري أن الأخبار كانت ترد إلى الإسكندرية "بأن العمارة عند القبرصي"[2]، فاهتم نائب السلطان وهو الأمير زين الدين خالد بما يجري من تحركات في قبرص، وعمل على تحصين أسوارها، وأرسل إلى الأمير يلبغا العمري في القاهرة طالباً منه الإعانة لمواجهة ذلك الخطر، غير أن الأمير يلبغا لم يكترث للأمر ورد على الأمير زين الدين بقوله "إن القبرصي أقل وأذل من أن يأتي إلى الإسكندرية"[3].

وقبل الدخول في تفاصيل الحملة، لا بد أن نبين الأسباب التي دعت الملك بطرس لشن تلك الحملة على الإسكندرية، هذا بالاضافة إلى السبب الديني الذي تكلمنا عنه سابقاً وهو السيطرة على بيت المقدس. وقد أوردها لنا النويري بسبعة أسباب يمكن ترتيبها زمنياً كالآتي:-

السبب الأول: في عام ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م أصدر السلطان صالح بن الناصر محمد بن المنصور قلاوون (٧٥٢-٧٥٥هـ/ ١٣٥١-١٣٥٤م) مرسوماً بطرد جميع المسيحيين الأقباط من دواوين الحكومة ما لم يرتدوا عن دينهم ويعتنقوا الإسلام. وزاد الطين بلة، أنه نص في نفس المرسوم أن يكون لجميع الرعايا المسيحيين زي خاص مميز. كما حتم عليهم ركوب الحمير فقط بدلاً من الجياد. وأن تطبيق هذه الإجراءات المهينة في كل من القاهرة والإسكندرية، شجع عوام المسلمين أن يبدأوا حركة اضطهاد ضد جميع المسيحيين، سواء أكانوا من أهل البلد أو من الأجانب الذين يقيمون في كلتي العاصمتين. وبذلك اضطر التجار المسيحيون الأجانب إلى جمع بضائعهم وحزم أمتعتهم والعود إلى بلادهم. وقد أثار هذا

---

[1] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٠٨.

[2] الإلمام، ج٢، ص١١١.

[3] المصدر نفسه، ج٢، ص١١١.

الإجراء غضب الملك القبرصي الذي بدأ نتيجة لذلك رحلته إلى الغرب بحثاً عن مجندين للهجوم على الإسكندرية[1].

السبب الثاني: يقال أن بطرس الأول لوزنيان عند اعتلائه العرش (١٣٥٩-١٣٦٩م)، طلب من السلطان الناصر حسن أثناء ولايته الثانية (٧٥٥-٧٦٢هـ/ ١٣٥٤-١٣٦١م) السماح له بزيارة صور لتدعيم تتويجه بالجلوس على عمود معين في تلك المدينة طبقاً للتقاليد القبرصية المتبعة. ولكن السلطان رفض طلبه باحتقار. وعلى هذا، فإن بطرس الذي أثار غضبه هذا الموقف، قام بغزو الإسكندرية انتقاماً لكرامته[2].

السبب الثالث: في شوال ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م رست سفينة محملة بقراصنة صليبيين في ميناء الإسكندرية، وسببت مضايقات للبحرية الإسلامية مما جعل نائب السلطان بالمدينة يرسل القناصل المسيحيين إلى المعتدين للتأكد من نواياهم وأغراضهم. فقالوا أنهم يحتاجون إلى مؤن ومياه عذبة فبادر النائب بإرسالها إليهم. ثم تنكروا بعد ذلك لقواعد كرم الضيافة بسلب سفينة شامية راسية في مياه الإسكندرية وابتعدوا عن الميناء. وقد وصلت أخبار هذه القصة إلى بطرس الذي أدرك أن مدينة الإسكندرية خالية من الحراسات. وعلى ذلك قرر الإستيلاء عليها عنوة[3].

السبب الرابع: شن بعض القراصنة المسيحيين غارة بالقرب من رشيد انتهت بأسر عدد من المسلمين وفرار المغيرين. وكانت هذه الغارة دليلاً آخر شجع بطرس كثيراً على مهاجمة الإسكندرية[4].

---

(1) الإلمام، ج٢، ص٩٢ وما يليها.

(2) المصدر نفسه، ج٢، ص٩٦.

(3) المصدر نفسه، ج٢، ص٩٧ وما يليها.

(4) الإلمام، ج٢، ص١٠٣ وما يليها.

السبب الخامس: في ٢٧ شعبان ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م رست ثلاث سفن تحمل مائة من الجنود المسلحين عند شاطئ أبي قير من ضواحي الإسكندرية. وقبضوا على ستة وستين رجلا وامرأة وطفلا من المسلمين، ثم فروا بهم إلى صيدا حيث أطلق سراحهم بعد أن افتداهم المسلمون. وقد عززت هذه الحادثة، مرة أخرى موقف الحاكم القبرصي بالنسبة لمشروعه ضد الإسكندرية[١].

السبب السادس: أعقب تلك الغارة الفاشلة التي قامت بها ست سفن على أبي قير نفسها، غارة أخرى على مدينة رشيد الآهلة بالسكان. وبعد رسو السفن، تصدت لها وسائل الدفاع الإسلامي، وفقد القراصنة ثمانين رجلا من رجالهم في هذا الصدام. فكان لا بد من الانتقام لهذه الهزيمة، وكانت فرصتهم تتمثل في غزو الإسكندرية[٢].

السبب السابع: كان من نتيجة المذبحة التي راح ضحيتها البنادقة المقيمون في الإسكندرية على أيدي العوام، أن توثقت صلة البندقية بقبرص ضد مصر. ووضعت البندقية أسطولها تحت تصرف بطرس الأول في مشروعه المزمع القيام به ضد الإسكندرية. وفي نفس الوقت ألقى البابا في روما بثقله إلى جانب قبرص، لجمع الإمدادات من الدول الأوروبية والأمراء الأوروبيين الذين شاركوا في غزو الإسكندرية[٣].

من خلال عرض النويري للأسباب وانعكاساتها، يبدو أن كلا من الجانبين كان لديه نظام للتجسس، والاستطلاع، وأن كلا منهما كان يتابع الموقف في كل من قبرص والإسكندرية. ومع ذلك فلم يتوقع المماليك هجوما على مدينة الإسكندرية، يضاف إلى ذلك أن الملك بطرس أحسن اختيار الوقت الملائم نتيجة المعلومات التي حصل عليها من قبل جواسيسه المنتشرين في مصر ذلك أن:-

---

[١] النويري، الإلمام، ج٢، ص٧٠٦-٧٠٧.

[٢] المصدر نفسه، ج٢، ص١٠٧-١٠٩.

[٣] المصدر نفسه، ج٢، ص١٠٩ وما يليها.

١- دولة المماليك كانت تعاني من عدم الإستقرار السياسي بسبب صغر سن السلطان شعبان الذي لم يتجاوز ثلاث عشرة سنة، وكانت السلطة الفعلية منحصرة بيد الأمير يلبغا العمري الذي كان مكروهاً من سائر الأمراء والناس[١].

٢-كان نائب الإسكندرية الأمير صلاح الدين خليل بن عرام[٢] متغيباً، إذ ذهب إلى مكة ليؤدي فريضة الحج، وناب عنه في حكم الإسكندرية، أمير صغير من أمراء العشرات وهو جنغرا الذي اتصف بالضعف والتردد، ولا يصلح لمثل هذه المواقف الحاسمة[٣].

٣-قاست دولة المماليك كثيراً من وباء الطاعون الذي تفشى في ديارها في سني ٧٤٩، ٧٥٤، ٧٦١، ٧٦٣، ٧٦٤هـ. واستنفذ هذا الوباء قوى الدولة، ومات بسببه عدد هائل من السكان[٤].

٤-كان الوقت موسم فيضان نهر النيل، والطريق بين القاهرة والإسكندرية، عبر الدلتا قد غمرته المياه، ولا يصلح لمسير نجدة عسكرية سريعة من العاصمة لإنقاذ المدينة، بل كان على هذه الحملة أن تسلك الطرق الصحراوي وهو طويل ومتعب[٥].

---

[١] رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٤٤. عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١١٦٤.
Atiya, "the Crusade in the Fourteenth Century". Vol.3, P. 16.

[٢] الأمير خليل بن عرام نائب الإسكندرية قتل سنة ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م. أنظر ابن تغري بردي، المنهل، ج٥، ص٢٦٣ – الدليل الشافي، ج١، ص٢٩١.

[٣] النويري، الإلمام، ج٢، ص١٣٠-١٣١، ١٥٩، ٢٠٨. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٠٥.
Atiya, "The Crusade in the Fourteenth Century". Vol.3, P.16. Luke, Harry. The kingdom of Cyprus, 1291-1399. A History of the Crusades. Ed., kenneth M Setton. Vol.3. USA. Wisconsin. University Press. 1975. P. 356.

[٤] أبو زيتون، منال أحمد، المجاعات في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي (٦٤٨-٩٢٢هـ/ ١٢٥٠-١٥١٦م)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، اربد، ١٩٩٨م، ص٢٩-٣٣.

[٥] النويري، الإلمام، ج٢، ص١٣٤. العبادي، تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٢٣٥. Setton: Op. Cit., Vol.1, P. 266.

٥-كانت حامية المدينة ضئيلة العدد لا تكفي للدفاع عنها، وذلك لعــدم اهتمــام الأمــير يلبغــا العمري بتحصينها، رغم إلحاح نائبها الأمير صلاح الدين بن عرام[1]. وقد كان الملك بــطرس علــى دراية تامة بضعف دفاعات المدينة عن طريق جواسيسه وأن فيها جماعات يبيتون بســاحل المينــاء لا خبرة لهم بالقتال، ويصف النويري تلك الدفاعات بأنها كانت تتكون أساساً من مجموعات صغيرة مــن الجند تتبختر خارج أسوار المدينة بسيوفها المرصعة بالجواهر وعمائمها الحريريــة الجذابــة وثيابــها المعطرة ولكن كانت تنقصهم روح القتال الحقيقية[2]. كذلك كان الدفاع قاصراً فالأسوار المطلــة علــى الميناء الشرقية كانت خالية من المدافعين عنها، ولم يكن يتقدمها خنادق لمنع العدو من ارتقاء الســور. وكان الخندق الوحيد الذي يحيط بالسور يمتد من الباب الأخضر في أقصى الغرب حتى قلعة ضرغــام في مسافة قصيرة، فاكتفى شمس الدين بن غراب كاتب الديوان بغلق باب الديوان الــذي يطــل علــى داخل المدينة حتى لا يتمكن أحد من نهب البضائع المكدسة. وعلى هذا النحو اطمأن متولي المدينة إلــى تلك الناحية وتركها بدون حراسة. وابن غراب هذا كان متآمراً مع القوات القبرصية[3]. وهكــذا نــرى أن دفاعات المدينة آنذاك كانت في غاية السوء. مما مهد الطريق للملك بطرس للمضــي قدمــاً نحــو المدينة لاحتلالها.

على أية حال ظهرت في الأفق مراكب القبارصة في يوم الأربعاء ٢٠ من محرم سنة ٧٦٧هـــ/ ٨ أكتوبر ١٣٦٥م. وعندما أقبلت هذه السفن ظن أهل الإسكندرية وقد لاحت لهم أشرعتها مــن بعيــد أنــها مراكب للتجار البنادقة، وكانوا يتوقعون وصولهم بمتاجرهم جرياً على عادتهم في كل سنة، وكــان تجــار المسلمين قد جلبوا لهم من اليمن أصناف البهار يبيعونها عليهم ويتعوضون عنها من متاجرهم. فلما لــم

---

(1) النويري، الإلمام، ج٢، ص١٠٢، ١٥٧. رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٤٥.
Holt: OP. Cit., P. 125. Setton: OP.Cit., Vol.1, P. 267.

(2) الإلمام، ج٢، ص١١٤-١١٥، ١٣١.

(3) المصدر نفسه، ج٢، ص١٥٧-١٥٨.

يدخلوا الميناء بات الناس في خوف وقلق بسببهم. ثم ما لبثوا أن اكتشفوا حقيقة الأمر عندما لم تدخل تلك السفن الميناء في يوم وصولها[1].

وفي صباح اليوم التالي، أقبل أسطول القبارصة في سبعين قطعة ما بين غربان[2] وقراقر[3] نحو ساحل بحر السلسلة وهو الميناء الغربية. وعند ذلك أيقن أهل الإسكندرية بأنها حملة بحرية قادمة من قبرص، فتأهبوا للقتال وانتشر الرماة على الأسوار، وحاولت سفينة من سفن القبارصة التقدم للإستطلاع، فبادرها المسلمون بقذفها بالسهام فولّت هاربة وظل الأمر على هذا الحال طوال اليوم إلى أن جاء المساء فنصبت الفوانيس على السور لاضاءته، وقضى المدافعون الليل ساهرين[4]. وفي الصباح، تجمّع أهل المدينة بسلاحهم على الساحل كما تجمع الكثير من فرسان العربان للمشاركة في الدفاع عن المدينة، لكن هؤلاء المدافعين استخفّوا بالقبارصة لقناعتهم بأحكام دفاعات المدينة وقوة الجيش وتوفر السلاح ومناعة الأسوار، ولذلك انتهز الباعة المتجولون فرصة تجمع الجند واحتشادهم خارج باب البحر في المنطقة الواقعة بين الميناءين الشرقي والغربي لبيع أطعمتهم وأشربتهم، وهم غير مبالين من مرابطة الأسطول القبرصي بالميناء[5].

---

[1] النويري، الإلمام، ج٢، ص١٣٦-١٣٧. رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٤٥.

[2] الغربان: مفردها غراب وسمي بذلك لأن مقدمته تشبه رأس الغراب أو الطير، وهي لحمل الغزاة وله ١٨٠ مجذاف أو أقل. ابن مماتي، قوانين الدواوين، ص٣٤٠. النخيلي، السفن الإسلامية، ص١٠٤. ذكر النويري أن القبارصة جاءوا بسبعين مركباً. منها أربعة عشر غراباً للبنادقة وغرابين للجنوية والروادسة عشرة غربان والفرنسيين خمسة غربان والباقي من جزيرة قبرص. الإلمام، ج٢، ص٢٣٠.

[3] القراقير: مفردها قرقورة وهي مركب مهمته حمل البضائع ولها ثلاثة طوابق الأول للركاب، والثاني والثالث للحمولة، ولا تقف إلا في المكان الغزير الماء. النويري، الإلمام، ج٢، ص٢٣٤. وانظر النخيلي، السفن الإسلامية، ص١٢٠.

[4] النويري، الإلمام، ج٢، ص١٣٨-١٣٩.

[5] المصدر نفسه، ج٢، ص١٣٩-١٤٠.

أما عن الجانب الآخر فيبدو أن الملك بطرس قد أوفد جماعة من عيونه، وقد تنكـروا فـي زي المسلمين، أثناء الليل إلى البر، فاختلطوا مع المسـلمين واطّلعـوا علـى ضعـف الدفـاع، واستخفاف الأهالي بالغزاة وانشغال الجند بالأطعمة والأشربة، وتخليهم عن أردية الحرب، والناس يبيعون ويشترون[1]، "وهم معلنون بلعن كل راهب وقسيس ...... ثم أنهم ما فزعوا من الإفرنـج باجتماع أفروطتهم (الأسطول) يوم الخميس، بل صاروا يلعنون القبرصي كلعنهم لإبليس"[2].

وحسب قول النويري السكندري، فإن الملك بطرس الأول قد دخل بنفسه إلى الإسكندرية في زي أحد التجار، ونزل عند كاتب الديوان بها شمس الدين بن غراب الذي تواطأ معه مما أتاح لـه فرصة التعرف على أحوال المدينة، ويبدو أن واليها بن عرام قد عرف عن خيانة ابن غراب بعد أن عاد من الحجاز في أعقاب الحملة، فأمر بقتله[3].

وكانت جموع من العربان قد وصلت إلى الإسكندرية قبل أن تشرق شمس يوم الجمعة، وقد شد ذلك من أزر أهلها، غير أن تلك الجموع على الرغم من كثرتها لم يكن لها أي تأثير عسـكري بحيث تستطيع تغير مجرى المعركة المنتظرة نظراً لافتقارها إلى التنظيـم والسـلاح. ويصـف النويري كيفية استعراض هؤلاء العربان أمام أهل الإسكندرية بقوله "فزرغتـت النسـوان لتلـك العربان، وقلن: قد أتت الشجعان يقتلون عباد الصلبان، فصاروا يتطاردون على خيولهم تحـت الكيمـان، وقد أرخوا لها الأعنة عند سماعهم الزرغتة، وتلك العربان من كثرتهم كالمطر، خـارجين مـن البـاب

---

(1) النويري، الإلمام، ج٢، ص١٤٠-١٤٢.

(2) المصدر نفسه، ج٢، ص١٤٠.

(3) المصدر نفسه، ج٢، ص١٥٨.

الأخضر (أحد أبواب الإسكندرية) فصاروا في الجزيرة كالجراد المنتشر وكل من سرابيل الحرب منقشو، ليس مع كل واحد منهم غير سيفه الأجرب ورمحه قاصداً إما لقتله أو لجرحه"[1].

وحين تحقق الخطر الصليبي المحدق بمدينة الإسكندرية، عرض أحد التجار المغاربة – الذين كانوا يرابطون في المدينة مع المماليك – على الأمير جنغرا قائد الحامية المملوكية رأيه القاضي بوجوب الدفاع عن المدينة من داخل أسوارها المحصنة، غير أن الأمير جنغرا لم يقبل برأيه نزولاً عند رغبة الكثير من المرابطين الذين رفضوا ذلك الرأي. وفضلوا محاربة المعتدين خارج الأسوار في منطقة ما بين الميناءين الشرقي والغربي[2]. وعليه فإن الأمير جنغرا كانت تعوزه الخبرة الكافية لاتخاذ القرارات الصائبة، مما سيكلفه قراره هذا ثمناً غالياً لاحقاً.

وبعد أن أيقن الملك بطرس عدم مبالاة سكان الإسكندرية لمقدم الحملة، قرر الهجوم صبيحة يوم الجمعة ٢٢ محرم سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م[3]. بأن قدّم غراباً إلى الساحل، فتصدى له جماعة من المغاربة المجاهدين وخاضوا في الماء وناوشوا من فيه القتال، وتمكنوا من الإمساك بالغراب في أيديهم[4]، ثم طلبوا من الزراقين[5] أن يزوّدوهم بالنار ليحرقوه، ولكن لم يهتم أحد بذلك، لقلة همتهم وتهاونهم وغفلتهم، ولما لم يجد بحارة الغراب من يمنعهم من المضي في مسيرهم نحو

---

(1) النويري، الإلمام، ج٢، ص١٤٢-١٤٣.

(2) النويري، الإلمام، ج٢، ص١٤٣-١٤٤. خلف الله، ابتسام مرعي، العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي، ٥٢٤-٩٣٦هـ/ ١١٣٠-١٥٢٩م، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٥م، ص٢٢٤، Setton: Op. Cit., Vol.1, P. 268.

(3) النويري، الإلمام، ج٢، ص١١٣.

(4) المصدر نفسه، ج٢، ص١٤٦.

(5) الزراقون. مفردها زرّاق وهو الذي يرمي النفط من الزراقة وهي أنبوبة خاصة ينبعث منها النار والدخان الشديد وتحرق ما أمامها وتستخدم أيضاً في ضرب السفن في البحر. أنظر ابن واصل، مفرج الكروب، ج٢، ص٣١٤، هامش٤.

الساحل تابع سيره وتبعه آخر من خلفه يحميه برمي السهام على المسلمين. فلما وصل الغرابان إلى البر تتابعت الغربان من مناطق متفرقة حتى يرتبك المسلمون ويستعصي عليهم الدفاع، وسرعان ما نزل القبارصة وأعوانهم إلى البر ضحى يوم الجمعة وأخذوا يرمون المسلمين بالسهام[1] وقد نقل النويري صورة الموقف بقوله: "فنزلت الفرنج سريعا من مراكبها بخيلها ورجلها وقت ضحى نهار يوم الجمعة إلى البر، فرمت الخيالة المسلمين بالسهام، تقدمهم أصحاب الدرق والسيوف مشاة على الأقدام ...... وكانت الفرنج مسربلة بالزرد النضيد، متجلية بصفائح الحديد على رؤوسهم الخوذ اللامعة، وبأيديهم السيوف القاطعة، قد تنكبوا القسي الموتورة ورفعوا أعلام الصلبان المنشورة، وصاروا يرمون على المسلمين. فارتشقت سهامهم في أهل الإيمان وفي خيول العربان، فهجت بهم تلك الخيول في كل جهة ومكان، فانهزموا إلى ناحية السور، فصار جيش المماليك بهزيمة العرب مكسور، ولا عادوا قابلوا الفرنج الكلاب بل دخلوا البلد غائرين من الأبواب، وكانت الفرنج لابسين الحديد من الفرق إلى القدم، والمسلمون كلحم على وضم، فكيف يقاتل اللحم الحديد، وكيف يبرز العاري لمن كسى الزرد النضيد، فانهزم المسلمون وولوا، ومن الكفار فروا"[2].

وهكذا أحدث نزول القبارصة على الساحل موجة من الذعر والهلع في نفوس المسلمين، فترك الباعة موائدهم وأطعمتهم وفروا خائفين، والقبارصة يضربون أقفيتهم بالسهام، كذلك يضربون خيل العربان مما جعلها تهوج في جميع الاتجاهات، ولذلك تدافع الناس للدخول داخل

---

(1) النويري، الإلمام، ج٢، ص١٤٦. وانظر. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٠٥-١٠٦. القاضي عبدالباسط، نيل الأمل، ورقة ٧٧/أ، ٧٨/ب. Atiya, "The Crusade in the Fourteenth Century", Vol.3, P 16-17. Setton: OP.Cit., Vol.1, P. 267.

(2) النويري، الإلمام، ج٢، ص ١٤٦-١٤٨.

أبواب أسوار المدينة بازدحام شديد، ونتيجة ذلك هلك منهم الكثير إما بسهام وسيوف القبارصة أو نتيجة التزاحم والذعر[١].

أيقن الأمير جنغرا فشل خطته الدفاعية وهو يشاهد ما أصاب سكان الإسكندرية على أيدي القبارصة من تقتيل وهزائم، وندم على مخالفته لنصيحة المغربي وأسف على سماحه لأهل الإسكندرية بالخروج إلى خارج الأسوار والتعرض لسهام العدو بدلاً من التحصن داخل الأسوار ومقاتلة القبارصة من منافذ هذه الأسوار إلى أن تصل النجدات من القاهرة[٢].

واستمر نزوح الأهالي من أبواب البحر إلى القرى المجاورة، للنجاة بأنفسهم، بينما خرج الأمير جنغرا مع بعض قواته والعديد من الأهالي إلى دمنهور، بعد أن نقل ما كان في بيت المال من الذهب والفضة، كما أمر باعتقال تجار الصليبيين وقناصلهم المقيمين بالمدينة، وكان عددهم خمسين رجلاً، وقد قيدهم المسلمون بالسلاسل[٣].

وبعد الهزيمة المنكرة التي منيت بها حامية الإسكندرية والأهالي خارج الأسوار، استطاع القبارصة الاقتراب من باب البحر، محاولين حرقه بالنار واقتحام المدينة، لكن أهل المدينة أمطروهم من أعلى السور بوابلاً من السهام، مما جعلهم يتراجعون بعيداً عن مرمى سهام المدافعين نحو ناحية الميناء الشرقية وتفحصوا السور من تلك الجهة فوجدوه خالياً من المدافعين واستطاعوا الصعود إلى ممشاه، ومضوا إلى ناحية باب الديوان فأحرقوه بسهولة ويسر لعدم وجود مدافعين ودخل بعضهم المدينة عن طريقه. فلما رأى المسلمون نجاح القبارصة في الدخول إلى المدينة من باب الديوان سلموا أمرهم بتفوق الصليبيين

---

[١] النويري، الإلمام، ج٢، ص١٤٨. Holt: OP. Cit., P. 126.

[٢] النويري، الإلمام، ج٢، ص ١٥٤-١٥٥.

[٣] المصدر نفسه، ج٢، ص١٤٨، ١٥٥-١٥٦.

والفضة وكل ما خف حمله وغلا ثمنه من المعادن الثمينة والنحاس، وكذلك الكثير من الحرير والأشياء الثمينة كالسجاجيد والأقمشة الغالية والكثير من التوابل والفلفل والحاصلات الهندية - كل هذا أخذه الصليبيون إلى أسطولهم[1]. فضلاً عن أسرهم خمسة آلاف إنسان من الأهالي. حتى أن السفن بلغت أقصى حمولتها، مما جعلهم يضطرون إلى إلقاء بعض البضائع والنفائس في البحر خوفاً على سفنهم من الغرق[2].

وعاث القبارصة في الإسكندرية دماراً وخراباً، فأحرقوا أبواب الأسوار بالنار وأحرقوا السفن الراسية بدار الصناعة الشرقية وثم أحرقوا البيوت والمدارس والمساجد والأسواق والقياسر والحوانيت واعتدوا على الأربطة والترب ودمروها لا سيما الواقعة في شبه الجزيرة الواقعة بين الميناءين، ثم أحرقوا دور الطرز والديوان بعد أن نهبوا أشياءها الثمينة[3].

واستمر الاعتداء الصليبي للمدينة ثمانية أيام وهم يلاحقون أهلها المختبئين داخل المساجد والدور والحمامات والشوارع والخانات ويقتلوهم[4]، ويقدر ابن تغري بردي القتلى بنحو أربعة آلاف إنسان[5]. وكانت جثث القتلى من الرجال والنساء والأطفال مبعثرة في الشوارع والطرقات. مما نذر بحدوث الطاعون نتيجة لذلك[6].

وما أن حقق القبارصة هدفهم من غزو الإسكندرية بعد ثمانية أيام من وصولهم إليها في ٢١ من محرم إلى خروجهم عنها يوم الخميس ٢٨ من محرم. قرروا الرحيل عن المدينة خوفاً من

---

(١) النويري، الإلمام، ج٢، ص ١٧١-١٧٢.

(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص١٧٤، ١٧٩.

(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص١٦٦-١٦٧، ١٧١، ١٧٤، ١٧٧.

(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص١٧٣.

(٥) النجوم، ج١١، ص٢٤.

(٦) النويري، الإلمام، ج٢، ص١٧٣، ٢٠٧.

وصول النجدات المملوكية من القاهرة، وكذلك تجنباً للإصابة بمرض الطاعون بسبب تراكم الجيف بالشوارع[1].

وتركوا المدينة حطاماً مدمرة، مما شجع عربان القبائل النازلة بظاهر الإسكندرية كعربان هوارة وفزارة[2] يتسللون إلى المدينة بعد خلوها من القبارصة، فينهبون ما يجدونه في المخازن والفنادق والحوانيت التي دمرت أبوابها، وأصبحت السلع والبضائع متاحة لكل لص وسارق[3].

ولما وصل نبأ الاعتداء القبرصي على الإسكندرية إلى القاهرة، أعلن السلطان شعبان النفير العام بين الجند والأهالي، وخرج بقواته يرافقه الأمير يلبغا العمري[4]، واتجهوا إلى الإسكندرية، ولما وصلوا إلى الطرانة[5] انتظر حتى تتجمع العساكر، وسيّر السلطان شعبان طليعة من الجند ليتقدموا الجيش إلى الإسكندرية وما أن أوشكت جنود المماليك على الوصول إلى ضواحي الإسكندرية حتى كان الملك بطرس الاول وقواته قد غادروا المدينة وأقلعوا بسفنهم في البحر[6].

بعد رحيل القبارصة عن سواحل الإسكندرية، وصل جيش المماليك بقيادة الأمير يلبغا العمري ويرافقه الأمير صلاح الدين بن عرام نائب الإسكندرية، فدخلا المدينة وشاهدا ما حل بها من الخراب والهدم والتقتيل، فأمر الأمير يلبغا بدفن الجثث المتناثرة بالشوارع ونزع

---

(1) النويري، الإلمام، ج٢، ص١٧٨.

(2) قبائل هوارة وفزارة قبائل عربية كانت تنزل بظاهر الإسكندرية وكانوا كثيري الإغارة على التجمعات السكانية القريبة من منازلهم. المصدر السابق، ج٢، ص٢٦٩ هامش ٦.

(3) المصدر السابق، ج٢، ص٢٦٩-٢٧٠.

(4) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٠٤. ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٢٥.

(5) الطرانة بلدة واقعة على الشاطئ الغربي لفرع رشيد، بينها وبين القاهرة نحو أربعين ميلاً. ابن مماتي، قوانين الدواوين، ص٩٧.

(6) النويري، الإلمام، ج٢، ص٢٠٨. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٠٧. ابن قاضي شهبة، تاريخ، مج٣، ص٢٧٠-٢٧١.

الأعلام الصليبية ونصب أعلام المسلمين، كذلك أوعز إلى الأمير ابن عـرام بعمـارة مـا تـهدم وإصلاح الأسوار وأبوابها حتى لا يعاود الصليبيين الإغارة عليها مجددا[١].

وقد علق المقريزي على ما حل بالإسكندرية جراء حملة الملك بطرس الأول بقوله: "فكـانت هذه الواقعة من أشنع ما مر بالإسكندرية من الحوادث، ومنها اختلت أحوالها واتضع أهلها وقلـت أموالهم وزالت نعمهم"[٢].

**رابعا:- النتائج التي ترتبت على هذه الحملة على الصعيدين الإسلامي والصليبي.**

بالنظر إلى النتائج التي حققتها حملة الملك بطرس الأول، فإنها تعد من الواجهة العسـكرية حملة فاشلة، فلم يجن من ورائها ما كان يسعى إلى تحقيقه وهـو الاستيلاء علـى الإسكندرية والاحتفاظ بها لكي تكون قاعدة للانطلاق منها نحو بيت المقدس[٣]. ولذلك نلاحظ أن هذه الحملـة لم تأخذ طابعا دينيا مثل الحملات الصليبية السابقة التي وجهت إلى الشرق من قبل، فلو أنـه أراد البقاء والاستقرار في الإسكندرية لتنفيذ مشروعه الصليبي الذي جاء من أجله لما اكتفى بما غنمـه من أسرى وأموال ورجع إلى بلاده مكتفيا بهذا الانتصار الجزئي، ولكن يبدو أنه واجه مصـاعب جمة في استمرار مخططه الصليبي لعاملين أساسيين هما: أولا: فيضان نهر النيل، وعليه استحال اجتياز الطريق نحو القاهرة في ذلك الوقت، فضلا عن رفض جنوده وحلفائه الانصياع لـه مما اضطره إلى صرف النظر عن الاستمرار في حملته[٤]. ثانيا: علمه أن جيشا مملوكيا قد جهز فـي

---

[١] النويري، الإلمام، ج٢، ص٢٠٨. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١ ، ص١٠٧.

[٢] السلوك، ج٣، ق١، ص١٠٨.

[٣] عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٢٦-١٢٢٧. علي، جهود المماليك، ص٥٢.

[٤] نيدس، تاريخ قبرص، ص٩٧. حبشي، هجوم القبارصة، ص١٩. Setton: OP. Cit., Vol.1, P. 270.
Luke: OP.Cit., Vol.3, P.356.

القاهرة وهو في طريقه لنجدة أهل الإسكندرية، ونظراً لقلة أعداد قواته بالمقارنة بوفـــرة أعـــداد الجيش المملوكي. ولذا فضّل الرجوع إلى بلاده مكتفياً بما حصل عليه من غنائم[1]. ولهذا يذكـــره النويري كثيراً بأنه تصرف كما يتصرف اللصوص، إذ لم يستمر في احتلال الإســـكندرية ســـوى ثمانية أيام[2].

ولذا تعتبر حملة الملك بطرس الأول على الإسكندرية نهاية لتلك الحملات الصليبية المتأخرة التي وضعت نصب أعينها احتلال بيت المقدس، وجاءت نتائجها السلبية وبالاً على العالم الصليبي (المسيحي) لعدة أسباب منها:-

١-أثارت الحملة على الإسكندرية كوامن الغضب تجاه النصارى في مصر وبلاد الشام، وقد تجلت على شكل إجراءات انتقامية سريعة ضد الجاليات الأوروبية وطوائـــف النصـــارى المقيمين في البلاد، وذلك بمصادرة ربع أموالهم لإصلاح ما خرب في الإسكندرية وفداء أسرى المسلمين، وإعداد أسطول لغزو قبرص[3].

٢-اتخذت دولة المماليك خطوة ذات مغزى سياسي وديني، وهي إغلاق كنيسة القيامـــة في بيت المقدس، في محاولة للضغط على النصارى الأوروبيين لإطـــلاق ســـراح الأســـرى المسلمين من ناحية، ولكي يكفوا عن المشاركة في حملات جديدة[4].

---

[1] رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٤٨.
Atiya: "The Crusade in the Fourteenth Century, Vol.3, P. 17. Setton: OP. Cit., Vol.1, P 271.

[2] الإلمام، ج٢، ص١٠٠.

[3] ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٣٣٥، ٣٤٥. ابن دقماق، الجوهر، ج٢، ص٢٢٢-٢٢٣. هايد، تاريخ التجـــارة، ج٢، ص٢٨٥. Holt: OP.Cit, P. 126.

[4] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١١٩. رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٥١.

٣-تأثرت المدن التجارية الإيطالية وقطالونيا الإسبانية لما أسفرت عنه الحملة من نتائج، إذ كانوا يأملون في توطيد مركزهم التجاري في الشرق الأدنى، لكن حدث عكس ذلك، فقد تعرضت أملاكهم في الإسكندرية للدمار[1]، فضلاً عن توقف تجارتهم مع مصر. إذ أن نهب الإسكندرية كاد يدمرهم باعتبارهم دولاً تجارية[2]، لهذا سارعت إلى إرسال رسلها إلى السلطان شعبان لتؤكد له عدم اشتراكها في تلك الحملة[3]. ولكن السلطان شعبان رفض أن يسمح لها بالمتاجرة في بلاده إلا إذا أعاد ملك قبرص أسرى المسلمين، فوعده الرسل بذلك، وتوجهوا إلى قبرص حيث وجدوا الملك بطرس الأول يُعد حملة لمهاجمة مدينة بيروت، فأقنعوه بالعدول عنها، وما زالوا به حتى وافق على ذلك، وسمح لأسرى الإسكندرية بالعودة إلى بلادهم[4].

٤- جهد الأمير يلبغا العمري لإنشاء أسطول مملوكي حربي لغزو جزيرة قبرص التي أضحت عدواً مباشراً لدولة المماليك، لذلك بدأ العمل به في جزيرة أروى[5]، فتم إنشاء مائتي

---

(١) النويري، الإلمام، ج٢، ص١٧١.

(٢) هايد، تاريخ التجارة، ج٢، ص٢٨٥. رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٤٩.

(٣) هايد، تاريخ التجارة، ج٢، ص٢٨٦. الحجي، العلاقات، ص٢٥٨. موير، وليم، تاريخ دولة المماليك في مصر، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م، ص١١٧. Setton: OP, Cit, P. 273.

(٤) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١١٨-١١٩، ١٢٢-١٢٣. هايد، تاريخ التجارة، ج٢، ص٢٨٦. وللمزيد حول دور البنادقة والجنوية في ايفاد الرسل بين القبارصة والمماليك أنظر لاحقاً الفصل الرابع الحياة الاقتصادية.

(٥) جزيرة أروى: تعرف بالجزيرة الوسطى لوقوعها في النيل بين الروضة وبولاق، المقريزي، الخطط، ج٢، ص٨٠٧-٨٠٨.

مركب ما بين شيني[1] وغراب وطريدة[2] إلا أن وفاة الأمير يلبغا سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م، فضلاً عن النزاع الداخلي بين قادة المماليك قد أخَّر إرسال هذا الأسطول إلى قبرص في ذلك الحين[3].

٥- ارتفعت أثمان التوابل والمنسوجات الحريرية وغيرها من السلع الشرقية التي أضحى الناس في الغرب يألفونها، نظراً لأن كمياتها قد نفذت ولم يرد غيرها[4].

٦- شعر الملك بطرس الأول بخيبة الأمل بعد رجوعه إلى بلاده، فسعى إلى إجراء مفاوضات مع المماليك بواسطة رسل جنويّين وبنادقة، وتبادل السفراء مع القاهرة للوصول إلى حل ودّي. غير أن الجانبين كان لهما من الدوافع ما منعهما من الإقدام على هذه الخطوة. وظل المماليك يراوغون حتى يتيسر لهم بناء أسطول لغزو قبرص نفسها، بينما واصل الملك بطرس الأول غاراته على ساحل بلاد الشام ومصر في أثناء مفاوضاته مع المماليك في محاولة منه لإجبارهم على قبول الصلح[5]. ففي أوائل محرم سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م، جهز أسطولاً حربياً عدته (١٢٦) سفينة للإغارة على طرابلس الشام، غير أن عاصفة شديدة فصلت وحدات هذا الأسطول بعضها عن بعض، فلم

---

[1] الشيني: وهو مركب يجره ٨٠ مجذاف ومهمته كشف الموانئ وأخبار القراقر والغربان والطرائد للإغارة. النويري، الألمام، ج٢، ص٢٣٥.

[2] الطريدة: وهو مركب مفتوح المؤخرة له أبواب تفتح وتغلق لحمل الخيل في الحروب. المصدر السابق، ج٢، ص٢٢٤. وأنظر النخيلي، السفن الإسلامية، ص٨٩.

[3] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١١٣. وللمزيد حول جهود الأمير يلبغا في بناء أسطول مملوكي. أنظر العبادي، أحمد مختار بالاشتراك مع عبدالعزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م، ص٣٢٠-٣٢٢.

[4] هايد، تاريخ التجارة، ج٢، ص٢٨٥. علي، جهود المماليك، ص٥٣. رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٥٠.

[5] رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٥٠. Atiya: the Crusades in the Later Middle Ages, P. 372.

يصل منه إلى طرابلس سوى خمسة عشرة سفينة، أطلق رجالها يد النهب في المدينة ثم عادوا إلى قبرص[1]، وعلى الرغم من هذه الغارة فقد تجددت محاولات الملك بطرس لطلب الصلح في أواخر سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م، ولكن سفارته عادت دون نتيجة، مما جعله يجّهز أسطولاً ضخماً في مطلع سنة ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م تألف من (١٣٠) سفينة و(١٦) ألف مقاتل من القبارصة والبنادقة والجنوية والكريتين والروادسة والفرنسيين والهنغاريين، وكان للبنادقة ثلاثون سفينة وللجنوية عشرون وللروادسة عشرة سفن وللأغراب خمس عشرة سفينة والبقية من قبرص[2]. وقاد الملك بطرس الأول الأسطول بنفسه واتجه به إلى ميناء طرابلس، وشاءت الظروف أن نائبها وأكثر عساكرها غائبون عنها، فاغتنم الملك بطرس الفرصة وأنزل قواته من مراكبهم إلى الساحل لنهب البلد، فتصدى لهم أهلها واشتبكوا معهم بالنبال، ثم حدث قتال عنيف بين الطرفين تقهقرت على أثره القوات الإسلامية، مما أدى إلى دخول القوات الغازية إلى المدينة ونهبوا أسواقها وسلبوا منتجاتها. فاستجمع المسلمون قواهم مرة أخرى وهاجموهم وقتلوا منهم نحو ألف رجل بينما استشهد من المسلمين نحو أربعين نفراً، وارتد المغيرون على أعقابهم[3].

---

[1] Atiya: the Crusades in the Later Middle Ages, P. 373.

[2] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٤٩-١٥٠. ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٤٢. سالم، السيد عبد العزيز، "طرابلس الشام"، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مج١٦، ١٩٦٢م، ص٦٥.

[3] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٥٠. سرور، دولة بني قلاوون، ص٢٥٢، سالم، "طرابلس الشام"، ص٦٥-٦٦. Atiya: The Crusades in the Later Middle Ages, P. 373.

بعد انسحاب الملك بطرس من طرابلس خائباً، حاول الإغارة على جبيل[1] إلا أن ريحاً عاصفة فرقّت سفنه ومنعته من النزول على أرضها، فاتجه إلى اللاذقية للإغارة عليها، لكن المدينة استعصت عليه بسبب مناعة تحصيناتها، ووجود سلسلة في الميناء كسرت عدداً من سفنه، فضلاً عن شدة الرياح التي أغرقت ثلاثاً من سفنه وساقت رابعة إلى طرابلس كغنيمة للمسلمين[2].

بعد هذا الفشل توجه الملك بطرس الأول إلى بانياس، فأحرقها وأحرق ما كان بها من السفن الراسية[3].

ثم اتجه للإغارة على ميناء إياس[4]، فلما بلغ المسلمين نبأ قدومه فروا من المدينة نتيجة خوفهم من خيانة نصارى الأرمن، لذلك أنزل الملك بطرس جنده بها، غير أن قواته ما لبثت أن أطلقت يدها في نهبها، وبينما هم في ذلك إذ قدم الأمير منكلي بغا[5] نائب حلب لنجدتهم

---

[1] جبيل: بلد مشهور في شرقي بيروت على ساحل البحر المتوسط، وهي بين بيروت وطرابلس. ياقوت، معجم، مج٢، ص٣٤.

[2] سرور، دولة بني قلاوون، ص٢٥٥. سالم، السيد عبدالعزيز، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، القاهرة، ١٩٦٩م، ص٣٤٩-٣٥٠.

[3] سالم، طرابلس الشام، ص٣٥٠.

[4] إياس: بلدة كبيرة من بلاد أرمينيا الصغرى على ساحل البحر المتوسط. فيها ميناء أحدثه الصليبيين. أبو الفداء، تقويم، ص٢٤٩.

[5] الأمير منكلي بغا الشمسي. أحد الأمراء الكبار المقدمين، تولى عدة وظائف منها نيابة صفد وطرابلس وحلب ودمشق ثم تولى أتابكية الجيش في مصر. توفي سنة ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م. أنظر ترجمته ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص١٠٠.

بقوات مملوكية، واستطاع قتل العديد منهم بينما فرّ الباقي إلى المراكب وكان الملك بطرس من جملة الفارين، فعاد إلى بلاده وهو منهزم[1].

واستمرت قبرص بعدائها لدولة المماليك حتى أنها أصبحت قاعدة للقراصنة الصليبيين، منها يخرجون للإغارة على الموانئ والسفن الإسلامية[2]. ففي سنة ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م أغار أحد القبارصة واسمه حنا الصوري[3] على بلدة صرفند[4] بساحل صيدا، ولكنه لم يخرج من هذه الغزوة إلا بعدد قليل من الأسرى عدتهم ثلاثة عشر أسيراً، وقتل من أهلها ثلاثين آخرين[5].

وفي نفس العام خرج أخوان جنويان من جزيرة قبرص، فأغارا على مدينة صيدا ثم توجها نحو سواحل الإسكندرية للقرصنة، وهناك ظفرا بمركب لأحد المغاربة كان راسياً في الميناء يحمل سلعاً تجارية، فقتلا من فيه من المغاربة ومن كان معهم من رماة الإسكندرية[6].

٧-كانت هذه الحملة نهاية الحملات الصليبية المتأخرة ضد العالم الإسلامي، إذ أن شغف الملك بطرس الأول في الحروب الصليبية، أزعج رعاياه الذين خشوا استنفاد موارد الجزيرة،

---

(1) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٥٠. سرور، دولة بني قلاوون، ص١٥٥.

(2) باركر، الحروب الصليبية، ص١٣٧. رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٥٠. Setton: OP. Cit., Vol.1, P. 279.

(3) حنا الصوري (Jean desour): أحد أمراء البحر في قبرص. هايد، تاريخ التجارة، ج٢، ص٢٤٦.

(4) صرفند: قرية من قرى صور من سواحل البحر المتوسط. ياقوت، معجم، مج٣، ص١٨٥.

(5) عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٢٧. سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٦م، ص١٧١.

(6) عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٢٧.

وعندها قتله أحد الفرسان سنة ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م[1]، فخلفه على العرش ابنه الملك بطرس الثاني، وقد واصل هذا الملك شن الغارات على سواحل مصر وبلاد الشام، إذ أرسل حملة بحرية في السنة الأولى من حكمه، تألفت من أربع سفن وأغارت على سواحل صيدا وأنطرطوس واللاذقية، وبعد أن أوقعت الدمار بهذه الموانئ أبحرت باتجاه الإسكندرية، وعندما وصلتها ورست على سواحلها بادر القبارصة برمي المسلمين بالسهام، فرد عليهم أفراد الحامية بالمثل وأرغموهم على الفرار بعيداً على سواحل المدينة ثم أرسل القبارصة إلى نائب الإسكندرية يسألونه فيما إذا كان السلطان شعبان يرغب في الصلح أم لا، فأجابهم النائب بالنفي، وعندئذٍ حدث تبادل للرمي بالسهام بين الطرفين، فقتل من القبارصة نحو المائة وغنموا منهم مركباً، بينما انسحب القبارصة باتجاه ميناء رشيد، وعبثاً حاولوا النزول إلى بر المدينة بسبب الرياح الشديدة، لذلك ارتدوا خائبين فغادروا رشيد نحو صيدا، إلا أن القوات المملوكية المرابطة فيها استطاعت صدهم ورجعوا من حيث أتوا[2].

ونتيجة لاستمرار تلك الهجمات من قبل قبرص وحلفائها الصليبيين في حوض البحر المتوسط، شعر المماليك بما حل بدولتهم من فقر في إيراداتها بسبب تعطيل تجارتها مع الأوروبيين، فمال السلطان شعبان إلى الصلح مع قبرص، ولذا تمّ تبادل الرسل والسفارات حتى

---

[1] رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٥. نيدس، تاريخ قبرص، ص٩٨. Luke: OP. Cit., Vol.3, P. 360.

[2] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٧٣، ١٧٥-١٧٦. خلف الله، العلاقات، ص٢٢٦. أبو عليان، عزمي محمد، مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م)، دار النفائس، عمان، الأردن، ط١، ١٩٩٥م، ص١١٩.

تمّ عقد الصلح سنة ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م، وبناء عليه تمّ تبادل الأسرى بين الطرفين، وأعيد فتح كنيسة القيامة في بيت المقدس أمام الحجاج المسيحيين، واستعاد نصارى الشرق حريتهم[١].

وعلى الصعيد الإسلامي، فإن حملة القبارصة على الإسكندرية نبهّت السلطان الأشرف شعبان إلى ضرورة تحصين الإسكندرية والعناية بها وبشؤونها بعد أن أصبحت مطمعاً للصليبيين، ولذلك أول عمل قام به السلطان شعبان بعد خروج القوات الغازية من المدينة، أن حوّل ولاية الإسكندرية إلى نيابة[٢] يقوم بشؤونها نائب للسلطنة ينفرد بحكمها، ويكرس جهوده لتحصينها والإشراف على دفاعاتها، وأصبح هذا النائب يختار من بين الأمراء المقدمين، بعد أن كان يتولاها والٍ من أكابر أمراء الطبلخاناه[٣].

وهكذا أصبحت الإسكندرية وضواحيها بعد حملة الإسكندرية نيابة مستقلة تماثل نيابات السلطنة في طرابلس وحماة وصفد من حيث النفوذ والصلاحيات وعظمة الحكم[٤] حتى أن نائبها أصبح يسمى ملك الأمراء[٥].

ونلاحظ أن دولة المماليك بعد هذه الغزوة تنبّهت إلى الخطر الصليبي المحدق بها، فعملت على شحن السواحل المصرية والشامية بالعساكر، وأعادت ترميم وإصلاح معظم التحصينات والمنشآت العسكرية على السواحل المصرية والشامية ودليل ذلك عدم تأثر موانئها الساحلية من هجمات القوات

---

(١) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٨٩-١٩٠. حبشي، هجوم القبارصة، ص٣٤. هايد، تاريخ التجارة، ج٢، ص٢٨٩.

Setton: OP. Cit., Vol.1, P. 276-283.

(٢) القلقشندي، صبح، ج٤، ص٢٥، ٦٤-٦٥. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١١٤-١١٥.

(٣) القلقشندي، صبح، ج٤، ص٦٥. ابن يحيى، تاريخ بيروت، ص٢٩.

(٤) القلقشندي، صبح، ج٤، ص٢٤. القاضي عبد الباسط، نيل الأمل، ج١، ورقة ٧٨/ب.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٢٥.

الصليبية المتكررة التي أعقبت الهجوم القبرصي الصليبي على مدينة الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م.

كذلك كان لهذه الحملة تأثيرها الواضح على اقتصاد دولة المماليك، فقطاع التجارة المملوكي تأثر تأثراً كبيراً بسبب إنقطاع العلاقات التجارية مع المدن الأوروبية التجارية كالبندقية وجنوة ومرسيليا وقطالونيا. وقد أدى ذلك إلى حرمان دولة المماليك من الأرباح التي كانت تحصل عليها من بضائع الشرق الأقصى المارة عبر الأراضي المصرية والشامية إلى أوروبا، فضلاً عن مرور صادرات أوروبا عبر نفس الطريق، فغدت دولة المماليك منهكة من الناحية الإقتصادية نتيجة لذلك[1].

### خامساً: صدى الوقعة على العالم الإسلامي والغربي

كان للعدوان الصليبي على الإسكندرية وقع أليم في نفوس المسلمين في دولة المماليك والعالم الإسلامي شرقاً وغرباً. ففي دمشق تأثر أهلها كثيراً لما فعله القبارصة الصليبيين في الإسكندرية، وقد وصف الخطيب في الجامع الأموي يوم الجمعة ما ارتكبوه في المدينة من جرائم، فتباكى الناس، وصدر المرسوم من مصر إلى نائب السلطنة بدمشق بالقبض على النصارى والأوروبيين وإيداعهم السجون[2]. وأن يصادر ربع أموالهم لعمارة ما خرب من عمران الإسكندرية، ولعمارة أسطول حربي لغزو جزيرة قبرص وتدميرها[3].

---

(١) أنظر الفصل الرابع الحياة الاقتصادية.

(٢) ابن قاضي شهبة، تاريخ، مج٣، ص٢٧٠-٢٧١. سالم، تاريخ الإسكندرية، ص٣٤٧.

(٣) ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٣٢٢. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٠٧.

أما في الأندلس فقد عبّر المسلمون فيها عن سخطهم بالإغارة على النصارى الإسبان في مدينة جيان سنة ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م. وأخذوا يهتفون بعبارة "يا لثارات أهل الإسكندرية"[1]، مما يدل على مقدار الغضب الشعبي الذي انتاب هؤلاء المسلمين لهذه الوقعة الأليمة. وقد عُبّر عن هذه المشاعر من خلال رسالة كتبها وزير مملكة غرناطة لسان الدين بن الخطيب على لسان سلطانه محمد الغني بالله إلى سلطان تونس المستنصر بالله أبي زكريا يصف له فيها حملته على جيان ودوافعها بقوله: "سلام كريم بفتح الفتوح بالملائكة والروح ... فنوينا أن ترفع بها هضم جانب الإسكندرية، ونقوم بفرض الكفاية على الكافة المرضية، فاستدعينا أهل الجهاد ونقصنا أطراف البلاد عن أولى الجلادة والجلاد في المحرم سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م، بعد سنة كاملة من حادث الإسكندرية، ونادى منادي الحمية: يا لثارات أهل الإسكندرية"[2].

أما في بغداد فإن الإيلخان أويس بن حسن سلطان العراق وفارس أبدى ألمه عندما سمع عما ارتكبه القبارصة في الإسكندرية من مذابح شنيعة ونهب وسلب، وتصادف أن جماعة من التجار الأوروبيين قدموا إلى بلاده لبيع المنسوجات والأقمشة في مدينة تبريز[3] سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م، وكانت هذه المنسوجات من ضمن ما نهبه القبارصة من الإسكندرية وباعوها إلى التجار الأوروبيين، ثم أمر الإيلخان أويس بمصادرة أموالهم وقتلهم، وكان عددهم نحو ثلاثمائة شخص[4].

---

[1] ابن الخطيب، الإحاطة، مج٤، ص٥٨٠. العبادي، تاريخ البحرية، ص٣١٦.

[2] ابن الخطيب، الإحاطة، مج٤، ص٥٨٠. التلمساني، نفح الطيب، ج٧، ص٣. العبادي، تاريخ البحرية، ص٣١٦-٣١٧.

[3] تبريز: من أشهر مدن أذربيجان وهي مدينة عامرة ذات أسوار محكمة. ياقوت، معجم، مج١، ص١٣.

[4] سالم، تاريخ الإسكندرية، ص٣٤٧. أبو عليان، مسيرة الجهاد، ص١١٦.

أما البندقية وغيرها من المدن التجارية التي كانت ترتبط مع دولة المماليك بعلاقات تجارية، فإنها لم ترتاح لما أسفرت عنه الحملة الصليبية من نتيجة، إذ كانوا يأملون في توطيد مركزهم التجاري في الشرق. ولكن حدث عكس ذلك، فما كان لهم من أملاك كثيرة في الإسكندرية تعرضت للدمار، فضلاً عن توقف كل تجارتهم مع دولة المماليك، إذ أن نهب الإسكندرية كاد يدمرهم باعتبارهم دولة تجارية. ولذلك حرصت البندقية وجنوة وغيرهم على إرسال الوفود والرسل إلى السلطان شعبان للتأكيد بأن السفن التي أغارت على الإسكندرية لا علاقة لها بها[1].

لكن السلطان شعبان أصر على ايقاف التعامل مع البنادقة أو غيرهم ما دام لم يُصفَّ حسابه مع ملك قبرص ولهذا السبب أخفقت السفارات المتكررة التي أرسلها البنادقة والجنوية والقطلونيين[2] وهو ما سنراه لاحقاً خلال الحديث عن التجارة الخارجية.

---

(1) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٤٩.

(2) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١١٩. هايد، تاريخ التجارة، ج٢، ص٢٨٦.

# الفصل الرابع: الحياة الاقتصادية في عهد السلطان الأشرف شعبان

**١- التجارة**

أ- التجارة الداخلية

**أهم الطرق التجارية في عهد السطان الأشرف شعبان**

**أهمية التبادل التجاري بين النيابات المملوكية**

ب- التجارة الخارجية

ج- الأسواق التجارية

**٢- واردات الدولة (الضرائب)**

**٣- النظام النقدي**

**أنواع النقود**

أ- الدنانير الذهبية

ب- الدراهم الفضية

جـ- الفلوس النحاسية

**٤- وحدات الأوزان والمكاييل والمقاييس**

**٥- الزراعة**

أ- نظام الري:

ب- المحاصيل الزراعية

**٦- الصناعة**

أ- المنسوجات

ب- صناعة السكر

جـ- صناعة الزيت

د- صناعة المعادن

# الفصل الرابع

## الحياة الاقتصادية في عهد السلطان الأشرف شعبان

اهتم السلطان الأشرف شعبان بالناحية الاقتصادية لدولته. فبذل قصارى جهده في هذا السبيل، غير أن الأوضاع الاقتصادية في الدولة تأثرت بالتطورات السياسية الداخلية والخارجية كالفتن والثورات والحروب الصليبية، والعوامل الطبيعية مثل فيضان نهر النيل وانحساره، وانحباس الأمطار، وموجات البرد والصقيع والأوبئة والطواعين.

واهتم السلطان شعبان بالتجارة الداخلية والخارجية، حيث جعلها على سلم أولوياته لأنها عماد الثروة المملوكية، ولذا أقيمت في عهده علاقات تجارية داخلية بين مصر ونيابات بلاد الشام والحجاز، كما أقيمت علاقات تجارية مع بعض الدول، حيث سمح للتجار الأجانب بإنشاء مراكز تجارية خاصة بهم لتسهيل تجارتهم وأقامت الدولة الفنادق والخانات والأسواق من أجل تنشيط حركة التجارة الداخلية والخارجية.

كذلك اهتم السلطان شعبان بالزراعة اهتماماً بالغاً لكونها المصدر الأساسي الذي تعتمد عليه الدولة في الإنفاق على المماليك. فأنشأت الدولة لها الجسور وشقت الترع لتوفير مياه الري للأراضي التي يتعذر وصول الماء اليها، كما ازدهرت الصناعة في عهده بفضل الاهتمام المباشر من السلطان شعبان نفسه.

واتبعت دولة المماليك في عهد السلطان شعبان سياسة نقدية محددة، حيث عرفت ثلاثة أنواع من النقود وهي الدنانير الذهبية والدراهم الفضية والعملات النحاسية، كما تعاملت بالعملات الأجنبية كالدنانير المشخصة (الأفرنتي). ثم فرضت الدولة جملة من الضرائب على رعاياها، وذلك لمواجهة بعض المؤثرات الاقتصادية كالتطورات السياسية التي كانت تحدث بين الحين والآخر، والكوارث الطبيعية المختلفة والتي كثيراً ما تأثر بها الاقتصاد المملوكي.

## أ-التجارة

ارتبطت المدن والمحطات التجارية المملوكية بالنشاط العسكري للدولة، وكان للموقع الجغرافي، والأهمية الاستراتيجية وتوفر الأمن والحماية على الطرق التجارية المؤدية إليها، أثر في الدور التجاري لهذه المدن[1].

وكان للإنتاج المحلي اثر في النشاط التجاري للمدن المملوكية، واختصت المدن البرية في النيابات الشامية بتجارة السلع القادمة من العراق والأناضول، بينما راجت تجارة السلع الأفريقية في المدن المملوكية جنوب مصر، وتميزت الموانئ المملوكية على البحر المتوسط بالسلع الأوروبية، وكانت موانئ البحر الأحمر كعيذاب وجدة والسويس والطور محطات رئيسية لاستقبال السلع القادمة من اليمن والحبشة والهند والصين. كما تجمعت في أسواق القاهرة مختلف أنواع السلع والبضائع الواردة إليها من مختلف المدن والمحطات التجارية المملوكية في مصر وبلاد الشام والحجاز[2].

وعلى ذلك فقد اهتم المماليك كثيراً بالتجارة منذ قيام دولتهم. وتُقسم تجارة السلطنة في عهد السلطان شعبان إلى قسمين: تجارة داخلية داخل حدود السلطنة، والأخرى خارجية مع الدول المعاصرة لها:-

---

(1) اليوزبكي، توفيق، تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر المملوكي، وزارة التعليم العالي، جامعة الموصل، ١٩٧٥م، ص٥٠.

(2) شبارو، عصام، تاريخ المشرق العربي الإسلامي، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٩٩م، ص٣٥٩-٣٦٠.

## أ- التجارة الداخلية:-

نشطت الحركة التجارية بين المدن المملوكية نظراً لارتباطها بعدة طرق تجارية برية وبحرية ونهرية مما ساعد على سد الاحتياجات من السلع المحلية وتكاملت بذلك اقتصادياً[1].

وقد تمركزت الفعاليات التجارية المملوكية في المدن الكبرى. ففي مصر كانت القاهرة المركز الرئيسي لتجارة مصر الداخلية ونقطة تجميع وتوزيع للسلع نظراً لموقعها الجغرافي المتوسط عند التقاء الطرق التجارية[2].

وكان للقاهرة ميناءان على نهر النيل، الفسطاط وبولاق، وكانت الفسطاط الميناء الرئيسي في تجارة القاهرة حتى نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. وكانت تصل اليها المراكب القادمة عن طريق البحر الأحمر – عيذاب- حتى أصبحت مجمعاً لبضائع الصين والهند واليمن ومنها كانت تصدّر إلى سائر البلاد المصرية[3]. ونظراً لقربها من نهر النيل وبُعد القاهرة عنها فقد ازدهرت أسواقها ونشطت فيها الحركة التجارية، وكانت أرخص أسعاراً وأكثر أرزاقاً من القاهرة[4]. ويبدو أن قسماً كبيراً من السلع الواردة إليها كان يتم بيعه في أسواقها دون الحاجة لإرسالها إلى أسواق القاهرة البعيدة نسبياً عن الميناء[5]، أما ميناء بولاق فاستخدم لرسو السفن

---

(1) ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص٥٨٧.

(2) فييت، جاستون، القاهرة مدينة الفن والتجارة، ترجمة مصطفى العبادي، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٦٨م، ص١٠١.

(3) ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص٥٣. المقريزي، الخطط، ج١، ص٣٤٢. ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص٥٨٧. قاسم، عبده قاسم، النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٧٨م، ص٨٧.

(4) ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن إيدمر العلائي، (ت ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م)، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، نسخة أوفست عن طبعة بولاق، ١٨٩٣م، ج١، ص١٠٨. أبو الفداء، تقويم البلدان، ص١٠٨. قاسم، النيل، ص٨٧.

(5) المقريزي، الخطط، ج١، ص٣٦٧. سعيد، البحرية، ص٦٤.

القادمة إلى القاهرة والمسافرة منها ولكن النيل جرف قسماً منها فهجرها الأهالي سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م[١].

ولذلك كانت القاهرة مركزاً تجارياً هاماً بين بحرين: البحر المتوسط الذي تقع عليه الاسكندرية ودمياط وبيروت وطرابلس والبحر الأحمر الذي تقع عليه جدة وعيذاب وينبع والطور والسويس[٢]. كما كانت محطة تجارية على طريق قافلة الحج المغربي ومنها تنطلق مع قافلة الحج المصري، وصارت القاهرة نقطة تجمع السلع وقاعدة توزيعها والمركز الأول لتجارة المماليك الداخلية، حيث اقتصرت عمليات التبادل التجاري في أسواقها على التجار العرب والمسلمين على عكس الموانئ المملوكية الأخرى. ويبدو أن أسباباً خاصة تتعلق بأمن الدولة كانت وراء مثل هذا الإجراء فضلاً عن احتكار المماليك تجارة الشرق، ومنع الأوروبيين من مزاحمة التجار المحليين في تجارة السلع القادمة من الصين والهند التي كانت ترد إلى القاهرة عبر موانئ البحر الأحمر[٣]. وقد كانت القاهرة مهيأة لفعاليات تجارية كبيرة، فتعددت فيها المخازن والقياسر[٤] والوكالات التجارية والفنادق والخانات[٥] والأسواق[٦].

---

[١] المقريزي، الخطط، ج١، ص٢٣٤. ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص٥٨٥. ماهر، سعاد، محافظات الجمهورية العربية المتحدة وآثارها الباقية في العصر الاسلامي، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية، الكتاب الرابع، القاهرة، ١٩٦٦م، ص٨٠.

[٢] فييت، القاهرة، ص١٠١.

[٣] ضومط، الدولة المملوكية، ص١٨٩.

[٤] القياسر أو القيساريات مجمعات تجارية تحوي عدة حوانيت تبيع سلعاً متماثلة، ولها باب يغلق ليلاً، ويقوم حارس بحراستها، كما يتولى فتح الأبواب في الصباح واغلاقها في الليل وكان لكل قيسارية عريف يشرف على إدارتها وإسكان التجار فيها ولا يسمح لأي منهم الدخول إلى مجمع الحوانيت ويصل عدد حوانيت القيسارية إلى ثلاثين حانوتاً. المقريزي، الخطط، ج٢، ص٩١، ١٠١، ١٠٥.

[٥] الوكالات. تأتي الوكالة بمعنى الفندق والخان فهي متماثلة في دورها التجاري من حيث استقبال التجار وبضائعهم وتنظيم عملية البيع والشراء، ويبدو أن الوكالة أكبر حجماً من الفندق والخان إذ تشتمل على عدة مخازن، وفوقها رباع تشتمل على عدة مساكن. أما الفندق فكان كبير جداً بدائره عدة مخازن يعلوها رباع تشتمل على ثلاثمائة وستين بيتاً أما الخانات فتقام داخل الأسواق الرئيسية وعلى الطرق التجارية كمحطات لنزول التجار وحفظ بضائعهم. المقريزي، الخطط، ج٢، ص٩٣. وأنظر غوانمة، يوسف حسن، نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة، عمان، ١٩٨٢م، ص٩٢.

[٦] المقريزي، الخطط، ج١، ص٣٦٧-ج٢، ص٨٦ وما بعدها. وأنظر فهمي، طرق التجارة، ص١٢٧.

إلى جانب القاهرة كمركز تجاري رئيسي لدولة المماليك. هناك عدد من المحطات التجارية الهامة كالاسكندرية التي تعد ميناء مصر الرئيسي على البحر المتوسط[١]، وتميزت بشوارعها الواسعة وأبوابها المتعددة[٢] التي يفتح بعضها على الميناء، حيث يمتد الحي الأكثر ازدحاماً بالسكان وهو الحي التجاري، وفيه كانت تنتشر مؤسسات الأجانب التجارية ومراكز قناصلهم[٣]، ويعمل بالمدينة كثير من الطوائف من أهالي جنوة والبندقية وقطالونيا وغيرها، ولا تقل الاسكندرية آنذاك اتساعاً وأهمية عن أكبر المدن التجارية الأوروبية كالبندقية وجنوة ومرسيليا[٤].

وكانت الاسكندرية ذات مرافئ عظيمة منها المرفأ الشمالي المخصص لاستقبال السفن الأوروبية[٥]، أما الميناء الثاني وهو المعروف بمرسى السلسلة فيحظر على السفن الأوروبية الدخول فيه أو الاقتراب منه، إذ كان مخصصاً لاستقبال السفن الإسلامية القادمة من بلاد الشام والمغرب[٦].

وتجارة الإسكندرية متنوعة برية وبحرية ونهرية. وكان لها – فضلاً عن موانئها على البحر المتوسط – قناة تصلها بالنيل وعن طريقها تأتي المراكب من القاهرة أو دمياط[٧].

---

(١) العمري، مسالك الأبصار، ص١٥١. الحميري، الروض المعطار، ص٥٤-٥٥. ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص٥٧١.

(٢) ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص٣٧.

(٣) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص١١٣. الظاهري، زبدة، ص٣٩. ضومط، الدولة المملوكية، ص١٩٠.

(٤) فهمي، طرق التجارة، ص١٣٠. زيادة، رواد الشرق، ص١٩٦.

(٥) النويري، الإلمام، ج٢، ص٩٨، ١٣٥. ضومط، الدولة المملوكية، ص١٩٠. فهمي، طرق التجارة، ص١٣١.

(٦) النويري، الإلمام، ج٢، ص٩٨، ١٣٥. الظاهري، زبدة، ص٤١.

(٧) العمري، مسالك الأبصار، ص١٥٢. الحميري، الروض المعطار، ص٥٤-٥٦. القلقشندي، صبح، ج٣، ص٣٣٤. ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص٥٧٢.

وامتازت الإسكندرية بموقعها الإستراتيجي من الناحيتين الجغرافية والتجارية فمركزها الساحلي بين مصب فرع النيل الغربي والبحر المتوسط جعل منها سوقاً تجارياً دولية تنقل إليها بضائع الشرق الأقصى عن طريق البحر الأحمر ونهر النيل، والبضائع التي تحملها سفن الأوروبيين في البحر المتوسط، كما تنقل منها البضائع إلى الغرب الأوروبي[١].

تميزت الإسكندرية بازدحام أسواقها التجارية، وقدرتها على استيعاب كل الفعاليات التجارية فيها، فانتشرت فيها المساجد والربط والخوانق والفنادق والخانات والأسواق الممتدة ومعامل الأقمشة والطرز[٢]، فضلاً عن مراكز قناصل الدول الأوروبية وسفرائها، ووكالاتها التجارية والأحياء الخاصة بالتجار الافرنج من مختلف الطوائف[٣] وكان التجار البنادقة فيها أكثر عدداً من تجار الطوائف الأخرى ولهم فيها فندقان واحد كبير وآخر صغير[٤].

ويضاف إلى القاهرة والإسكندرية العديد من المدن التجارية المصرية الهامة كمدينة أسوان التي تقع جنوب مصر على نهر النيل[٥]، واشتهرت منذ القدم كمحطة تجارية على طريق عيذاب، حيث كانت تبحر السفن منها إلى الحجاز والهند واليمن واليها تصل المراكب من فسطاط مصر[٦].

---

[١] القلقشندي، صبح، ج٣، ص٥٣١. سعيد، البحرية المملوكية، ص١٩٩. سالم، تاريخ الإسكندرية، ص٥١٥.

[٢] العمري، مسالك الأبصار، ص١٥٢. القلقشندي، صبح، ج٣، ص٥٣١. الظاهري، زبدة، ص٣٩. سالم، الإسكندرية، ص٥١٥.

[٣] الظاهري، زبدة، ص٣٩. ضومط، الدولة المملوكية، ص١٩٠.

[٤] ديل، البندقية، ص١٤١-١٤٢.

[٥] إبن إياس، نشق الأزهار، نسخة مصورة في مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، تحت رقم ٣٥٨، ورقة ٩٤. القلقشندي، صبح، ج٣، ص٤٥٥.

[٦] العمري، مسالك الأبصار، ص١٤٧. المقريزي، الخطط، ج١، ص١٩٧.

أما مدينة قوص فهي من المحطات التجارية الهامة على نهر النيل على طريـــق القــاهرة عيذاب على الشاطئ الشرقي لنهر النيل[1]، تميزت بأنها محطة تجارية للصادر والوارد من التجار اليمنيين والهنود وتجار الحبشة، ومركز تجمع التجار والحجاج من القاهرة والإسكندرية والمغرب وبلاد التكرور[2].

ونتيجة للتغير الذي حدث في طرق التجارة بين الشرق والغرب أثناء الحــروب الصليبيــة اكتسبت قوص أهمية كبرى فأصبحت قاعدة هامة في تجارة البحر الأحمر وبلاد النوبة وملتقـــى القوافل المتجهة إلى القاهرة شمالاً وأسوان جنوباً كما ارتبطت بعيذاب كأول محطة للتجار القادمين إلى مصر عن طريق البحر الأحمر[3].

ومدينة عيذاب من الثغور المملوكية الهامة على الساحل الغربي للبحر الأحمر[4]، وتعد هـذه المدينة نقطة الإتصال بين تجارة البحر الأحمر وتجارة النوبة ونهر النيل فهي محط السفن القادمة من الهند والصين واليمن والحبشة[5]، ولعبت عيذاب دوراً هاماً كمحطة رئيسة على طريق الحــاج المصري والمغربي، فكانت محطة تجمع وعبور الحجاج القادمين إليها باتجاه مكة عبر ميناء جدة، حيث ينقل الحجاج بواسطة المراكب إلى جدة[6].

---

(1) القلقشندي، صبح، ج٣، ص٤٥٥. المقريزي، الخطط، ج١، ص٢٣٦.

(2) العمري، مسالك الأبصار، ص١٤٧. المقريزي، الخطط، ج١، ص٢٠٢-٢٠٣.

(3) العمري، مسالك الأبصار، ص١٤٧، ١٤٩. القلقشندي، صبح، ج٣، ص٤٥٥. قاسم، النيل، ص٨٦.

(4) المقريزي، الخطط، ج١، ص٣٢٧. فهمي، طرق التجارة، ص١٤٣. ماهر، محافظات، ص٢٠٩.

(5) القلقشندي، صبح، ج٣، ص٥٣٦. المقريزي، الخطط، ج١، ص٣٨٠. سعيد، البحرية، ص٥٢.

(6) المقريزي، الخطط، ج١، ص٢٠٣. الحميري، الروض المعطار، ص٤٢٤-٤٢٥.

ومدينة دمياط من أشهر الموانئ البحرية النيلية، تقع عند مصب النيل الشرقي، وهي همزة الوصل بين نهر النيل والبحر المتوسط[1]. كانت تتصل بالبحر الأحمر عن طريق القوافل التجارية البرية وتعد مخرجاً هاماً لتجارة مصر إلى مدن وموانئ الساحل الشرقي للبحر المتوسط وقبرص وأوروبا[2]، وقد لعبت دمياط دوراً تجارياً واستراتيجياً هاماً فكانت مركز تبادل السلع الواردة والصادرة. وإليها تصل المراكب من أوروبا، كما أقامت فيها جاليات أوروبية عديدة كالبنادقة والجنويين وجالية فرسان الاسبتارية من قبرص ورودس، وكان لهذه الجالية قنصليات معتمدة في المدينة[3].

يضاف إلى المدن المصرية السابقة العديد من المراكز التجارية الهامة كمدينة رشيد[4] والبرلس[5] والقلزم[6] والقصير[7] والطور[8] وغيرها.

أما بلاد الشام فأشهر المراكز والمحطات التجارية فيها مدينة دمشق، وموقعها على طريق القوافل الذي يربط الشام بالحجاز ومصر وشمال بلاد الشام[9]، وتعد من مراكز التجارة وملتقى تجارة وسط آسيا وأوروبا ومركز قناصل الدول الأجنبية، كما أتاح تجمع الحجاج المسلمين والافرنج فيها، فرصة تبادل السلع بين الطرفين، وكان لهذه التجمعات آثار ايجابية على حركة الأسواق فيها ونظام التبادل التجاري وتنوع السلع التجارية وتعدد مصادرها[10].

---

(1) العمري، مسالك الأبصار، ص١٥٧-١٥٨. المقريزي، الخطط، ج١، ص٢١٣. ابن دقماق، الانتصار، ج٢، ص٨٠.

(2) سعيد، البحرية، ص٦٠.

(3) ضومط، الدولة المملوكية، ص١٩٢. فهمي، طرق التجارة، ص١٣٢.

(4) رشيد: بليدة على ساحل البحر المتوسط والنيل قرب الإسكندرية، ياقوت، معجم، مج٢، ص٤٠٣.

(5) بَرَلُّسُ: بليدة على شاطئ النيل قرب البحر من جهة الإسكندرية. المصدر السابق، مج١، ص٤١٩.

(6) القُلْزُمُ: بلدة على ساحل البحر الأحمر قرب أيلة والطور. المصدر السابق، مج٤، ص٨٠.

(7) القُصَيرُ: بلدة قرب عيذاب بينه وبين قوص سير خمسة أيام. المصدر السابق، مج٤، ص٦٥.

(8) الطور: بلدة تقع في الجنوب الغربي لشبه جزيرة سيناء ويقع بين عقبة أيلة ومصر. المصدر السابق، مج٣، ص٢٧٠.

(9) العلبي، أكرم، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، دمشق، ط٢، ١٩٨٢م، ص٣٣.

(10) فهمي، طرق التجارة، ص١٤٧-١٤٨.

وتتصل دمشق بالبحر المتوسط عن طريق ميناء بيروت وتصل السفن إلى بيروت قادمة من الإسكندرية ودمياط، ثم تواصل طريقها نحو الموانئ الأوروبية. وكانت دمشق على اتصال دائم عبر طرقها البرية مع النيابات المملوكية الأخرى[1].

ورافق ازدهار دمشق وتوسع تجارتها، إقامة العديد من الفنادق والخانات المجهزة لنزول التجار، وخزن متاجرهم، والعمل على سلامتهم وتوفير أسباب الراحة لهم[2].

ومن محطات بلاد الشام التجارية مدينة حلب. وكانت أسواق حلب تتفوق على أسواق القاهرة في كثرة ما تزخر به من سلع إذ كانت مركزاً تجارياً لتجارة بلدان كثيرة مثل فارس والأناضول[3].

كما تتلقى السلع الأوروبية والسلع الهندية[4]، أما بيروت فهي من الموانئ الهامة في عصر سلاطين المماليك والتي كانت تصل إليها المتاجر الأوروبية ويؤمها العدد الغفير من تجار المدن الشامية[5]، ويليها في الموانئ الشامية مدينة طرابلس التي كانت مثل بيروت تتلقى السلع الداخلية والخارجية[6]، ويلي هذين الميناءين في الأهمية ميناء عكا وميناء صور[7].

---

[1] الظاهري، زبدة، ص٤١. العلبي، دمشق، ص٣٣١. فهمي، طرق التجارة، ص١٤٨.

[2] زيادة، نقولا، دمشق في عصر المماليك، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بيروت – نيويورك، مكتبة لبنان، ص٩٧. فهمي، طرق التجارة، ص١٤٨.

[3] الغزي، كامل بن حسين، نهر الذهب في تاريخ حلب، المطبعة المارونية، حلب، ١٣٤٥هـ، ص١٦١، ١٩٧. علي، محمد كرد. خطط الشام، مكتبة النوري، دمشق، ط٣، ج٢، ص١٨٢، ١٩٢-١٩٣، ٢٠٤. لابدوس، أيدا، مدن اسلامية في عهد المماليك، نقله إلى العربية علي ماضي، المؤسسة الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٧٨م، ص٨٠.

[4] فهمي، طرق التجارة، ص١٥٠. سوبر نهيم، "حلب"، دائرة المعارف الاسلامية، ج٨، ص٣٥.

[5] ابن يحيى، تاريخ بيروت، ص٣٤-٣٥. ضومط، الدولة المملوكية، ص١٩١. زيادة، رواد الشرق، ص١٩٥.

[6] العمري، مسالك الأبصار، ص٢٠٠-٢٠٣. سالم، طرابلس الشام، ص١٣، ١٧. خرابشة، نيابة طرابلس، ص٢٤٥.

[7] فهمي، طرق التجارة، ص١٥١-١٥٢. ضومط، الدولة المملوكية، ص١٩٢.

ومن المراكز التجارية الشامية الأخرى مدينة القدس وتأتي أهميتها من الناحية الدينية حيث يصل إليها الحجاج المسيحيون سنوياً ضمن رحلات جماعية عن طريق ميناء يافا[1]. كذلك انتشرت عدة موانئ مملوكية على الساحل الشرقي للبحر المتوسط كمدينة اللاذقية وصيدا. وقد كانت هذه المدن على صلات تجارية مع المدن التجارية الأوروبية[2].

أما أيلة فتقع في طريق مكة من مصر على شاطئ البحر الأحمر. وبها يجتمع الحاج المصري والمغربي وتجارتها رائجة لاختصاصها بمرور السلع المتجهة إلى الشام عن طريق البحر الأحمر[3].

ويضاف إلى المدن السابقة مدن غزة والرملة وحمص وحماة. أما غزة فهي ممراً لجميع القوافل المتجهة من بلاد الشام إلى الحج أو القاهرة وهي آخر مدن فلسطين على طريق دمشق – القاهرة، ولذلك حرصت القوافل على الوقوف فيها للتزود بالطعام والماء[4]. وكذلك الرملة هي أول محطة يصلها الحجاج المسيحيون من يافا[5]. أما حمص وحماة فتقع على الطريق التجاري بين دمشق وحلب وأنطاكية يمر بها التجار والمسافرون بكل أنواع البضائع والأمتعة[6].

---

(1) العمري، مسالك الأبصار، ص٢١٠. علي، السيد علي، القدس في العصر المملوكي، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٩٨٦م، ص٢٠١.

(2) ضومط، الدولة المملوكية، ص١٨٨-١٩٢.

(3) غوانمة، يوسف حسن، أيلة (العقبة) والبحر الأحمر، دار هشام، اربد، ط١، ١٩٨٤م، ص٨٣.

(4) ياقوت، معجم، مج٣، ص٣٨٨-٣٨٩. المقريزي، الخطط، ج١، ص٢٢٧. عطا الله، محمود، نيابة غزة في العهد المملوكي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٨٦م، ص٩٨-٩٩، ١٠٤-١٠٧.

(5) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص٦٧-٦٩.

(6) الحميري، الروض المعطار، ص١٩٨. ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص٢٧٠-٢٧٢.

وبالنسبة للحجاز فتعد مكة المكرمة من المراكز التجارية الهامة في الجزيرة العربية وهي مجتمع الحاج في كل عام من أهل المشرق والمغرب وغدت في نفس الوقت سوقاً تجارياً هاماً لمختلف أنواع السلع والبضائع التي يأتي بها التجار والحجاج[1]، وكان بها موسمان للتجارة، أحدهما أول شهر رجب، والثاني في موسم الحج[2].

وتأتي أهميتها التجارية من موقعها على الطريق البري من اليمن إلى بلاد الشام ومصر ويخدمها في ناحية التجارة البحرية ميناء جدة، حيث تصل المراكب التجارية إلى جدة ثم تنقل إلى أسواق مكة[3]. وارتبطت كذلك بأنحاء الجزيرة العربية بعدة طرق برية وكثيراً ما سلكتها قوافل الحج والتجارة. وكانت طرقها آمنة بفضل الحماية التي وفرها المماليك[4].

ونظراً لندرة الإنتاج المحلي فيها فقد اعتمدت فيما تحتاجه من سلع على ما يجلب إليها وقد كانت الغلال من أهم السلع التجارية التي حرص اهل مكة على طلبها من مصر. ففي سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م أصابت مكة شدة عظمى وقلّ الطعام وارتفعت الأسعار فأرسل إليهم الأمير يلبغا العمري المدد الكافي الذي ساعدها على تجاوز محنتها[5].

---

(1) القلقشندي، صبح، ج٤، ص٢٨١. الفاسي، العقد الثمين، ج٤، ص١٢٢، ١٣٦-١٣٧. فهمي، طرق التجارة، ص١٣٨-١٣٩.

(2) الحميري، الروض المعطار، ص٩٤.

(3) القلقشندي، صبح، ج٤، ص٢٦٣، ٢٨٩. الفاسي، شفاء الغرام، ج١، ص٢٥. اليوزبكي، تجارة مصر، ص٨٢. فهمي، طرق التجارة، ص١٣٨.

(4) القلقشندي، صبح، ج٤، ص٢٨٩. الخالدي، المقصد، ورقة ١٥٤/أ.

(5) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٩٧-٩٩. الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٢٧٤. ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٣٠٢.

أما المدينة المنورة فتماثل مكة المكرمة في مكانتها الدينية وأهميتها التجارية في مواسم الحج، حيث يصل إليها الحجاج لزيارة قبر الرسول (ص). كما يفد إليها التجار لتسويق بضائعهم أثناء الموسم[١].

## أهم الطرق التجارية في عهد السلطان الأشرف شعبان

ولبيان أهمية التجارة الداخلية في المدن المصرية والشامية لا بد لنا من ذكر أهم الطرق التجارية في عهد السلطان الأشرف شعبان حتى تبدو لنا الموانئ والمحطات التي تقع عليها ونشاط القوافل والسفن التجارية فيها. فقد ارتبطت الحركة التجارية بين هذه المراكز ارتباطاً وثيقاً بالطرق وما كانت عليه من الاستقرار والأمن وسهولة الاتصال. ولعل قيام المحطات التجارية العديدة والجسور ومراكز الحماية والبريد عليها ما يعزز الدور الهام لهذه الطرق في حركة التجارة الداخلية.

ففي النيابات المصرية احتلت العاصمة القاهرة المركز الرئيسي الذي تنطلق منه أو تنتهي إليه الطرق التجارية الرئيسية، فهي مركز الفعاليات التجارية ومحط أنظار التجار ومعبر القوافل التجارية المتجهة إلى الشمال والجنوب. كما ارتبطت المدن المملوكية بالقاهرة من خلال نهر النيل، والطرق البرية الأخرى التي جعلتها على اتصال دائم بالنيابات الأخرى[٢].

أولى الطرق التجارية شكلها نهر النيل بين القاهرة والإسكندرية وهي الطريق المائي الرئيسي فتخرج المراكب من الإسكندرية إلى القاهرة عبر قناة تصلها بالنيل وهي على امتداد ميل (٢كم) من الإسكندرية، حيث تتصل بمدينة رشيد فرع النيل الغربي[٣].

كذلك اتصلت دمياط بالقاهرة من خلال هذا الطريق[٤]. وبالاضافة إلى نهر النيل فقد اتصلت القاهرة بطرق مواصلات أخرى، فقد كانت الترع والقنوات الخارجة من النهر تقوم بنفس الدور

---

(١) القلقشندي، صبح، ج٤، ص٣٩٢، ٣٠٦.

(٢) قاسم، النيل، ص٨١. اليوزبكي، تجارة مصر، ص٧٧.

(٣) القلقشندي، صبح، ج٣، ص٣٣٤. المقريزي، الخطط، ج١، ص١٧١. ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص٥٧٤. ضومط، الدولة المملوكية، ص١٨٥.

(٤) ضومط، الدولة المملوكية، ص١٨٥. اليوزبكي، تجارة مصر، ص٧٧. قاسم، النيل، ص٨٠.

التجاري، وأدت قناة الإسكندرية دورها في الملاحة النهرية، واستخدمت المراكب لنقل الغلال إلى الإسكندرية، كما كانت السفن التجارية الصغيرة تسير في خليج القاهرة[1].

ويضاف إلى نهر النيل هناك طريق تجارية أخرى بين القاهرة والإسكندرية وهي الطريق البري الممتد على نهر النيل والذي امتد جنوباً إلى قوص وأسوان[2].

أما الطريق الثاني فهو طريق القاهرة – أسوان، وهي امتداد لطريق الإسكندرية – القاهرة فالمراكب تصل عن طريق النيل من أسوان وبلاد النوبة. ونظراً لكثرة الجنادل والشلالات في نهر النيل فإن المراكب القادمة إلى أسوان تقف عند الشلال الأول، حيث يستحيل سير المراكب فيها، فكانت البضائع تفرغ من السفن والمراكب لتحمل على ظهور الدواب إلى المراكب المملوكية، ويتم نفس الإجراء بالنسبة للمراكب القادمة من أسوان[3].

الطريق الثالث يربط جدة – عيذاب – القاهرة، فالبضائع اليمنية تنقل إلى جدة ومن ثم تنقل بحراً إلى ميناء عيذاب، وتحمل منها على ظهور الابل الى مدينة قوص، ثم تنقل الى القاهرة بواسطة المراكب ويستمر قسم منها إلى دمياط والإسكندرية ودمشق[4]. وقد وُصف هذا الطريق

---

[1] المقريزي، الخطط، ج١، ص١٧١-١٧٢. قاسم، النيل، ص٨٢.

[2] قاسم، النيل، ص٨٢. اليوزبكي، تجارة مصر، ص٧٤.

[3] العمري، مسالك الأبصار، ص١٤٩. ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص٢٠١. المقريزي، الخطط، ج١، ص١٠٨. قاسم، النيل، ص٨١.

[4] القلقشندي، صبح، ج٥، ص١٧، ٨٦. ضومط، الدولة المملوكية، ص١٨٥. اليوزبكي، تجارة مصر، ص٧٤، ٧٧. فهمي، طرق التجارة، ص١٢٥-١٢٦.

بكثرة المخاطر نتيجة كثرة الشعاب المرجانية في البحر الأحمر ومخاطر التيارات البحرية فضلاً عن صعوبة نقل السلع والبضائع عبر الصحراء وانعدام الأمن عليه[1].

الطريق الرابع القاهرة – السويس – مكة. فالقوافل تخرج من القاهرة باتجاه السويس على البحر الأحمر عبر الصحراء الشرقية ثم تنقل السلع والبضائع بواسطة السفن إلى الموانئ المملوكية على البحر الأحمر ابتداء بالطور ثم ينبع وجدة والتي ارتبطت باليمن بطريق بري، كما بقيت على صلة مستمرة بميناء عدن[2].

وبالنسبة لنيابات بلاد الشام فقد ارتبطت فيما بينها بعدة طرق رئيسية وفرعية، وكانت مراكز هذه النيابات تمثل محطات تجارية رئيسية على هذه الطرق، ومن هذه المراكز امتدت الطرق التجارية إلى النيابات المملوكية الأخرى في مصر والحجاز، وكانت دمشق مركز نيابة السلطنة أكبر المحطات البرية وأهمها، فقد اتصلت بطريق بري يصل إلى الموانئ الشامية على البحر المتوسط[3]، كما اتصلت دمشق بطرق تجارية أخرى بجميع المدن الشامية الساحلية والداخلية كطرابلس وصور وصيدا واللاذقية وعكا ويافا[4].

وتعد طريق دمشق – حلب من أهم الطرق الداخلية التي تربط بين دمشق والمدن الداخلية بشمال بلاد الشام والبلاد المجاورة لها كالعراق والأناضول، وكان لا بد للقوافل العابرة إلى

---

(1) ضومط، الدولة المملوكية، ص١٨٢-١٨٤. فهمي، طرق التجارة، ص١٦٥. البوزبكي، تجارة مصر، ص٧٩-٨٠.

(2) القلقشندي، صبح، ج١٤، ص٤٣١-٤٣٢. البوزبكي، تجارة مصر، ص٧٤.

(3) ابن يحيى، تاريخ بيروت، ص٣٥. الظاهري، زبدة، ص٤٠-٤١. فهمي، طرق التجارة، ص١٤٨.

(4) القلقشندي، صبح، ج١٤، ص٤٢٨-٤٣٠. فهمي، طرق التجارة، ص١٥١.

الشمال من المرور في دمشق ثم إلى حلب مما أعطى قيمة استراتيجية لهذا الطريق[1]. وقد ارتبطت حلب بطريق بري يصلها بالبحر المتوسط[2].

واتصلت النيابات الشامية بالقاهرة ومراكز النيابات الأخرى بعدة طرق برية وبحرية كان أهمها طريق دمشق – القاهرة، وطريق الاسكندرية مع الموانئ الشامية. كما شكل طريق الحج الشامي المعبر الرئيسي للقوافل المنطلقة من دمشق إلى المدن الحجازية.

أما طريق دمشق – القاهرة فهو من الطرق البرية الحيوية بالنسبة للدولة كونه طريقاً رئيسياً لعبور العساكر والتجار والمسافرين[3]، فالقوافل التجارية تخرج من القاهرة عبر الصحراء ثم تسير بمحاذاة الساحل إلى غزة وهي طريق صعبة المسالك بسبب الصحراء ثم تتجه القوافل من غزة عبر هذا الطريق إلى الخليل والرملة والقدس وصفد ومنها إلى دمشق وهناك فرع من هذا الطريق يتجه من الخليل إلى الكرك[4].

ويقع على هذا الطريق العديد من المراكز التجارية ومراكز البريد، وكانت هذه المراكز عامرة بكل ما يحتاجه المسافر من زاد وعلف وماء وغير ذلك من عدة السفر. وتسهيلاً لعملية النقل فقد أقيم على طول الطريق العديد من الخانات والاستراحات لنزول القوافل التجارية وإقامة التجار ولخزن بضائعهم واستراحة دوابهم[5].

---

[1] القلقشندي، صبح، ج١٤، ص٤٢٦-٤٢٧. ضومط، الدولة المملوكية، ص١٨٥-١٨٦. العلبي، دمشق، ص٣٣١.

[2] فهمي، طرق التجارة، ص١٥٠. خرابشة، نيابة طرابلس، ص٢٤٥.

[3] إبن إياس، نشق الأزهار، ورقة ١٠٦/أ.

[4] القلقشندي، صبح، ج١٤، ص٤١٥-٤١٦. فهمي، طرق التجارة، ص١٥٤. ضومط، الدولة المملوكية، ص١٨٧.

[5] القلقشندي، صبح، ج١٤، ص٤١٥-٤١٧. ضومط، الدولة المملوكية، ص١٨٧-١٨٨.

أما الطريق التي تربط الاسكندرية مع الموانئ الشامية، فهي من الطرق الهامة، فـالمراكب تخرج من الإسكندرية إلى رشيد عند مصب النيل الغربي، ثم إلى البرلس ومنها إلى دمياط عنـد مصب النيل الشرقي، ثم يمتد إلى العريش ورفح حد الديار المصرية مع الشام، ومن هنـاك إلـى غزة وعسقلان ويافا وصور وبيروت وطرابلس ثم إلى اللاذقية ثم يمتد إلى الإسكندرونة وآسـيا الصغرى[١].

ونظراً لتردد سفن ومراكب المدن الأوروبية على موانئ البحر المتوسط المملوكيـة، فقـد ازدهر هذا الطريق وتطورت تجارته[٢]، وبالمقابل فقد تعرضـت السـفن المملوكيـة لـهجمات القراصنة الأوروبيين الذين هددوا التجارة المملوكية وسفنها بين مصر والشام من خلال استيلائهم على السفن ونهبها، والاعتداء على الموانئ وأسواقها وإحراق السفن الراسية فيها[٣].

كذلك لعب طريق الحج الشامي دوراً تجارياً هاماً فهو يربط بين بلاد الشام والحجاز، فركب الحاج يخرج من دمشق عبر قرى الشام إلى البلقاء، ثم يتجه إلى الكرك ومعان ثـم إلـى تبـوك وعيون حمزة، ومنها يتجه نحو المدينة المنورة، ثم إلى بدر حيث يلتقي مع الحاج المصري[٤].

ارتبط هذا الطريق بموسم الحج سنوياً، ولم يكن النشاط التجاري مقتصراً علـى المواسـم فحسب، بل استمرت القوافل التجارية بنقل البضائع بين المدن الحجازية والنيابات الشامية.

حرصت دولة المماليك في عهد السلطان شعبان على توفـير الأمـن والراحـة للحجـاج والمسافرين والتجار، فأمّنت المحطات والاستراحات الخاصة بتزويد القوافـل والحجـاج بالمـاء والغذاء وعلف الدواب، كما أرسلت الحملات العسكرية نحوها في حال حدوث الأخطار وخاصـة الأعراب وقطّاع الطرق الذين دأبوا على مهاجمة القوافل التجارية، وقوافل الحج المتجهـة نحـو الحجاز أو العائدة منه، ففي سنة ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م أغار عرب بني كلاب على قافلـة الحجـاج

---

[١] القلقشندي، صبح، ج٣، ص٢٤٢-٢٤٣- ج١٤، ص٤١٩-٤٢١.

[٢] سالم، تاريخ الاسكندرية، ص٥١٥. اليوزبكي، تجارة مصر، ص٨٨. فهمي، طرق التجارة، ص١٨٤.

[٣] سالم، تاريخ الإسكندرية، ص٣٥٩. Atiya, "the Crusade in the Fourteenth Century", vol. 3, P.18.

[٤] ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص٣٤٣-٣٤٤. فهمي، طرق التجارة، ص١٣٨-١٣٩. غوانمة، تـاريخ شـرقي الأردن في عصر دولة المماليك الأولى، القسم الحضاري، وزارة الثقافة والشباب، جمعيـة عمّـال المطـابع الأردنية، عمان، ١٩٧٩م، ص٦١-٦٢.

الشامية بين حلب وحماة، وبسبب ذلك أرسلت الدولة نائب حلب الأمير قشتمر المنصوري[1] نحو هؤلاء الأعراب لتأديبهم، فدارت بين الطرفين معركة عنيفة أسفرت عن وضع حد لتصرفات هؤلاء الأعراب وتحقيق الأمن والطمأنينة لقوافل الحجاج[2].

### أهمية التبادل التجاري بين النيابات المملوكية:

تبادلت النيابات المملوكية انتاجها المحلي وحاجاتها اليومية، وشكلت هذه الحاجات والانتاج القسم الأكبر من تجارتها الداخلية، ولجأت إلى سد نقص ما تحتاجه من السلع الضرورية الأخرى، من النيابات المجاورة. وكانت القاهرة مركز الدولة بحاجة دائمة إلى السلع الغذائية لا سيما الغلال والأعلاف واللحوم والألبان وغيرها من المأكولات[3]. ونشطت التجارة الداخلية بين النيابات المصرية والقاهرة، فاستوردت من الإسكندرية الأقمشة والملح[4]. واعتمدت على الصعيد في حاجاتها من الغلال والأغنام، والخضراوات والطيور والكتان[5]. ومن الريف المصري الذي يقع بين القاهرة ورشيد، الفواكه والخضراوات والغلال. ومن منطقة البحيرة، النسيج والأقمشة والسمك والموز والقطن وقصب السكر[6].

أما النيابات الشامية فشهدت نشاطاً تجارياً حافلاً، فدمشق تستورد الأغنام من حلب وحماة وبذر البطيخ السمرقندي الذي يستخدم لأغراض الزراعة من حلب ومنها يحمل إلى غزة[7]،

---

[1] الأمير قشتمر المنصوري نائب حلب توفي مقتولاً في سنة ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م. أنظر ترجمته. ابن حبيب، درة الأسلاك، ج٣، ورقة ٧٥/أ. ابن حجر، الدرر، ج٣، ص٣٣٤. ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٨٥.

[2] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٧٥-١٨٠. ابن قاضي شهبة، تاريخ، مج٣، ص٣٥١.

[3] المقريزي، إغاثة الأمة، ص٤٤-٤٦.

[4] المقريزي، الخطط، ج١، ص١٠٩.

[5] القلقشندي، صبح، ج٣، ص٥٢٠. ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص٥٦٤.

[6] ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص٥٦٤-٥٦٥، ٥٧٤.

[7] ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص٢٥٣.

ومن السلع الأخرى التي نقلت من الشام إلى مصر القصب المذهب والقراطيس والأقـواس وغيرها[1].

وفي الظروف الطارئة راجت تجارة القمح والغلال الأخرى من مصر إلى بـلاد الشـام أو العكس لا سيما أوقات القحط والغلاء، فمع تولي السلطان شعبان عرش السلطنة سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م تذبذب منسوب مياه النيل في أوقات فيضانه (النصف الأول من شهر مسرى/ آب) بين الانخفاض والوفاء (ستة عشر ذراعاً) والارتفاع، ثم هبط المنسوب سريعاً تحت مستوى الوفـاء مرة واحدة، مما أضرّ بالموسم الزراعي وبالتالي ارتفعت الاسعار وخاصة المواد الغذائيـة إلـى مستويات تفوق قدرة الرعية، الأمر الذي استوجب تدخل الدولة لتدارك الوضـع المتـأزم وجـاء التدخل من الأمير يلبغا العمري الذي أمر بتوزيع الغلال المخزونة بالشون السلطانية على الفقـراء والمساكين، وتعويض النقص من بلاد الشام[2]. ويبدو من ذلك أن النيابات المملوكية غالبـاً مـا حققت نوعاً من الاكتفاء الذاتي، كما أن ارتفاع حجم التجارة الداخلية أثناء الأزمات الاقتصادية من نيابة إلى أخرى، يشعر بنوع من التكامل التجاري بين نيابات الدولة.

وتشكل قافلة الحاج فرصة مناسبة للتبادل التجاري بين النيابات المملوكيـة والحجـاز، إذ يرافق قوافل الحج عدد كبير من التجار، حيث يعد موسم الحج سوقاً لكافة أنواع السلع التجاريـة، وتستقبل مكة والموانئ الحجازية كجدة وينبع، بضائع تجارة الهند والصين وشرق أفريقيا، لا سيما

(١) البدري، نزهة الأنام، ص٣٦٤.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٨٥. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٦-٧.

الفلفل والبهار[1]. وتنطلق من النيابات المملوكية سنوياً قافلتان للحج، الركب المصري من القاهرة والركب الشامي من دمشق[2].

## ب- التجارة الخارجية

من المعروف أن ازدهار التجارة الخارجية يتطلب توفر مقومات عدة ليس أقلها استراتيجية الموقع الجغرافي، والاستقرار الداخلي والخارجي، وتأمين الأسواق الداخلية والخارجية اللازمة لها.

فالموقع الجغرافي لدولة سلاطين المماليك أثّر ايجاباً على حياتها الاقتصادية، وجعلها المحور الأساس للطرق التجارية؛ فهي عظيمة الرقعة والسعة بحيث أصبحت أطرافها تمتد من الجهات الشامية حتى نهر الفرات وجبال طوروس شمالاً، وعلى شاطئ بحر الروم (البحر المتوسط) من خليج الإسكندرونة حتى بلاد برقة وعلى ضفاف نهر النيل حتى أعالي النوبة واليمن والحجاز وجزء عظيم من بلاد سواحل البحر الأحمر[3].

وبذلك بسطت دولة المماليك نفوذها على ثلاثة بحار هامة: البحر المتوسط، والأحمر، ومدخل المحيط الهندي.

---

[1] الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٢٥٣، ٥٧٤.

[2] الجزيري، الدرر الفرائد، ص١١٧٢.

[3] مبارك، علي باشا، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠م، ج١، ص٥٥.

فالعلاقات بين الشرق والغرب قديمة جداً، وقد اتسمت بعلاقـــات عســكرية عدائيـــة حينـــاً وسياسية حيناً آخر، وفي كلا الحالتين لم تنقطع الصلات التجارية نهائياً؛ فالاقتصاد العالمي يرتكز على وحدات اقتصادية يكمّل بعضها البعض الآخر[١].

ولكن بانتهاء الحروب الصليبية في الشرق، والأوروبيون يتحاشون المـــرور بـــالأراضي المملوكية، ويحاولون تدعيم الطريق البري، الآتي من أوروبا إلى فارس، فالهند، والمار بـأراضي الدولة البيزنطية، محافظة منهم على وصول السلع المشرقية باستمرار إلى بلادهم[٢].

وتشاء الظروف أن يقضي المغول على بغداد سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م[٣]، ويبسطون نفوذهم علـــى آسيا الصغرى وبلاد فارس التي اتخذها هولاكو مركزاً لامبراطوريته في الشرق الاســـلامي ثـم اشـتد الصراع بين المغول أنفسهم، مما أدى إلى اضمحلال الطريق البري بين الصين من جهة، وآسيا الصغرى وموانئ البحر الأسود من جهة أخرى، وأضحى هذا الطريق محفوفاً بالمخاطر واعتداءات اللصـــوص[٤].
وكذلك تجنب التجار سلوك الطريق البحري من الصين إلى الهند إلى هرمز علـــى الخليـــج العربـــي الإسلامي، وذلك بسبب ازدياد نشاط القراصنة على الساحل الفارسي. وكان ذلك من حسن حـــظ المماليك عندما انتعش الطريق البحري الآتي من الشرق الأقصى عبر المحيط الهندي إلى البحـــر الأحمر، حيث يسلك طريقين، الأول عبر سيناء إلى دمشق فموانئ البحر المتوسط، والثاني عـــبر الصحراء إلى النيل فالقاهرة ومن النيل أيضاً إلى الإسكندرية[٥].

---

[١] ضومط، الدولة المملوكية، ص١٨٠.
[٢] المرجع نفسه، ص١٨٠.
[٣] أبو شامة، ذيل الروضتين، ص١٩٨.
[٤] المقريزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٤٠٩-٤١٣. ضومط، الدولة المملوكية، ص١٨٠.
[٥] شبارو، تاريخ المشرق، ص٣٥٩. اليوزبكي، تجارة مصر، ص٧٣-٧٤.

أدى ازدهار طريق البحر الأحمر خدمة عظيمة لدولة سلاطين المماليك في بداية نشـــأتها، حيث أتاح لها فرصة القيام بدور الوسيط بين تجار الشرق وتجار الغرب فدولة سلاطين الممـــاليك تقع على طريق البحر الأحمر، وهو أقصر الطرق المؤدية إلى الهند مصدر السلع الأشد طلباً فـــي أوروبا (البخور والبهارات والتوابل)، وتتصل بأوروبا وبالموانئ المملوكية على البحر المتوســط، وبخطوط تجارية منتظمة بين الشرق والغرب تمر في تلك الموانئ[١].

ولذا أولى المماليك التجارة البحرية الشيء الكثير من عنايتهم كاهتمامـــهم بتـأمين طـرق التجارة البرية والبحرية ووضعوا القوانين لحقوق الملاحة، وفتحوا بذلك أمام بلادهم آفاقاً جديـــدة للتجارة البحرية امتدت عبر البحار والمحيطات المعروفة لديهم آنذاك، وأخذوا ينشـــرون الأمـــن والاطمئنان، وعمروا الموانئ وأمنوا طرق المواصلات لتأمين مرور السفن الحاملة للبضائع فـــي البحر الهندي والبحر الأحمر والبحر المتوسط[٢].

ولا شك في أن التقدم العظيم الذي رأته مصر والشام في القرن الثامن الـــهجري/ الرابـــع عشر الميلادي يرجع مرده إلى الاستقرار السياسي الذي صحب حكم المماليك لأن مصر كـــانت حلقة الوصل في النشاط التجاري بين الشرق والغرب فكان يتطلب منها تأمين المواصلات حتـــى تصل البضائع سليمة من موانئ البحر الأحمر إلى موانئ البحر المتوسط[٣].

وجاءت العلاقات بين دولة المماليك في عهد السلطان الأشرف شعبان والمـــدن التجاريـــة الأوروبية متلازمة زمنياً لعصر التوسع الصليبي ضد العالم الإسلامي. ومن هنـــا جـــاءت هـــذه

---

[١] اليوزبكي، تجارة مصر، ص٥٠. ضومط، الدولة المملوكية، ص١٨١.

[٢] اليوزبكي، تجارة مصر، ص٦٠. شبارو، تاريخ المشرق، ص٣٦١.

[٣] اليوزبكي، تجارة مصر، ص٦١.

العلاقات معبرة عن طبيعة ذلك العصر أصدق تعبير. فهي تكشف عن وجود علاقات اقتصادية بين دولة المماليك في مصر وبلاد الشام والجاليات التجارية الأوروبية داخل نطاق النزاع الديني.

وكيفما كان الأمر فإن المدن التجارية الأوروبية التي كانت لها علاقات مع دولة المماليك وقتذاك هي على التوالي: البندقية وجنوة وبيزة، وقطالونيا ورودس. وقد قامت علاقاتها مع مصر على أساس تجاري بحت[1].

وكان للعامل الجغرافي أثره الكبير في تطور بعض المدن الغربية وازدهار التجارة بها، من ذلك المدن البحرية الايطالية وعلى رأسها: البندقية وجنوة وبيزة التي استمدت أهميتها من موقعها على البحر المتوسط الذي كان محور نشاطها، والذي جعل منها حلقة اتصال بين الشرق والغرب. وساعد على قيامها بهذا الدور الاحتياجات المتبادلة بين شقي العالم وقتذاك. فقد كان لمنتجات الشرق بصفة عامة ومصر بصفة خاصة أهمية كبيرة بالنسبة للغرب الأوروبي، ومن أهم السلع التي كان الغرب في حاجة إليها التوابل والبهارات لحفظ المأكولات سليمة ولصناعة الأدوية والعقاقير، فضلاً عن السكر والعطور والبخور والعاج والأحجار الكريمة والخامات الأولية اللازمة لصناعة النسيج كالقطن. كذلك كان الشرق في حاجة إلى بعض الخامات الغربية التي لم تكن متوفرة عنده مثل: الأخشاب والمعادن كالنحاس والحديد[2].

وكانت تلك المدن البحرية تقوم بعملية تصدير واستيراد هذه السلع تلبية لتلك الاحتياجات المتبادلة بين شقي العالم، وتجني من وراء ذلك أرباحاً هائلة[3].

---

(1) يوسف، جوزيف نسيم، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ط١، ١٩٨٨م، ص٦٧.

(2) المرجع نفسه، ص٦٩.

(3) اليوزبكي، تجارة مصر، ص٧٧، ٧٩.

ولكن من المعلوم أن المدن الأوروبية التي كانت لها السيادة في البحر المتوسط تعرضت سفنها وتجارتها إلى الخطر على أثر الحروب الصليبية التي وقعت بين المماليك والصليبيين، وكانت نهايتها طرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام بعد استرجاع عكا سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م[١]، وكان رد الفعل لدى معسكر الصليبيين أن دعت البابوية إلى تحريم الاتجار مع دولة سلاطين المماليك، وأصدرت قرار الحرمان من الكنيسة، وعملت على تنفيذه بقوة السلاح فقامت باعداد أسطول مسلح للتصدي لسفن تجار الأوروبيين الذين يتعاملون مع المماليك[٢].

ومع ذلك لم تفلح جهود البابوية في حمل التجار الأوروبيين على مقاطعة دولة المماليك اقتصادياً، ذلك أن القوى التجارية في غرب أوروبا أدركت مدى الخسائر التي عادت عليها نتيجة حرمانها من التجارة مع مصر، وتحايلت بمختلف الطرق لاستئناف نشاطها التجاري مع موانئ دولة المماليك كالإسكندرية ودمياط وبيروت وغيرها[٣]. بمعنى آخر طغيان روح الكسب على الوازع الديني لدى هؤلاء التجار الأوروبيين فضلاً عن الجهود العظيمة التي بذلها المماليك لتحطيم هذا الحصار الاقتصادي بالترحيب وتسهيل معاملات التجار الأوروبيين ومنحهم الامتيازات التجارية[٤].

وعلى الرغم من وجود علاقات تجارية بين المدن الأوروبية ودولة المماليك[٥] إلا أن ذلك لم يمنع من حدوث غارات على الموانئ المملوكية. وتزعمت جزيرة قبرص سياسة الحصار الاقتصادي على دولة المماليك وشن ملوكها حرباً على التجار الأوروبيين الذين ظلوا يتاجرون مع دولة المماليك، فكانت السفن القبرصية تتربص لهم في طريق الذهاب والعودة من مصر والشام وتفتك بهم[٦]، حتى أن الملك القبرصي بطرس الأول لوزنيان قام بحملة على الإسكندرية سنة

---

[١] المنصوري، زبدة الفكرة، ص٢٨٠. أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٣٦٠. عطية، إمارة أنطاكية، ص٤٩٣.

[٢] اليوزبكي، تجارة مصر، ص٦٢.

[٣] شبارو، تاريخ المشرق، ص٣٦١-٣٦٢.

[٤] اليوزبكي، تجارة مصر، ص٦٢-٦٣.

[٥] النويري، الإلمام، ج٢، ص١٣٧. غوانمة، دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين في العصر الاسلامي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨٣م، ص٢٣٦.

[٦] ابن يحيى، تاريخ بيروت، ص٧٢. نيدس، تاريخ قبرص، ص٩٧.

٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م على حين غفلة فقتل المسلمين، ونهب المنازل والحوانيت وخـرّب المبـاني، وانتهك الحرمات وحوّل المدينة إلى حالة رديئة من الدمار والخراب[١].

ويبدو أن الملك القبرصي بطرس الأول لوزنيان لم يخبر البندقية – وهي أشهر المـدن الأوروبيـة تجارةً في ذلك الوقت – بوجهة هذه الحملة في بداية الأمر خوفاً من اتصالهم بالمماليك واخطارهم بـها[٢]، ولكن على الرغم من ذلك، فإن البنادقة بما عرف عنهم من ذكاء تمكنوا من معرفة غرضها وبأنها متجهـة إلى مصر، لذلك أخطروا الملك بطرس بذلك، وحصلوا منه على تعهد بألا تطأ أقدامه أرض مصر قبـل نهاية شهر أكتوبر – أي بعد أن تنتهي قافلتهم من حمل التجارة، ولكنهم اشتكوا بعد ذلك بأنه قد أغـار على الإسكندرية قبل ذلك بثلاثة أسابيع من الاتفاق[٣].

نلاحظ من ذلك مدى حرص البنادقة على اتمام تجارتهم مع المماليك قبل الشروع بالحملـة حتى أن المماليك أنفسهم كانوا بانتظار وصول قوافلهم على شواطئ الإسكندرية في ذلك الوقـت. وحول ذلك يذكر النويري أن أهل الإسكندرية عندما رأوا أساطيل الملك القبرصي حسبوهم التجار البنادقة على جاري عادتهم في كل سنة[٤]. ومع أن البنادقة شاركوا فـي هـذه الحملـة بأربعـة وعشرين غراباً[٥]. إلا أن مشاعرهم كانت تفيض بالبهجة والسرور عند اقلاع الأسطول القبرصي من الإسكندرية عائداً إلى قبرص حتى يستأنفوا نشاطهم التجاري من جديد[٦].

---

[١] النويري، الإلمام، ج٢، ص١٥٩، ١٦٤، ١٦٦، ١٧١-١٧٢، ٢٠٧. الشهابي، الأمير حيدر، الغرر الحسان في تاريخ حوادث الزمان، مخطوط مصوّر ميكروفيلم رقم (٧٥٤)، مركز الوثائق والمخطوطات، مكتبة الجامعـة الأردنية، ج١، ورقة ١١.

[٢] Atiya. The Crusade in the Later Middle Ages, P. 352.

[٣] Luke. Op. Cit, P. 356.

[٤] الإلمام، ج٢، ص١٣٧.

[٥] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٠٧.

[٦] Luke. Op. Cit, P. 357.

ومما يؤكد اشتراك البندقية اشتراكاً تاماً في هذه الحملة الخطاب الذي بعث به تبرارك إلى بوكاشيو[١] يؤكد له فيه "أن الهجوم على الإسكندرية بقيادة ملك قبرص يعتبر نصراً ساحقاً، ولكن الرفاق البنادقة الذين صاحبوه في الحملة خذلوه لأن صحبتهم له كانت نابعة عن طمع، وليس عن تقوى، فتركوه وهو في منتصف مشروعه وغادروا المدينة بعد سلبهم ونهبهم ليثبطوا همته بينما أرضوا جشعهم وحبهم للمال"[٢]. على أثر حملة الملك بطرس الأول على الإسكندرية. أصدر السلطان الأشرف شعبان منشوراً إلى نائب السلطنة بالشام بالقبض على نصارى بلاد الشام مرة واحدة، وأن يأخذ منهم ربع أموالهم ليصرف على إعادة بناء الإسكندرية جراء الخراب الذي خلفه القبارصة فيها[٣]. كما أصدر مرسوماً آخر يمنع به التعامل نهائياً مع "الفرنج والبنادقة والكتلان"[٤] ذلك لأن السلطان الأشرف شعبان قد اتهم البنادقة بأنهم المحرضون على هذه الحملة لأنها قدمت في ميعاد قدوم قافلة الإسكندرية.

وكان رد الفعل لهذه الهجمة أن تأثر قطاع التجارة تأثيراً كبيراً، حيث منع التجار الأوروبيين من مزاولة أعمالهم التجارية في الموانئ المملوكية[٥]، وبذلك شلت العلاقات الاقتصادية لكلا الجانبين. لكن حكومات المدن الأوروبية اجتهدت في ايفاد الرسل والسفراء إلى البلاط المملوكي من أجل تمكين تجارهم من القدوم إلى الموانئ المملوكية واستئناف العملية

---

[١] بترارك. هو فرانسيسكو بترارك الشاعر الايطالي الذي توفي سنة ٧٧٢هـ/ ١٣٧٤م. أما بوكاشيو فهو جيوفاني بوكاشيو الكاتب الإيطالي الذي توفي سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٧م. عن ذلك أنظر Setton, Op. Cit. Vol,3. P 794.

[٢] Luke, Op. Cit. P 357-358.

[٣] ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٣١٤. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٠٧.

[٤] ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٣٢٣.

[٥] ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٣٤٥. رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ص٧٥٠. عنان، محمد عبدالله، مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٩٦٩م، ص١٦٢.

التجارية المعهودة[1]. ووصلت إلى الإسكندرية عقب الواقعة في رجب سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م قرقورتان[2] بهما تجارة كثيرة للكتلان[3] لكنهم خافوا أن ينزلوا بضائعهم خشية غضب الأهالي وطالبوا مقابل إنزالهم للبضائع بعض رهائن المسلمين حتى يضمنوا سلامتهم. ثم أعقب هاتين القرقورتين قرقورة أخرى فيها رسل دوق كاتالونيا طالبين مقابلة السلطان شعبان ليؤدّوا رسالتهم اليه، وأكدوا شرط أصحابهم بضرورة أخذ رهائن، وكذلك صادف في هذه الآونة وصول وفد البندقية وهؤلاء أيضاً طالبوا برهائن حتى يتمكنوا من إبلاغ رسالتهم إلى السلطان. ولمسايرتهم أمر بإحضار بعض المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام بعد أن ألبسوا أفخر اللباس وسلموهم إلى هؤلاء الكتلان والبنادقة كرهائن، وأرسل بعض النساء والأطفال يبكون خلفهم كأنهم عائلاتهم فنجحت الحيلة ونزلوا من مراكبهم وحملوا إلى قلعة الجبل[4].

ولعل من العجيب أن نرى البنادقة الذين شاركوا بكل ثقلهم في حملة الإسكندرية يرسلون رسلاً إلى السلطان الأشرف شعبان يؤكدون له أن السفن التي أغارت على الإسكندرية لا تمت للبندقية بصلة، وأنهم بريئون مما حدث، وأنهم لم يساعدوا الملك بطرس ولم يشتركوا معه[5]. وتعهدوا للسلطان شعبان بأنهم سيواصلون الضغط على الملك بطرس حتى يعيد الأسرى المسلمين الذين أسرهم من الإسكندرية، وأعربوا له عن استعدادهم على تزويده بالمال اللازم مقابل السماح

---

(1) هايد، تاريخ التجارة، ج٢، ص٢٨٦. الحجي، العلاقات، ص٢٥٨. Setton: Op, cit., Vol.1. P. 273.

(2) القرقورة: مركب مهمته حمل البضائع وله أحياناً ثلاثة طوابق ولا يرسو إلا في المكان الغزير الماء. النويري، الإلمام، ج٢، ص٢٣٤.

(3) الكتلان أو الكتيران هم أهل كاتالونيا الإسبانية. عنان، مصر الإسلامية، ص١٦٢.

(4) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١١٨. القاضي عبد الباسط، نيل الأمل، ج١، ورقة ٨٠/أ.

(5) عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص١٢٠٦.

لهم بتجديد الصلح بينهما، وأن يسمح لتجارهم من مزاولة أعمالهم وتجارتهم في ميناء الإسكندرية، وأن تفتح كنيسة القيامة بالقدس كونها أغلقت منذ الحملة القبرصية على الإسكندرية[1].

أجابهم السلطان الأشرف شعبان بأنه لا بد من الانتقام من الملك القبرصي بطرس وتدمير جزيرته عقاباً لما فعله بمدينة الإسكندرية.

وبذلك يظهر لنا بصورة يقينية انقطاع العلاقات السياسية والدبلوماسية وكذلك الاقتصادية بين المماليك والمدن التجارية الأوروبية كنتيجة حتمية لإغارة الصليبيين على الإسكندرية، بعد رفض السلطان شعبان وأتابكه الأمير يلبغا العمري لمطلب الرسل البنادقة والكاتالونين، بل اشترطا عليهم أن يبدأ الملك القبرصي بطرس لوزنيان بطلب الصلح وأن يرد أسرى الإسكندرية قبل كل شيء في أسرع وقت كشرط أساسي للدخول في المفاوضات[2].

كذلك قدم إلى القاهرة في سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م وفد دوق جنوة، ومعهم ستون أسيراً من أهل الإسكندرية وهدية للسلطان الأشرف شعبان وأخرى للأمير يلبغا العمري. وقد ذكر الوفد أن هؤلاء الأسرى كانوا من نصيب دوق جنوة وأنه لم يعلم بحملة القبارصة على الإسكندرية إلا بعد وقوعها وأنه سيظل وفياً لعهد الصلح المبرم بينهما، ويتعهد دوقهم بأنه متى تمكن من القبض على الملك بطرس فإنه لن يتوان في قتله. ويستعطف السلطان شعبان بالسماح لتجارهم من مزاولة تجارتهم بمدينة الإسكندرية كما كانت سابقاً[3].

---

(1) القاضي عبد الباسط، نيل الأمل، ج١، ورقة ٨٣/أ. سالم، تاريخ الإسكندرية، ص٣٥٦.

(2) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١١٩. هايد، تاريخ التجارة، ج٢، ص٢٨٦.

(3) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٢٢-١٢٣، ١٤١. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٣٦. الحجي، العلاقات، ص٢٦٢.

وبالرجوع إلى الوفد البندقي فإنه بعد عودتهم إلى بلادهم توجهوا إلى قبرص لمقابلة الملك بطرس لاقناعه في الدخول بمفاوضات الصلح مع دولة المماليك. فوجدوه يستعد لغزو بيروت نظراً لأهميتها بالنسبة لقبرص، وليفي بوعده مع البابا أوربان، لذلك تقابل البنادقة مع الملك بطرس الأول وأخبروه بما تم مع السلطان شعبان والشروط التي اشترطها عليهم[1]، وأنّبوه على تصرفاته، وبينوا له أنه بمثل هذه التصرفات سيحطم البندقية كليةً، لأن حياتهم متوقفة على التجارة مع مصر وبلاد الشام، وطالبوا منه منع الحملة الموجهة ضد بيروت، والكف عن أي عمل عدائي ضد السلطان شعبان، وطالبوا منه عقد اتفاقية سلام مع السلطان المملوكي حتى يتمكنوا من الحصول على متاجرهم وتجارتهم بمصر وبلاد الشام في أمان، وله بعد ذلك أن يفعل ما يحلوا له، كما تعهدوا بتعويضه عن الخسائر التي نتجت عن الاستعداد لهذه الحملة. فرد عليهم الملك بطرس بالايجاب إذا كان في ذلك مصلحة لهم ولتجارتهم[2].

عاد وفد البندقية مرة أخرى إلى القاهرة لمقابلة السلطان الأشرف شعبان لطلب الصلح مجدداً وشرحا له موقف الملك بطرس، وأنه على استعداد للتفاوض، وعقد اتفاقية سلام معهم. عندئذ قبل السلطان الأشرف شعبان البدء بمفاوضات الصلح، وأعد سفارة مزودة بالهدايا للتوجه إلى قبرص في صحبة البنادقة، ثم توجهت السفارة إلى هناك وحظيت بمقابلة الملك بطرس الذي

---

(1) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٢٢-١٢٣. حبشي، هجوم القبارصة، ص٢٣.

(2) القاضي عبد الباسط، نيل الأمل، ج١، ورقة ٨٣/أ. سالم، تاريخ الإسكندرية، ص٣٥٦.

.Luke, Op. Cit.P. 358

قابلهم بحفاوة وترحيب، ورد على السلطان شعبان بسفارة مماثلة محمّلة بالهدايا وأقلعت على سفن البندقية[1]، مما يبين مدى حرص البنادقة على عودة العلاقات الطيبة مع دولة المماليك.

استمر البنادقة يقومون بدور الوسيط فيما بين قبرص ومصر، وقد طلب السلطان الأشرف شعبان في رسالته إلى الملك بطرس ضرورة إعادة الأسرى المسلمين الذين أسرهم بطرس أثناء حملته على الاسكندرية، فلما وقف الملك بطرس على رغبة السلطان شعبان سارع إلى تلبيتها وأمر بإحضار من بقي لديه من الأسرى إلى مصر على زورق خاص[2].

ظهرت نوايا السلطان شعبان بعد عودة الأسرى إلى مصر، وبأنه كان يتخذ هذا المطلب كوسيلة لتحقيق غرضه من غزو قبرص نفسها لأنه لم ينس المصيبة التي حلت بهم من جراء حملة الملك بطرس، والعجيب أن البندقية بدأت في امداد السلطان شعبان بالأخشاب اللازمة لبناء السفن من أجل تحقيق خطته[3].

أخبر البنادقة دوق بلادهم بأن هناك مفاوضات سلام بين سلطان مصر والقبارصة. فلما وصلت هذه الأنباء إلى البابا وحكام الغرب خلعوا ايديهم عن مساعدة قبرص، وعن القيام بالحملة التي كانوا يعدونها لغزو الأراضي المقدسة[4].

وبذلك اطمأن السلطان الأشرف شعبان والأمير يلبغا العمري بأن حملة الغرب قد وئدت في مهدها، وعاد كل ملك من ملوك أوروبا إلى موطنه، وادعى السلطان الأشرف شعبان بأن الملك بطرس لم يبعث اليه بسفراء من الطبقة العليا كما اعتاد من قبل، ولهذا رفض عقد الاتفاقية، بل قبض على السفراء

---

(1) سالم، تاريخ الإسكندرية، ص٣٥٩. Luke, Op. Cit.P. 358.

(2) Atiya. The Crusade in the Later Middle Ages, P. 372.

(3) Atiya. The Crusade of the Fourteenth Century, Vol.3, P. 18.

(4) حبشي، "هجوم القبارصة"، ص٢٤.

وسجنهم وطلب محاصرة سفن البندقية الموجودة بميناء الإسكندرية، ولكن قائدها تمكن من الـــهرب إلـــى قبرص[١].

وظن البنادقة أن الإتفاق قد تم بين دولة المماليك وقبرص، لذا أعدوا ثلاث قوافـــل كبـــيرة عليها سبعون تاجراً سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م، وتوجهوا إلى الشام ببضائعهم وأموالـــهم، وعندمـــا وصلت القوافل إلى بيروت استقبلهم أهلها استقبالاً حسناً لأنهم كانوا تواقين إلـــى المتـــاجرة مـــع البنادقة، وعندما نزل البنادقة إلى بيروت أمر أميرها بالقبض عليهم، ومصادرة بضائهم، ووضـــع جميع التجار في السجون، وتمكن باقي البنادقة الموجودين في السفن من الهرب إلى قبرص[٢].

أما في الإسكندرية، فقد وصل إلى مينائها في خريف سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م خمس ســـفن بندقية لمعاودة المتاجرة مع المماليك، ولكن السلطان الأشرف شعبان شك فـــي وجـــود عنـــاصر قبرصية على ظهر السفن، بل في الحقيقة أنه كان هناك سفينة بأكملها من هذه السفن تابعة للملـــك بطرس لوزنيان[٣]. وطلب السلطان الأشرف شعبان تسليم هؤلاء القبارصة، ولكنهم رفضوا ونتـــج عن ذلك معارك واشتباكات، واستغل السلطان الأشرف شعبان هذا الحدث للوقوف ضد البنادقـــة الذين وعدوه من قبل أن يكونوا أصدقاء له، بينما كانوا يتحالفون مع أعدائه، لذلك أمـــر بـــالقبض على كل "من يجدونه في أراضيه"[٤]، وهكذا قبض على ستة وأربعين من أهـــالي البندقيـــة فـــي

---

[١] حبشي، هجوم القبارصة، ص٢٥.

[٢] هايد، تاريخ التجارة، ج٢، ص٢٨٦-٢٨٨.

[٣] ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٣٢٣. هايد، تاريخ التجارة، ج٢، ص٢٨٧.

[٤] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٥٦.

بيروت، كذلك لقي عدد آخر نفس المصير في طرابلس وبقي في السجن كل من قبض عليهم بأمر السلطان الأشرف شعبان[1].

أعد الملك بطرس الأول خطة جديدة لغزو سواحل بلاد الشام للانتقام من السلطان الأشرف شعبان، وقد شاركه في حملته هذه على حد قول النويري "جنوية وبندقية ورودسة وفرنسيسة وكان للبنادقة ثلاثون غرابا"[2] وتوجهوا إلى طرابلس، ولكن حملتهم عليها فشلت، وفروا بعد ذلك إلى جزيرة أرواد[3].

وكان لمشاركة السفن البندقية للملك بطرس في هجومها على السواحل الشامية وقع على السلطان الأشرف شعبان الذي اضطر إلى إصدار أوامره بمنع الأجانب من دخول مصر "حتى تأتي بقية أسرى الإسكندرية من قبرص"[4] بل أنه قبض على بعض التجار البنادقة الذين قدموا للمتاجرة متجاهلين هذا القرار[5]. ورداً على ذلك بعث البنادقة والجنوية رسلهم إلى البابا يقدمون الشكوى ضد الملك بطرس الأول، الذي عمل على توتر العلاقات بينهم وبين السلطان الأشرف شعبان، وحاولت البندقية وجنوة الاستعاضة عن أسواق مصر والشام بالاتجاه إلى العراق، ولكن السلطان أويس بن حسن رفض المتاجرة معهم احتراماً لشعور المماليك[6].

---

(1) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٤٩-١٥٠. ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٥٢-٥٣.

(2) الالمام، ج٢، ص٢٣٠.

(3) ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٢٢٢.

(4) النويري، الإلمام، ج٢، ص٦٨.

(5) المصدر نفسه، ج٢، ص٦٨.

(6) المصدر نفسه، ج٢، ص٨٢.

وفعلاً استطاعت البندقية وجنوة اقناع البابا بالسماح لهم بارسال مبعوثيهم إلى مصر لاستئناف مفاوضات الصلح بعد شرائهم تصاريح من البابوية تبيح لهم التعامل مع دولة المماليك[1].

وتعددت السفارات بين مصر وقبرص على يد المبعوثين البنادقة والجنوية لفترة طويلة من أجل عقد اتفاقية السلام، وإعادة الأسرى المسلمين الموجودين بقبرص، ولكن هذه المباحثات تخللها عقبات كثيرة من جانب المماليك والقبارصة، وقد بذل البنادقة والجنوية جهوداً كبيرة في سبيل التوصل إلى نتيجة لهذه المباحثات حتى انتهى الأمر إلى ارسال السلطان الأشرف شعبان مبعوثين من قبله إلى قبرص يصحبهم البنادقة وقابلهم الملك بطرس الثاني لوزنيان بترحيب.

وبينوا له دور البندقية وجنوة في عودة العلاقات الطيبة بين مصر وقبرص. وأخيراً وقعت معاهدة الصلح بين دولة المماليك من ناحية، والبندقية وجنوة ورودس من ناحية أخرى سنة ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م[2].

وهكذا ألح البنادقة والجنوية في الصلح على الملك بطرس لوزنيان من ناحية وعلى السلطان الأشرف شعبان من ناحية أخرى؛ وبفضل وساطتهم تم الصلح بين الطرفين، وعندئذٍ أخذت التجارة تعود إلى ما كانت عليه بين قبرص والبندقية وجنوة وقطالونيا من ناحية ومصر والشام من ناحية أخرى، وأخذت سفن الأوروبيون تفد إلى الإسكندرية بكثرة واطمئنان"[3].

ويبدو أن هذا المجيء السريع لهؤلاء السفراء البنادقة والجنوية والقطلونيين – في أعقاب حادثة الاعتداء على مدينة الإسكندرية لا يفسره سوى حرص بلاط هذه المدن التجارية على إرساء قواعد روابط المودة، والثقة مع دولة المماليك حسبما كان عليه الوضع سابقاً. فطالما

---

[1] هايد، تاريخ التجارة، ج٢، ص٢٨٨.

[2] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٨٩-١٩٠. حبشي، هجوم القبارصة، ص٣٤. هايد، تاريخ التجارة، ج٢، ص٢٨٩.

[3] عاشور، مصر والشام، ص٣٩٦.

حرصوا على المبادرة بتأكيد العلاقات الطيبة مع المماليك لما يتضمنه هذا الوضع من المنافع الجليلة لهذه المدن في مختلف المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

كذلك اهتم السلطان الأشرف شعبان بتشجيع التجارة مع الأقطار الشرقية، فسهّل على التجار سبيل السفر إلى بلاد التكرور والحبشة واليمن والهند والصين. فالمنتجات التجارية الشرقية كانت تصل إلى دولة المماليك عن طريق البحر الأحمر، وقد حصل المماليك على ثروات طائلة من جراء التبادل التجاري بين الشرق والغرب. كذلك حصل بعض التجار من وراء التبادل التجاري مع الأقطار الشرقية على ثروات ضخمة؛ ويحدثنا المقريزي[1] أن ناصر الدين محمد بن مسلم الكارمي[2] (ت ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م)، "رزق الحظ الوافر في التجارة وفي تجارة العبيد، فكان يبعث أحدهم بمال عظيم إلى الهند، ويبعث آخر بمثل ذلك إلى بلاد التكرور، ويبعث آخر إلى بلاد الحبشة، ويبعث عدة آخرين إلى عدة جهات من الأرض، فما منهم من يعود إلا وقد تضاعفت فوائد ماله أضعافاً مضاعفة".

نستدل من مقولة المقريزي عن التاجر الكارمي ابن مسلم أن التجارة المملوكية في عهد السلطان الأشرف شعبان كانت حافلة بالنشاط والحيوية رغم الظروف الصعبة التي مرت بها البلاد نتيجة حالة الحرب والعداء مع أوروبا واضطرابات الدولة الداخلية. ونلاحظ أن تجارة الكارم والتي انتشرت تجارتها بشكل واسع آنذاك قد أكسبت التجار أموالاً كثيرة، حتى أنهم أقلموا

---

(١) الخطط، ج٢، ص٤٠١.

(٢) ناصر الدين محمد بن مسلم الكارمي من أكبر تجار القاهرة وقد خلّف أموالاً كثيرة من التجارة ومن العمل بالكيمياء بحيث إنه لم يكن أحد من أهل عصرة أكثر منه مالاً. والكارمي نسبة إلى تجارة الكارم، وهي ما كان يجلب من الهند من البهار والفلفل وغيرها. ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص١٠٧. وانظر البقلي، التعريفات، ص٧٣.

لأنفسهم العديد من الفنادق والمراكز التجارية على طول طرق تجارتهم، فكانت لهم محطات تجارية في الإسكندرية والفسطاط وعدن وتعز وزبيد[1]. وكوّن الكارمية فيما بعد نقابة لهم ورئيساً معترفاً به من قبل الدولة عُرف برئيس الكارمية[2].

ووصل تجار الكارم بعد ازدهار تجارتهم إلى درجةٍ من الثراء والجاه بحيث صاروا أكثر تجار مصر يساراً[3]، ويدل على ذلك حجم الثروات التي خلّفها رؤساؤهم وكبار تجارهم.

ومن مقدار الرسوم أو الجمارك التي كانوا يدفعونها إلى ديوان بيت المال، فكبير التجار في القاهرة ابن مسلم دفع إلى الديوان خمسين ألف دينار في سنة ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م كضريبة على بضائعه ومتاجره مما يظهر المستوى الإجتماعي العالي الذي وصل إليه هؤلاء التجار حتى صاروا يضاهون الأمراء والمماليك في نمط المعيشة من حيث حياة الترف والتبذير[4].

وتجدر الإشارة إلى أن دولة المماليك في عهد السلطان الأشرف شعبان كانت تفرض رسوماً جمركية على مرور السفن المحملة ببضائع الشرق والغرب عبر ثغورها وموانئها، وبلغت هذه الرسوم خُمس بضائعهم[5]. ولذا تنوعت السلع التجارية وتعددت مصادرها، فبالإضافة إلى السلع التي تم تداولها بين النيابات المملوكية، فقد راجت في الأسواق المملوكية تجارة الجوخ

---

(1) الأسدي، محمد بن محمد بن خليل، (ت ٨٥٤هـ/ ١٤٥٢م)، التيسير والاعتبار والتحرير والاختيار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار، تحقيق عبد القادر طليمان، دار الفكر العربي، بيروت، ص٨٥. ضومط، الدولة المملوكية، ص٢١٣.

(2) المقريزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٣٤٠. فهمي، طرق التجارة، ص١٤٣.

(3) المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٧٢٩. الأسدي، التيسير، ص٨٥.

(4) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٧٤. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٩٠.

(5) المقريزي، الخطط، ج٢، ص١٠٢. سرور، دولة بني قلاوون، ص٣٤٦.

والبز[1] والتي استورد قسم منها من اليمن والعراق[2]. وجلب المسك والعنبر والعود إلى الأسواق المملوكية من الهند واليمن والمغرب والأندلس[3]. وازدهرت تجارة التوابل والبهارات من الهند واليمن إلى الأسواق المملوكية[4]. كما تم استيراد الخشب والرصاص والقصدير والزعفران من البندقية وجنوة[5]. والحديد والفضة والخشب والبخور واللوز من مناطق متعددة ذكر النويري أنها كانت من أنطاكيا والقسطنطينية وبلاد الإفرنج وشمال أفريقيا والأندلس وقبرص ورودس[6].

### ج- الأسواق التجارية:

مما لا شك فيه أن المدن المملوكية كانت كثيفة السكان عامرة المنشئات وخاصة المنشئات الاقتصادية كالقياسر والخانات والفنادق والأسواق، فابن بطوطة يتحدث عن وجود أسواق في كل أرجاء شاطئ النيل، فلا يحتاج المسافر إلى زاد أو عتاد يحمله معه[7].

وقد اختلفت الأسواق في الدولة المملوكية تبعاً للسلع التي تباع فيها والزمن الذي تقام فيه، فهناك أسواق تجارية عامة لكافة أنواع السلع، وأسواق متخصصة بسلعة معينة، وأخرى دورية تقام في يوم معين من أيام الأسبوع[8]، وأسواق مؤقتة تقام عند المناسبات والأعياد الدينية والاحتفالات[9].

ففي القاهرة مثلاً العديد من الأسواق التجارية التي تحتوي على شتى أنواع المتاجر ومنها: الحوانيت الممتدة بين الحسينية ومشهد السيدة نفيسة والتي احتوت على اثني عشر ألف حانوت،

---

[1] ابن كثير، البداية، ج١٤، ص١٦٧. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢٦٢-٢٦٣.

[2] ابن حجر، الدرر، ج٤، ص١٥٨.

[3] النويري، نهاية الأرب، ج١، ص٢٠-٢٣.

[4] المقريزي، السلوك، ج٢، ق٣، ص٧٢٥. الفاسي، العقد الثمين، ج٤، ص١٤٥، ٤٥٤.

[5] النويري، الالمام، ج٤، ص٨٢٧.

[6] الالمام، ج٤، ص٨٢٧.

[7] الرحلة، ج١، ص٢٠١.

[8] المقريزي، الخطط، ج٢، ص٩٥-٩٧.

[9] المقريزي، السلوك، ج٢، ق١، ص٢٦١. ابن إياس، بدائع، ج٤، ق١، ص٢١٤-٢١٥.

ويذكر المقريزي بأن حوانيتها غاصّة بأنواع المآكل والمشارب والأمتعة[١]. ومنها وكالة الأمير قوصون[٢] والتي دهش من رؤيتها المقريزي لكثرة ما فيها من البضائع والباعة والعتالين. ومنها السوق الذي بين القصرين وأيضاً سوق باب الفتوح الشامل[٣] الذي يحتوي على حوانيت القصّابين والخضريين وغيرهم، وسوق حارة برجوان[٤] الذي يحتوي على حوانيت تبيع كافة أنواع السلع[٥] أما النيابات الشامية فقد احتوت مدنها على أسواق شاملة، وتجمعت هذه الأسواق حول القلعة وقرب الأبواب الرئيسية للمدينة كما في دمشق وحلب، وكانت تحتوي على جميع أنواع البضائع[٦].

وفي القدس تمركزت الأسواق حول المسجد الأقصى وتميزت بسقف فيه فتحات لدخول نور الشمس وللتهوية[٧]، منها سويقة أمير الجيوش وفيها حوانيت متعددة[٨]، وقيسارية ابن ميسر[٩] الكبرى وسوق الشرابشيين وسوق الدجاجين وسوق باب الزهومة وسوق الشماعين وغيرها[١٠].

---

(١) الخطط، ج٢، ص٩٥.

(٢) هذه الوكالة في معنى الفنادق والخانات ينزلها التجار ببضائع بلاد الشام وموضعها فيما بين الجامع الحاكمي ودار سعيد العداء. المصدر نفسه، ج٢، ص٩٣.

(٣) هذا السوق في داخل باب الفتوح. المصدر نفسه، ج٢، ص٩٥-٩٦.

(٤) حارة برجوان: إحدى حارات القاهرة الموجودة داخل السور وتعرف هذه الحارة ببرجوان الخادم أحد خدّام العزيز بالله الفاطمي. القلقشندي، صبح، ج٣، ص٤٠١. المقريزي، الخطط، ج٢، ص٣٧٣.

(٥) المقريزي، الخطط، ج٢، ص٩٥.

(٦) ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص٤٤، ٥٧، ٢٤٨. ابن كنّان، المواكب الإسلامية، تحقيق حكمت اسماعيل، منشورات وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية، دمشق، ١٩٩٣م، ق٢، ص٥٨.

(٧) الحنبلي، الأنس الجليل، ج٢، ص٥٠-٥٢. غوانمة، نيابة بيت المقدس، ص٨١.

(٨) المقريزي، الخطط، ج٢، ص١٠١. الحجي، حياة ناصر، أسواق القاهرة في القرنين الثامن والتاسع للهجرة/ الرابع عشر والخامس عشر للميلاد، بحوث ودراسات في التاريخ العربي، تحرير ناظم كلاس، دمشق، سوريا، ص١٠٢.

(٩) موقعها في خط سويقة وردان يباع فيها الكتان. المقريزي، الخطط، ج٢، ص١٠٣.

(١٠) المقريزي، الخطط، ج٢، ص٩٣-٩٩. للمزيد حول الأسواق المملوكية أنظر قاسم، قاسم عبده، "الأسواق بمصر في عصر سلاطين المماليك" مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلدان ٣٦-٣٧، ج١، ج٢، مايو ١٩٧٤م – مايو ١٩٧٥، ص١٠١-١٢٧.

أما في دمشق فقد تنوعت اختصاصات أسواقها كسوق القمح وسوق الفاكهة وسوق النحـاس وسوق الكتان والقماش[1]. وبالنسبة لحلب ففيها سوق للزيت وآخر للسمك وثالث للحناء وللفحم[2]، وفي طرابلس والقدس كذلك.

ولعل من أهم المراكز التجارية فائدة ونشاطاً في الدولة المملوكية القيساريات، فهي أسـواق متخصصة في بيع سلعة محددة وتميزت بأنها مسقوفة، مما يعني استمرار نشاطها طيلة العام، فلا يعيق ازدهارها التجاري حرّ الصيف ولا برد الشتاء ومطره[3]. ولها أبواب تغلق ليلاً ولها حراس يحرسونها وعرفاء ينظمونها[4]. ومنها ما انفرد بأنواع معينة من البضائع والسلع حتى اكتسـبت شهرة واسعة، ومنها قيسارية ابن ميسر الكبرى المتخصصة بالقماش، ويرد عليها تجار القـاهرة يومي الأحد والأربعاء لشراء ما فيها من قماش جديد[5].

ومن القيساريات التي استجدت في عهد السلطان الأشرف شعبان قيسارية خصصت للأقمشة في دمشق. واكتمل بناؤها سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م، وموقعها شرقي الجامع الأموي وجنوب سـوق الدهشة[6] المخصص للرجال، وقد افتتحت وأجّرت دكاكينها بألف ومائتي درهم شـهرياً لتجـار القماش[7]. أيضاً تم انجاز بناء دهشة جديدة خصصت للنساء، قام ببنائها نائب دمشق الأمير منكلي بغا الشمسي وجعلها وقفاً على الجامع الأموي[8].

---

(1) البدري، نزهة الأنام، ص٦٢-٦٣.

(2) ابن الشحنة، الدر، ص٢٤٨-٢٥١.

(3) المقريزي، الخطط، ج٢، ص٩١، ١٠١، ١٠٥.

(4) ابن دقماق، الانتصار، ج١، ص٣٧. المقريزي، الخطط، ج٢، ص١٠١-١٠٢.

(5) المقريزي، الخطط، ج٢، ص٩١.

(6) الدهشة لفظ عربي يعني القيسارية أو الخان أو الوكالة حيث يبالغ في تحسينها حتى تصير مدهشة فهي مكـان لتجارة في سوق تجاري مبالغ في زخرفته. دهمان، معجم، ص٧٦.

(7) ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٣٣٤. ابن قاضي شهبة، تاريخ، م٣، ص٢٦٢.

(8) ابن قاضي شهبة، تاريخ، م٣، ٢٦٣.

وتعد القيسارية التي أنشاتها أم السلطان الأشرف شعبان خوند بركة سنة ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م من أفخم وأعظم القيساريات المستجدة في عهد السلطان الأشرف شعبان وقد سميت بقيسارية الجلود. وموقعها بخط الركن المخلق في ضواحي القاهرة واختصت ببيع الجلود. كذلك بنت فوق سطحها ربع ومساكن لسكن العامة والتجار وسمي هذا الربع باسم أم السلطان. وكانت القيسارية والربع من جملة أوقاف مدرستها التي بنيت في التّبّانة[١].

وفي نفس العام أنشأ الصاحب شمس الدين البهنسي قيساريته في دمشق بالقرب من سوق باب الزيادة، وتعد من أجمل قيساريات دمشق فخامة وترتيباً، حتى أن دكاكينها أجرت بخمسين ألف درهم سنوياً[٢].

وهناك منشآت ارتبطت بحركة البيع والشراء في الأسواق وكان لها تأثير كبير على تنشيط الحركة التجارية كالوكالات والفنادق والخانات[٣]. فالوكالة عبارة عن فندق ينزل فيه التجار الوافدون جالبين معهم بضائع متعددة حيث يعقدون صفقاتهم التجارية فيها بنظام الجملة، ومثال عليها وكالة الأمير قوصون التي احتضنت تجار الشام، فقد كانوا ينزلون بها ويخزّنون بضائعهم المختلفة في مخازنها لحين تصريفها[٤].

أما الخانات فأقيمت داخل الأسواق التجارية الكبرى وعلى الطرق التجارية كمحطات لنزول التجار ومخازن لبضائعهم، وكان الخان مجهزاً بعدة غرف خصص قسم منها للرجال وآخر للنساء، وقد سميت

---

(١) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢١٠.

(٢) ابن قاضي شهبة، تاريخ، م٣، ص٤١٢.

(٣) الحجي، أسواق القاهرة، ص١٠٩.

(٤) المقريزي، الخطط، ج٢، ص٩٣. الحجي، أسواق القاهرة، ص١٠٩.

الخانات بأسماء السلع التي تباع فيها كخان الحرير وخان الجوخ وخان الجواري وخان الزيت[1]، والبعض الآخر نُسب إلى الأشخاص كخان مسرور[2] المخصص لتجارة الرقيق، وخان الأمير منجك الذي أنشأه مقابل خان البيض في دمشق سنة ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م، فلما اكتمل بناؤه أجّره الأمير منجك للتجار والعامة بسبعة عشر ألف درهم سنوياً[3]. كذلك جدد نائب دمشق سنة ٧٧٣هـ/ ١٣٧١م بناء خان السبيل الموجود بالقابون بعد أن تصدعت جدرانه وسقوفه[4].

وألحقت بالأسواق التجارية فنادق للتجار بنيت على عدة طوابق، خصص الطابق الأرضي فيها لعمليات البيع والشراء وكمخزن للسلع التجارية، أما الطوابق العليا فخصصت لراحتهم ولمنامهم[5]. ومنها فندق دار التفاح[6] الذي احتوى على جميع أصناف الفاكهة، وفي هذا الفندق حوانيت لبيع الفاكهة، وفندق طرنطاي[7] الذي تخصص في استقبال تجار الزيت القادمين من الشام، وفندق القصب الذي يباع فيه قصب السكر وهو بالقرب من دار الرمان، وهو مُلكٌ للأمير منجك اليوسفي[8].

---

[1] غوانمة، نيابة بيت المقدس، ص٨٦-٨٨.الزيات، حبيب، "خانات دمشق"، "مجلة الشرق" السنة السادسة والثلاثون، كانون ثان – آذار، ١٩٣٨م، ص٦٧.

[2] خان مسرور: ينسب إلى الخادم مسرور وهو أحد خدّام السلطان صلاح الدين الأيوبي، المقريزي، الخطط، ج٢، ص٩٢.

[3] ابن قاضي شهبة، تاريخ، م٣، ص٣٤٥.

[4] المصدر نفسه، م٣، ص٣٩٨.

[5] المقريزي، الخطط، ج٢، ص٩٣-٩٤. ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص٥٨٠-٥٨١.

[6] هذا الفندق يقع تجاه باب زويلة يرد اليه الفواكه على اختلاف أصنافها. المقريزي، الخطط، ج٢، ص٩٣.

[7] هذا الفندق كان بخارج باب البحر ظاهر المقس وكان ينزل فيه تجار الزيت. المصدر السابق، ج٢، ص٩٤.

[8] ابن دقماق، الانتصار، ص٤٠.المصدر السابق، ج٢، ص٩٣-٩٤.

واتصفت الأسواق المملوكية بالتنظيم والترتيب، وبوجود الدلالين والسماسرة الذين يزاودون على السلع بقولهم (حراج حراج)، وتكون السلعة لمن يدفع بها سعرا أعلى[١].

## ٢- واردات الدولة (الضرائب):

تشكل الضرائب التي كانت تفرضها دولة المماليك أثناء فترة حكم السلطان الأشرف شعبان، كالخراج[٢]، والجوالي[٣] (الجزية)، وضريبة المعادن[٤]، وضريبة المبادلات التجارية[٥] (الرسوم الجمركية)، والزكاة[٦]، وضريبة المواريث الحشرية[٧]، وضريبة ما يتحصل من سك النقود[٨]،

---

[١] قاسم، قاسم عبده، عصر سلاطين المماليك، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٩٤م، ص٥٧. الحجي، أسواق القاهرة، ص١٠١.

[٢] الخراج: لغة يعني الغلة والأتاوة والحصة المعينة من المال يخرجها القوم في السنة. ابن منظور، لسان العرب، ج٣، ص٦٦. أما اصطلاحا فهو ما يوضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدى عنها. أنظر الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد البصري البغدادي، (ت ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥م، ص١٤٦. وأنظر ابن جماعة، بدر الدين، (ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م)، تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، تحقيق فؤاد عبدالمنعم أحمد، نشر رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، قطر، ط١، ١٩٨٥م، ص١٠٢-١٠٣.

[٣] الجوالي: وهي ضريبة الرأس التي تفرض على أهل الذمة وهي جزية موضوعة على رؤوس الأحرار العقلاء من أهل الذمة. الماوردي، الأحكام السلطانية، ص١٣٦. والجوالي تعني جاليات الذميين الذين أجلاهم عمر بن الخطاب عن الجزيرة العربية فأصبح هذا الاسم علما على الجزية. أنظر عاشور، سعيد عبدالفتاح وآخرون، دراسات في تاريخ الحضارة، الكويت، ١٩٨٥م، ص٣١٢.

[٤] وهي ضريبة ما يستخرج من المعادن كالزمرد والشب والنطرون. القلقشندي، صبح، ج٣، ص٥٢٧-٥٢٨.

[٥] وهي ضريبة تؤخذ عن التجارات الواردة على الثغور المتعددة في مصر والشام والحجاز. المصدر نفسه، ج٣، ص٥٣١.

[٦] الزكاة هي حق المال يؤديه المسلم من ذوي اليسار ليطهر ماله. النبراوي، فتحية، تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، جدة، ١٩٨٥م، ص١٤٢.

[٧] المواريث الحشرية هي مال من يموت وليس له وارث أو له وارث ولا يستحق كل ميراثه. القلقشندي، صبح، ج٣، ص٥٣٢. المقريزي، الخطط، ج١، ص١١١. الظاهري، زبدة، ص٩٠.

[٨] وهي ضريبة تؤخذ على التبر المجلوب من بلاد التكرور إلى مصر وعلى سك النقود من دور الضرب المملوكية المنتشرة بالمدن الكبرى. القلقشندي، صبح، ج٣، ص٥٣٣. المقريزي، الخطط، ج١، ص١١٠.

والمكوس أهم واردات الدولة. وشكلت هذه الضرائب عاملاً أساسياً في ارتفاع الأسعار، بسبب ارتفاع الضرائب التي كانت تفرضها الدولة على الأراضي والسلع التجارية وغيرها.

ومن خلال الإطلاع على المصادر المملوكية، يتضح لنا أن التغيرات التي طرأت على واردات دولة المماليك في عهد السلطان الأشرف شعبان قد اقتصرت على المكوس. في حين لم يطرأ أي تغير يذكر على باقي الواردات.

والمكوس ضرائب غير شرعية اتسمت بالكثرة والتنوع وعدم الثبات على حال. وتفرضها الدولة على مواطنيها نتيجة كثرة انفاقاتها المختلفة وقلة مصادر إيراداتها المالية وضعفها، وأحياناً تفرض بسبب أهواء بعض السلاطين بهدف جمع الأموال[1].

ومن هذه المكوس المال الهلالي الذي كان يدفع شهرياً مع حلول كل شهر عربي، بعكس الخراج الذي يجبى على حكم السنة الشمسية أو القبطية[2].

وشمل المال الهلالي أنواعاً عدة من المكوس مثل أجور الأملاك المسقفة من الدور والحوانيت والحمامات والأفران والطواحين وريع البساتين[3]، والبضائع التي تباع وتشترى في الأسواق[4]. والمياه والمصائد والذبائح وشتى أنواع الصناعات، وعلى الحجيج المسافرين والمراكب والأفراح والفواحش[5]. حتى المسجونين دفعوا رسماً معيناً قدّره المقريزي بستة دراهم[6].

ويذكر القلقشندي أن جهات المكوس قد تتجاوز السبعين جهة، وقد تحدد الدولة موظفين من الجنسين يسمّون الضمّان ومهمتهم تحصيل هذه الضرائب وايداعها في بيت المال[7].

وقد عد علماء تلك الفترة وفقهائها هذه المكوس باطلة شرعاً واستنكروها وطالبوا الحكام بإلغائها[8]. ومن المكوس التي أسقطت في عهد السلطان الأشرف شعبان مكس القطن المغزول سواء

---

(1) المقريزي، الخطط، ج١، ص١٦٦.

(2) المقريزي، الخطط، ج١، ص١٦٦-١٦٧. ماجد، عبدالمنعم، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٧٩م، ج١، ص٧٣.

(3) المقريزي، الخطط، ج١، ص١٧١-١٧٢.

(4) القلقشندي، صبح، ج٣، ص٥٣١.

(5) المقريزي، الخطط، ج١، ص٨٩ – السلوك، ج٢، ق١، ص١٥٠.

(6) المقريزي، الخطط، ج١، ص١٧١-١٧٢.

(7) صبح، ج٣، ص٥٣٨.

(8) ماجد، نظم، ج١، ص٧٣.

البلدي أو المستورد، وقد جاء به مرسوم سلطاني إلى دمشق في سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م، يقضي بإسقاطه. ويذكر ابن كثير أن الناس فرحوا كثيراً لهذا الإلغاء وأصبحوا يدعون للسلطان بالخير[١].

وأسقط الأمير يلبغا العمري مجموعة من الضرائب على السلع التي كانت تجلب إلى مكة المكرمة، كضريبة الحبوب والخضراوات والثمار والغنم والخشب، واستثنى ما يجلبه تجار الكارم من الهند ومكس تجار العراق ومكس الخيل[٢]. وعوّض أمير مكة الشريف عجلان بدلاً عن هذه الضرائب بمساعدات مالية قدرها مائة وستون ألف درهم وألف أردب قمح[٣].

وفي سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م أبطل السلطان الأشرف شعبان مكس المغاني ومكس القراريط. نتيجة إلحاح قاضي القضاة إبراهيم بن جماعة[٤] والشيخ سراج الدين البلقيني[٥]. فضمان[٦] المغاني عبارة عن ضريبة تجبى من البغايا وذلك أن إحداهن إذا أرادت احتراف البغاء، ذهبت إلى إمرأة تسمى "الضامنة" ودفعت لها مالاً معيناً مقابل عدم اعتراضها من أي موظف أو شخص من الدولة، أما مكس القراريط فعبارة عن ضريبة تؤخذ من كل من يبيع مُلكاً عن كل ألف درهم عشرون درهماً، وكان يجبى من جراء ذلك المال الكثير[٧].

وكثيراً ما حاول بعض الأمراء إعادة فرض المكوس، فالأمير ناصر الدين محمد بن أقبغا آص[٨] عزم على إعادة ضمان المغاني دون علم السلطان شعبان وذلك في سنة ٧٧٨هـ/

---

(١) البداية، ج١٤، ص٣٣٥. وأنظر ابن قاضي شهبة، تاريخ، م٣، ص٢٦٣.

(٢) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٢٤٩-٢٥٠. ابن فهد، إتحاف الورى، ج٣، ص٣٠٣-٣٠٤. الجزيري، الدرر الفرائد، ج١، ص ٦٦٣-٦٦٤.

(٣) الفاسي، العقد الثمين، ج١، ص١٩٦. دحلان، السيد أحمد زيني، أمراء البلد الحرام منذ أولهم في عهد الرسول (ص) حتى الشريف حسين بن علي، بيروت، ١٩٨١م، ص٥٠.

(٤) قاضي القضاة برهان الدين ابراهيم بن جماعة. توفي سنة ٧٩٠هـ/١٣٨٨م. ابن حجر، الدرر، ج١، ص١٨.

(٥) الشيخ سراج الدين عمر البلقيني. قاضي العسكر. توفي سنة ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م. المصدر نفسه، ج٣،

(٦) الضمان أو ضمناء جمع ضمن. وهم الملتزمون الذين يتولون لحسابهم جمع ضريبة من الضرائب أو رسماً مقرراً أو جهة من جهات الايراد، ويضمنون مقابل ذلك مبلغاً معيناً للدولة يتم الاتفاق عليه ويدفع إلى الجهات المختصة في أوقات منتظمة كل عام. المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٩٥٣، هامش رقم (١).

(٧) القلقشندي، صبح، ج٣، ص٥٣٩. المقريزي، الخطط، ج١، ص١٠٦- السلوك، ج٣، ق١، ص٢١٧. ابن حجر، إنباء، ج١، ص٥٨-٥٩.

(٨) الأمير ناصر الدين محمد بن أقبغا آص الإستادار، نفاه السلطان شعبان وولده إلى القدس. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢٦٨.

## - أنواع النقود:-

**أ- الدنانير الذهبية:** كانت الدنانير الذهبية تمثل احتياطياً للدولة يتم بها أو عن طريقها تقويم المبيعات وتقدير المرتبات ويدفع بها عمليات محددة خصوصاً فيما يتصل بالتجارة الخارجية مع الدول الأخرى[1]، وكان يكتب على أحد وجهي العملة الذهبية: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون"[2]. وعلى الوجه الآخر كُتب اسم السلطان وتاريخ الضرب[3].

والدنانير الذهبية كانت نوعين: الأول صادر عن دولة المماليك نفسها؛ أي مضروب على السكة الإسلامية، وهو ما عُرف بالذهب المصري، أو الدينار الذهب والعبرة في وزنها بالمثقال[4]. ففي سنة ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م ضرب الأمير صلاح الدين بن عرام دنانير بالإسكندرية، زنة كل دينار منها مثقال، على أحد الوجهين منها "محمد رسول الله"، وعلى الوجه الآخر "ضرب بالإسكندرية في الدولة الأشرفية شعبان بن حسين عزّ نصره"[5].

---

(1) كاشف، سيدة اسماعيل، دراسات في النقود الإسلامية، المجلة التاريخية المصرية، مج١٢، ١٩٦٤م، ص٨٧. فهمي، الوحدات النقدية، ص٢٧، ٣٠.

(2) القرآن الكريم، سورة التوبة، آية ٣٣.

(3) القلقشندي، صبح، ج٣، ص٥٣٤.

(4) المثقال يزن (٤,٢٣١) غم. هنتس، فالتر، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمة عن الألمانية كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، ص٩.

(5) القلقشندي، صبح، ج٣، ص٥٠٧.

أما النوع الثاني من الدنانير الذهبية فهو ما جلب من البلاد الأوروبية وبلاد الروم ويسمى الإفرنتي[١] ومرسوم على أحد وجهيه صورة الملك الذي ضرب بعهده، وعلى الوجه الآخر صورة بطرس وبولص الحواريين، ولذلك دعيت بالدنانير المصورة أو المشخصة. وميزتها أنها معلومة الوزن[٢].

وبالنسبة للقيمة النقدية للدينار المملوكي فيبدو أن سعر تبادل الدينار بشكل عام قد استمر بنفس مستواه السابق فترة طويلة إذ تورد المصادر التاريخية أنه في سنوات ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م[٣]، ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م[٤]، ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م[٥]، حافظت القيمة النقدية للدينار على معدلها السابق، وهو عشرون درهماً فضياً.

ولا يعني هذا أن تلك القيمة لم تتغير طوال تلك الفترة، فالظروف السياسية والطبيعية التي تعرضت لها الدولة كانت كفيلة بإحداث تأثيرهما على سعر تبادل الدينار وتكفي الإشارة إلى ما تعرضت له الدولة من نزاع سياسي على السلطة في معظم سنوات تلك الفترة، وكذلك ما تعرضت له من وباء كبير سنة ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م. وأزمة اقتصادية سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م، كان من آثارهما أن انخفضت قيمة الدينار إلى سبعة عشر درهماً فضياً ونصف درهم[٦]. ولا شك في أنه كان لتلك الظروف أثرهما على الوضع النقدي كغيره من الأوضاع الأخرى.

---

[١] الدينار الأفرنتي أصله أفرنس بسين مهملة، نسبة إلى أفرنسة. القلقشندي، صبح، ج٣، ص٤٣٧. البقلي، التعريفات، ص١٣٨.

[٢] القلقشندي، صبح، ج٣، ص٥٠٧-٥٠٨.

[٣] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٩٨.

[٤] ابن حجر، إنباء، ج١، ص٧١. ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٦٦.

[٥] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٩٥. ابن حجر، إنباء، ج١، ص١٣٢-١٣٣.

[٦] ابن حجر، إنباء، ج١، ص٦٠.

## ب- الدراهم الفضية:

استخدمت الدراهم الفضية في عمليات التداول المالية. وأهم فئاتها النقرة[1] التي أصدرها السلطان الظاهر بيبرس على غرار مواصفات الدرهم الكاملي وعيارها ثلثين من الفضة وثلث من النحاس[2]. والدرهم منها قيمته ثمانية وأربعون فلساً، وكل عشرين درهماً تعادل ديناراً "مثقال". ففي سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م بيع أردب القمح بمائة وخمسة وعشرين درهم نقرة وقيمتها من الذهب آنذاك ستة مثاقيل وربع[3]. كما بيعت البيضة الواحدة بدمشق في سنة ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م بثلث درهم من حساب الستين بدينار، وهذا يؤكد أن كل عشرين درهماً كانت تعادل ديناراً واحداً زمن السلطان الأشرف شعبان[4].

## جـ- الفلوس النحاسية:

ضرب الملك الكامل الأيوبي في مصر فلوساً من النحاس لتسهيل العمليات التجارية البسيطة ثم تتابع السلاطين المماليك في ضربها[5]، وحول ذلك يذكر المقريزي بقوله: "وأما الفلوس فإنه لما كان في المبيعات محقرات تقل على أن تباع بدرهم أو جزء منه احتاج الناس... إلى شيء سوى نقدي الذهب والفضة يكون بإزاء تلك المحقرات[6].

---

(1) الدراهم النقرة. وهي الدراهم الفضية الكاملية وتحتوي على ما نسبته ثلثين من الفضة وثلث من النحاس. المقريزي، إغاثة الأمة، ص٦٥.

(2) العمري، مسالك الأبصار، ص٨٠. القلقشندي، صبح، ج٣، ص٥٠٩.

(3) العمري، مسالك الأبصار، ص٨٠-٨١. السيوطي، حُسن، ج٢، ص٢٧٤.

(4) ابن حجر، إنباء، ج١، ص٧١.

(5) المقريزي، إغاثة الأمة، ص١٠٨. سرور، دولة بني قلاوون، ص٣٣٠.

(6) إغاثة الأمة، ص١٠٨.

واستخدم المماليك نوعين من الفلوس، الأول فلوس مطبوعة بالسكة السلطانية وهي التي أطلق عليها الفلوس (الصغار) لصغر حجمها وخفة وزنها، وكل ثمانية وأربعين فلساً منها بدرهم فضي واحد، واستمر التعامل بها حتى سنة ٧٥٩هـ/ ١٣٥٧م، في الفترة الثانية من حكم السلطان حسن حيث أصدرت الدولة فلوساً جديدة اشتهرت بالفلوس (الجدد) كل درهم بأربعة وعشرين فلساً وامتازت بثقل وزنها وكبر حجمها، وقد استحسنها الناس[١].

أما النوع الثاني فهي فلوس غير مطبوعة بالسكة السلطانية، وأطلق عليها الفلوس (العتق) أي القديمة، وهي عبارة عن خليط من النحاس الأحمر والأصفر خفيفة الوزن ويتم التعامل بها عن طريق الوزن ثم نفذت شيئاً فشيئاً[٢].

وتعامل الناس بنظام المقايضة (المبادلة)، إلى جانب العملات السابقة ولا سيما أهل الصعيد والإسكندرية. فقد وصف المقريزي هذه الظاهرة التي شاهدها بنفسه أثناء تولي السلطان الأشرف شعبان الحكم حيث يقول: "وأدركت أنا والناس من اهل ثغر الإسكندرية وهم يجعلون في مقابلة الخضر والبقول ونحو ذلك كسر الخبز لشراء ما يراد منه، ولم يزل ذلك إلى نحو السبعين والسبعمائة وأدركنا ريف مصر وأهله يشترون الكثير من الحوائج والمأكولات ببيض الدجاج وبنخال الدقيق وردئ مشاق الكتان"[٣].

---

(١) القلقشندي، صبح، ج٣، ص٥١٠. النجيدي، النظام النقدي، ص١٧٩. اليوزبكي، تاريخ التجارة، ص١٠٤.

(٢) القلقشندي، صبح، ج٣، ص٥١١. اليوزبكي، تاريخ التجارة، ص١٠٥.

(٣) إغاثة الأمة، ص١٠٨.

### ٤- وحدات الأوزان والمكاييل والمقاييس:

استخدمت دولة المماليك مجموعة من الأوزان والمكاييل والمقاييس في تعاملاتها التجارية المختلفة، وتميزت هذه الوحدات القياسية بالتنوع والاختلاف بين منطقة وأخرى، فالأردب كان مكيال مصر وغزة[١] والغرارة مكيال دمشق[٢] والقدس[٣] وصفد[٤] والمكوك مكيال حلب وطرابلس وحماة[٥].

ويعد الدرهم والمثقال أساس نظام الأوزان الإسلامية، ونسبة وزن المثقال إلى الدرهم من الوجهة الشرعية هي كنسبة (١٠:٧) بينما هي من الوجهة العملية (٢:٣) [٦].

ويختلف درهم الكيل في عياره عن عيار درهم وزن النقود، فوزن درهم النقود في مصر يساوي (٢,٩٧غم) أما وزن درهم الكيل فيساوي (٣,١٢٥غم)، كذلك يختلف وزن درهم الكيل بين مصر والشام وذلك لاختلاف الأوزان التي يطبع بها[٧]، فصنجة دمشق تنقص عن صنجة القاهرة درهم واحد من كل مائة درهم[٨] وعليه فإن درهم دمشق يساوي (٣,٨٦غم)[٩].

---

[١] العمري، مسالك الأبصار، ص٨١. القلقشندي، صبح، ج٣، ص٥١٢- ج٤، ص٢٠٥.

[٢] العمري، مسالك الأبصار، ص٨١.

[٣] القلقشندي، صبح، ج٤، ص٢٠٦، غوانمة، دراسات، ص٢٣٨.

[٤] الطراونة، طه ثلجي، مملكة صفد في عهد المماليك، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٨٢م، ص١٨٧.

[٥] القلقشندي، صبح، ج٤، ص٢٢٣، ٢٤٠، ٢٤٣.

[٦] هنتس، المكاييل، ص٩.

[٧] المرجع نفسه، ص١٠-١١.

[٨] العمري، مسالك الأبصار، ص٨١. القلقشندي، صبح، ج٤، ١٨٧.

[٩] هنتس، المكاييل، ص١٣.

وعرفت دولة المماليك أثناء حكم السلطان الأشرف شعبان مجموعة من الأوزان أهمها الرطل[1]، الأوقية[2]، القنطار[3]، المن[4]، الحمل[5]. أما المكاييل فجرت عادة دولة المماليك أن تكيل الحنطة والبقول كيلاً بدون وزن، وذلك لتسهيل التبادل التجاري وأهم هذه المكاييل الأردب، الويبة، قدح[6]، الغرارة، المد[7]، المكوك[8]، الكيل والكيلة[9].

كذلك استخدمت دولة المماليك مجموعة من الوحدات القياسية وأهمها القصبة، الذراع[10]، الفدان[11]، القيراط[12].

---

(1) الرطل: من أكثر وحدات الوزن استعمالاً في دولة المماليك ويساوي (١٢) أوقية أي ما يعادل (٣٧,٥غم). ولم يكن الرطل متساوياً في وزنه بين مدن السلطنة المملوكية. العمري، مسالك الأبصار، ص٨١. القلقشندي، صبح، ج٣، ص٥١١. هنتس، ص١٠-١١.

(2) الأوقية: وحدة وزن وتساوي (١٢) درهماً أي ما يعادل (٣٧,٥غم). العمري، مسالك الأبصار، ص٨١. هنتس، المكاييل، ص١١.

(3) القنطار الواحد في مصر يساوي مائة رطل أي ما يعادل (٤٥) كغم وهو في الأساس متساوٍ من حيث عدد الأرطال في جميع مدن السلطنة المملوكية، لكن الاختلاف بوزنه يعود لاختلاف أوزان الأرطال نفسها التابعة لكل مدينة. القلقشندي، صبح، ج٣، ص٥١٢. هنتس، المكاييل، ص٤٠.

(4) المن: وحدة وزن وتعادل (٢٦٠) درهماً وأواقية فتكون أوقيته (١٠) دراهم أي أنه يزن (٨١٢,٥)غم. القلقشندي، صبح، ج٣، ص٥١٢. هنتس، المكاييل، ص٤٦.

(5) الحمل. وهو نسبة إلى ما يحمله البعير ويزن (٢٥٠) كغم. هنتس، المكاييل، ص٢٦-٢٧.

(6) الأردب كيلاً يساوي (٦) ويبات، والويبة (٤) أرباع، والربع (٤) أقداح، والقدح (٢٣٢) درهماً. العمري، مسالك الأبصار، ص٨١. وأنظر القلقشندي، صبح، ج٣، ص٥١٢. هنتس، المكاييل، ص٥٨.

(7) الغرارة مكيال للغلال يستخدم في دمشق على غرار الأردب في مصر، وهي (١٢) كيلاً كل كيلاً (٦) أمداد أي ما يعادل (٧٢) مداً، والمد ينقص قليلاً عن الربع المصري الذي يعادل ربع قدح مصري. العمري، مسالك الأبصار، ص٨١. القلقشندي، صبح، ج٤، ص١٨٨. هنتس، المكاييل، ص٦٢.

(8) المكوك استخدم كوحدة كيل للحبوب في حلب وطرابلس وحماة. العمري، مسالك الأبصار، ص٨٢.

(9) الكيل والكيلة. استخدم في دمشق كل كيلٍ واحد يساوي (١٢/ ١ غرارة) أي (١٧) كغم قمحاً. وفي حلب كان الكيل يساوي (١/٢٢) مكوك أي حوالي (٣,٧) كغم قمحاً، واستخدم في مصر مكيال الكيلة ويساوي (٨) أقداح ويعادل (٥,٨) كغم قمحاً. هنتس، المكاييل، ص٧٠-٧٢.

(10) القصبة استخدمت في مصر والشام لقياس الأرض الزراعية وعرفت بالقصبة الحاكمية نسبة إلى الحاكم بأمر الله الفاطمي وتعادل هذه القصبة ستة أذرع هاشمية أو خمسة أذرع نجارية أو ثمانية أذرع يد. القلقشندي، صبح، ج٣، ص٥١٢. وللمزيد أنظر هنتس، المكاييل، ص٩١-٩٢، ٩٤.

(11) الفدان مقياس في مصر لقياس مساحة الأرض ويساوي (٤٠٠) قصبة حاكمية ويعادل في النظام المتري (٦٣٦٨/م٢)·القلقشندي، صبح، ج٣، ص٥١٣. إبن إياس، نزهة الأمم، ص١٤١. هنتس، المكاييل، ص٩٤.

(12) القيراط. مقياس مسافة مصري يعادل (١/٢٤) من الفدان أو (١٧٥٠٣٥)م٢. هنتس، المكاييل، ص٩٨.

## - الزراعـــــــة

تعد الزراعة من المقومات الأساسية للحياة الاقتصادية في دولة سلاطين المماليك[1]. وقـــد ارتبطت الراعة بالنظام الاقطاعي الذي ترسخت جذوره في مصر منذ أيام الدولة الأيوبية، حتــى أصبحت مصر كلها إقطاعا للسلطان وأمرائه وجنده[2]، وقسمت أراضيها إلى اربعـــة وعشــرين قيراطا[3]، أربعة منها للسلطان وعشرة للأجناد والعشرة الباقية للأمراء[4].

ولذلك فإن أغلب أراضي دولة المماليك ملكت على أساس الإقطاع الذي يمنحـــه الســلطان للأمراء والأجناد أما الذين يفلحون الإقطاع ويسكنون فيه فـــهم أجـراء وخـدم عنـد صـاحب الإقطاع[5].

ويترتب على المقطع القيام ببعض الواجبات الاقتصادية، ومنها اتقان الجســور (الســدود)، وصيانة مشاريع الري في إقطاعه، وحفر الخلجان حال ازدياد نسبة الترسيب فيها وجمع الخــراج وتقديم الهدايا (التقادم) للسلطان[1].

وكان السلطان يتصرف أحيانا في الإقطاع فيسترده من صاحبه لدواع من الرضا أو الغضب فقـــد قام السلطان الأشرف شعبان سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م بإعادة توزيع الإقطاعات المصادرة من الأمراء الذين

---

(١) عطاري، نسيم محمود، كتاب الفلاكة والمفلوكون، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنيـــة، عمـــان، ١٩٩٧، ص٣٦.

(٢) المقريزي، الخطط، ج١، ص١٧٩.

(٣) القيراط وجمعها قراريط وهو عبارة عن مقياس وهمي يستخدم لتقسيم الأرض، ويساوي ٢٤/١ من المســاحة الكلية. ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، (ت ٧١١هـــ/ ١٣١١م)، لســان العــرب، دار صادر، بيروت، ١٩٧٠م، ج٩، ص٢٥٠-٢٥١. هنتس، المكاييل، ص٩٨.

(٤) المقريزي، الخطط، ج١، ص١٨٠.

(٥) ابن خلدون، المقدمة، ج٢، ص٩٢٦. المقريزي، إغاثة الأمة، ص٨٢-٨٣.

شاركوا الأمير طيبغا الطويل في فتنته، ووزعها على جماعة من الأمراء ممن ساهموا في إخمادها[٢]، ولما انفرد الأتابك أسندمر الناصري بالسلطة سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م، أنعم على الأمير بيرم العزي[٣] وكان خاصكيا بتقدمه ألف وأعطاه إقطاع الأمير طغتمر النظامي[٤] وجميع ماله من خيل ومماليك وقماش ومال وغلال وغير ذلك[٥].

وفي سنة ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م أجرى السلطان الأشرف شعبان عدة تعديلات إدارية بدولته ووزع الأمريات على الأمراء والمماليك وفرق عدة إقطاعات على المماليك السلطانية[٦]. وفي سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م أرجع السلطان الأشرف شعبان عن الأمير أقبغا بن مصطفى[٧] اقطاعه[٨]، ثم استقدم الأمير منجك اليوسفي[٩] إلى القاهرة وجعله نائبا للسلطنة، وفوض اليه جميع صلاحياته والتي من ضمنها إخراج الإقطاعات ومنحها شرط أن لا تتجاوز عبرتها سبعمائة دينار[١٠]. وفي

---

(١) ابن مماتي، قوانين الدواوين، ص٢٣٣.

(٢) ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٤٢.

(٣) الأمير بيرم العزي كان داوادارا بتقدمه ألف وكان قبل ذلك جنديا لا غير. توفي في حدود السبعين والسبعمائة للهجرة. ابن حجر، الدرر، ج٢، ص٤٧.

(٤) الأمير طغتمر النظامي. أحد الأمراء الكبار قبض عليه السلطان شعبان سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م. ابن حجر، الدرر، ج٢، ص٢٢٣.

(٥) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٤٤. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٥٨.

(٦) ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٨٧.

(٧) الأمير أقبغا بن مصطفى عمل داوادار عند الأمير يلبغا ثم عند السلطان شعبان. توفي سنة بضع وسبعين وسبعمائة. ابن حجر، الدرر، ج١، ص٤٢٠.

(٨) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢٢٤، ٢٦٨. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص١٣١، ١٦٨.

(٩) الأمير منجك اليوسفي. تولى عدة وظائف في دولة السلطان شعبان كان آخرها نيابة السلطنة في مصر. توفي سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م. ابن حجر، الدرر، ج٥، ص١٣٠. ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص١٠٨.

(١٠) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢٢٥. ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٥٣.

سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م نفى السلطان الأشرف شعبان الأمير ناصر الدين محمد بن أيبك اللّفاف أمير آخور إلى الشام ونقل إقطاعه إلى الأمير قرابغا[١]

وجرت العادة أن يوزع السلطان الإقطاعات على الأمراء في أيام محدودة، حيث يقرأ ما يتعلق بالاقطاعات على مسامع الأمراء ويمضي السلطان ما يشاء منها[٢]. أما الأجناد فيحصلون على إقطاعاتهم من الأمراء الذين يوزعونها بينهم حسب ما يراه هؤلاء مناسباً ثم يقدمون لديوان الجيش أسماء الجنود واقطاع كل واحد منهم على شرط أن يبلغ حجم إقطاعهم ثلثي الاقطاع الممنوح لأحدهم ويبقى الثلث لخاصته[٣].

وقد تعمل السلطنة على تحديد إقطاعات الجند عند إصدار المنشور الاقطاعي، وما يتبقى من الإقطاع لخاص الأمير، ولا يسمح للأمير بالاعتداء على حقوق جنوده وله الحق في التخلي عن جزء من خاصته لأجناده اذا ما رغب في ذلك. وليس له فصل أي جندي منهم إلا بسبب مقنع وبعد موافقة السلطان[٤].

ولكن حدث تطور في هذا الجانب في عهد السلطان الأشرف شعبان سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م حينما أصدر مرسوماً سلطانياً ساوى فيه بين الجند وأمرائهم بالاقطاع، بحيث يأخذ الأمير نصف الاقطاع والنصف الآخر للأجناد[٥]، وهو ما دعا المقريزي إلى القول "أن الجند قد ضاقت أحوالهم

---

[١] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢٦٨. القاضي عبد الباسط، نيل الأمل، ج١، ورقة ١١٠/ب.

[٢] الظاهري، زبدة، ص٧٣. ماجد، نظم، ج١، ص١٤١.

[٣] النويري، نهاية، ج٨، ص٢٠٧-٢٠٨. المقريزي، الخطط، ج٣، ص٧١.

[٤] النويري، نهاية، ج٨، ص٢٠٧-٢٠٨. ماجد، نظم، ج١، ص١٤١.

[٥] ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٣٤٠. ابن قاضي شهبة، تاريخ، مج٣، ص٢٧٤.

وسيطر الأمراء على اقطاعاتهم ولم يتمكنوا في الكثير من الأحوال من الحصول على شيء منها"[1].

والاقطاع لا يورّث بل يرد إلى يد السلطان اذا مات إصحابها، ليعود السلطان بدوره فيهبها لمن يشاء ولمن يستحقها من جديد، ومن هنا كان الإجراء يستغلون اقطاعهم إلى أقصى حدود الاستغلال، وكانوا يعملون على استبقاء ما في أيديهم من ممتلكات بوقفها، وذلك بالاكثار من بناء المدارس والزوايا والربط ووقفوا عليها الأوقاف المغلة، يجعلون فيها شركاء لأولادهم بالنظر عليها أو بنصيب منها[2].

ومهما يكن من شيء فقد كان نظام الاقطاع ذا آثار سيئة على الحياة الزراعية، تمثلت في اعتبار السكان الذين يعيشون في الاقطاع ويفلحون أرضه أجراء بل خدماً وعبيداً لصاحب الإقطاع حيث عرفوا بالفلاحين[3].

وتميزت الأراضي الزراعية في مصر باعتمادها على فيضان نهر النيل[4]وذلك لاقتصار الأمطار في بعض المناطق الشمالية وانعدامها تقريباً في بلاد الصعيد[5]. فالقدرة الانتاجية وجودة الأراضي الزراعية وقيمتها الاقطاعية تعتمد على كمية المياه التي تفيض من النهر. ولهذا قسّمت الأراضي الاقطاعية إلى ثلاثة أقسام: الأولى الأراضي جيدة الإنتاج بالوجهين القبلي والبحري (البلاد النفيسة كثيرة المتحصل) واختص بها السلطان وكبار الأمراء على قدر درجاتهم ورتبهم، فمنهم من يجتمع له نحو

---

(1) السلوك، ج١، ق٣، ص٨٦٥.

(2) سليم، محمود رزق، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٣٧م، ج٢، ص٣٠٥.

(3) المقريزي، إغاثة الأمة، ص٣٨، ٤٦. ابن خلدون، المقدمة، ج٢، ص٩٢٦.

(4) النويري، نهاية، ج٨، ص٢٤٦.

(5) القلقشندي، صبح، ج٣، ص٣٤٤.

العشر بلاد إلى البلد الواحد والقسم الثاني أقل إنتاجاً وجودة وحصولاً على الـــري، ويقطعـــها السـلطان للمماليك السلطانية حيث يشترك اثنان فما أكثر في البلد الواحد. والقسم الثالث فـــهو دون الثـــاني ويقطـــع لأجناد الحلقة والعربان بشكل اشتراك جماعي فيما بينهم[1].

وحددت الأراضي الزراعية في مصر استناداً إلى نوع المحصول وإمكانية استغلالها لأكـثر من دورة زراعية على مدار العام على النحو التالي:

الباق[2]، ري الشراقي[3]، البروبية (البرابيب)[4]، البقماهة[5]، الشونية (الشـــتاني) [6]، شـــق شمس(السلايح)[7]، البرش (النقاء) [8]، الوسخ المـــزروع[9]، الوســـخ الغـــالب[10]، الخـــرس[11]، الشراقي[12]، المستبحر[13]، والسباخ[14].

---

(1) القلقشندي، صبح، ج٣، ص٥٢٥.

(2) الباق: وهي أعلى الأراضي قيمة وثمناً وقطيعة لأنها تصلح لزراعة القمح والكتان. القلقشـــندي، صبـــح، ج٣، ص٥١٧.

(3) ري الشراقي: وهي ما ظمئ من الأرض ثم روي وأصبحت أكثر غلالاً. المصدر نفسه، ج٣، ص٥١٧.

(4) البروبية: وهي ما يزرع فيها القمح والشعير ثم القرط والقطاني والمقاثي مداورة لتستريح الأرض. المصـــدر نفسه، ج٣، ص٥١٧.

(5) البقماهة: أرض تزرع بالكتان وتنتج القمح بلون أسود وحب رقيق. المصدر نفسه، ج٣، ص٥١٧.

(6) الشونية: أرض كانت بوراً ثم رويت. النويري، نهاية، ج٨، ص٢٤٧.

(7) شق شمس: أرض رويت وحرثت ثم لم تزرع وتتميز بالمحصول الجيد الانتاج. المصدر نفسه، ج٨، ص٢٤٧.

(8) البرش: وهي أرض خلت من بقايا ما زرع فيها. المصدر نفسه، ج٨، ص٢٤٧.

(9) الوسخ المزروع: وهي أرض لم تنظف جيداً من بقايا ما زرع فيها. المصدر نفسه، ج٨، ص٢٤٧.

(10) الوسخ الغالب: وهي أرض لم تنظف من بقايا ما زرع فيها حيث تباع كمـــراع للبـــهائم. المصـــدر نفســـه، ج٨،ص٢٤٧.

(11) الخرس: وهي أرض فيها مانع من موانع الإنبات، فأصبحت مرعى للدواب. المصدر نفسه، ج٨، ص٢٤٧.

(12) الشراقي: أرض لا تصلها مياه نهر النيل. المصدر نفسه، ج٨، ص٢٤٧.

(13) المستبحر: أرض منخفضة اذا غمرتها المياه لا تجد مصرفاً تخرج منه. المصدر نفسه، ج٨، ص٢٤٧.

(14) السباخ: هي أرض مالحة رديئة، تصلح لزراعة الباذنجان والقصـــب الفارســـي. القلقشـــندي، صبـــح، ج٣، ص٥١٩.

## أ- نظام الري:

أقام المماليك مشروعات عديدة لري أراضيهم الزراعية، مثل الجسور والقناطير والترع، كما اهتموا بمقياس النيل الموجود بجزيرة الروضة بهدف التنبؤ بكمية المياه التي يجلبها النهر إما زيادة أو نقصانا. وكانت هذه المشروعات هي الضابط الرئيسي لمياه النيل، فإتقان ضبط المياه ينعكس ايجابا على وفرة المحصول والإنتاج والعكس بالعكس.

فالجسور عبارة عن سدود من التراب والحشائش والحجارة والأخشاب توضع على حواف النهر أو ترعه بهدف حفظ الماء وحماية البلاد المحيطة به من الغرق[1]. وخصوصا من خطر الفيضان العالي[2]. وتقسم هذه الجسور إلى قسمين جسور سلطانية[3] وأخرى بلدية[4].

وأقام المماليك شبكة هائلة من الترع والسدود والقناطر، بجميع أنحاء مصر وفق نظام محكم، وتركزت غالبيتها في الوجه البحري لأن أرضه منبسطة[5].

ففي عهد السلطان الأشرف شعبان استمر الاهتمام بالزراعة قائما لأهميتها في اقتصاد الدولة ومن ذلك الترعة التي حفرها الأمير يلبغا العمري في منطقة البدرشين[6] على نهر النيل في سنة ٧٦٥هـ/

---

(1) المقريزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٤٠٠-٤٠١. ابن تغري بردي، النجوم، ج٩، ص٩٧.

(2) ابن مماتي، قوانين الدواوين، ص٢٣٢.

(3) الجسور السلطانية: هي جسور يعم نفعها كل الأراضي الزراعية المصرية وتحمي البلاد من الفيضان وانشاؤها وصيانتها من مسؤوليات الدولة التي كانت تستخرج لها رسوما خاصة نظرا لأهميتها الشاملة في ري الأراضي العامة. ابن مماتي، قوانين الدواوين، ص٢٣٢. القلقشندي، صبح، ج٣، ص٥١٥. المقريزي، الخطط، ج١، ص١٠١.

(4) الجسور البلدية: هي جسور خاصة النفع يقيمها المقطعون من مال القرية أو الناحية ولا تتدخل الدولة في إنشائها. ابن مماتي، قوانين الدواوين، ص٣٣٣. القلقشندي، صبح، ج٣، ص٥١٦. المقريزي، الخطط، ج١، ص١٠١.

(5) قاسم، النيل، ص٢٩.

(6) البدرشن: قرية جنوب الفسطاط من أعمال الصعيد وتبعد عنها اثني عشر ميلا. أنظر القلقشندي، صبح، ج٣، ص٤٣١.

١٣٦٣م. وساعد حفرها على زيادة الأراضي المروية وبالتالي زيادة الانتاج الزراعي. كما استخدمت هذه الترعة كوسيلة مواصلات للمسافرين بين المناطق التي تمر بها. وهذا ما يظهر حرص الدولة على المصلحة العامة إلى جانب المصالح الشخصية للأمراء[1].

كذلك اهتمت دولة المماليك ببناء القناطر على نهر النيل وقنواته المتعددة بهدف التسهيل على المسافرين والفلاحين العبور على جانبي النهر، ومن ذلك القنطرة التي بناها الأمير بكتمر الحاجب في سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م على الخليج الناصري. فجاء بناؤها في غاية الأهمية للفلاحين والمسافرين حيث قصرت عليهم مسافة الوصول إلى مناطقهم في الطبالة ومنية السيرج، فضلا عن تجنيبهم مياه فيضان النهر العالية[2].

وتختلف الأساليب الزراعية في مصر عنها في الشام لاختلاف الظروف المناخية والموارد المائية. ففي مصر وبسبب التباين في تضاريس الأراضي الزراعية ومناخها الحار والجاف تم استخدام الري وأهمه نظام ري الحياض[3]. فهذا النظام جهز له كل ما يلزمه من ترع وقناطر وسدود. وتنبت طريقة الحياض محصولا شتويا واحدا.

وتروى بعض الأراضي الزراعية بطريقة السواقي التي تدار بواسطة الحيوانات لقربها من مجرى النيل. كأراضي الدلتا الواقعة بين فرعي النيل. وتزرع هذه الأراضي بالمحاصيل الصيفية

---

[1] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٩٨. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص١٣.

[2] الطهشواري، نوح بن مصطفى، (ت ١٠٧٠هـ/ ١٦٥٩م)، تاريخ مصر والنيل، مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، رقم الشريط ١٠، ورقة ١٣٠/أ.

[3] ري الحياض: ويعني ترك مياه النيل إبان الفيضان تغطي أراضي الحياض لمدة (٤٥) يوما بعمق متر ونصف وعندما ينخفض منسوب مياه النيل تفتح المجاري في الحياض، فتعود المياه المتبقية إلى النيل بعد أن تكون الأرض قد شربت حاجتها. أنظر زيادة، محمد مصطفى وآخرون، دراسات عن المقريزي، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، الجمهورية العربية المتحدة، القاهرة، ١٩٧١م، ص٩٧-٩٨.

التي تحتاج دائما إلى الماء وأهمها الخضراوات والبقول وقصب السكر والقطن والبطيخ والأرز[1]. وكانت الأرض تزرع بثلاث محاصيل خلال السنة[2].

وبالرغم من أن الجفاف سمة مناخ مصر، إلا أن هناك بعض المناطق الشمالية التي تعتمد على مياه الأمطار في زراعة محاصيل القمح والفول والشعير في الأراضي العالية بالإضافة لإنبات كثير من المراعي الطبيعية[3].

ويظهر لنا مما سبق تأثير نهر النيل على الزراعة في مصر. فعدم وجود قاعدة تتحكم بزيادة النيل أو نقصانه، وإهمال مشروعات الري وغيرها من الأمور، كل ذلك يؤدي إلى تكرار سنوات الشراقي. ففي سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م، توقف ماء النيل عن الزيادة ولم يبلغ الوفاء وتأخر ثمانية أصابع، ثم نودي عليه يوم النيروز بزيادة أصبعين، وكذلك في اليومين التاليين. وتأخر ذراعين عن الوفاء ولم يزد بعد ذلك. فأدى هذا إلى شراقي غالب البلاد[4]، وقد سماها ابن تغري بردي سنة الشراقي العظيم وعدها من الغرائب[5].

وتعتمد الزراعة في بلاد الشام في أغلب الأحيان على الأمطار باستثناء القليل منها يعتمد على السواقي[6]. لذلك تعتمد الزراعة بالدرجة الأولى على مياه الأمطار المتساقطة. فالأمطار التي تتساقط في فصل الخريف تسمى (الوسمي) يبدأ فيه الفلاحون بإعداد الأرض وحراثتها ثم بذرها بالغلال ثم إعادة

---

(1) قاسم، النيل، ص٢١.

(2) خربوطلي، علي حسني، مصر في العصر العربي الاسلامي منذ الفتح العربي إلى الفتح العثماني، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٣م، ص٣٤٥.

(3) البغدادي، عبداللطيف، (ت ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م)، الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، تحقيق أحمد غسان سبانو، دار قتيبة، ط١، ١٩٨٣م، ص١٦.

(4) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢١٨. ابن قاضي شهبة، تاريخ، مج٣، ص٤٤١.

(5) النجوم، ج١١، ص١٠٤.

(6) القلقشندي، صبح، ج٤، ص٩٠. ابن قاضي شهبة، تاريخ، مج٣، ص٦٠٦-٦٠٧.

حرثها مرة ثانية لتبدأ الحبوب بالنماء، ويبقى الزرع حتى تتساقط عليه الأمطار التي تسمى (الفاطم) وغالبا ما تتساقط في شهر نيسان فيتكامل نماء الزرع[١]. كما عرف الفلاح في بلاد الشام زراعة العفير – أي زراعة الحبوب قبل نزول المطر[٢].

وعرفت بلاد الشام في فترة حكم دولة المماليك النمط الزراعي. وهو تقسيم الأراضي إلى قسمين: الأول يتم زراعته ويترك القسم الآخر بدون زراعة بعد حراثة الأرض وتقليبها. ثم يزرع القسم الذي ترك قبل ذلك. ويترك القسم الذي كان مزروعا[٣].

وكانت منطقة الأغوار التي تمتد من جنوبي بحيرة طبرية حتى البحر الميت من المناطق الزراعية المشهود لها بالخصب ووفرة الغلال واشتهرت بزراعات عديدة متنوعة. وتميزت بزراعاتها الكثيفة فالحقل ينتج أكثر من زراعة خلال السنة[٤].

وتميزت الزراعة في حوض نهر العاصي بأن الأرض فيه تسقى عن طريق الدواليب والنواعير[٥]، وتميز الشريط الساحلي الشامي باعتماد زروعه على مياه الأمطار المتساقطة وأهم مزروعاته الحمضيات والكرمة والخروب بالإضافة إلى التين والنخيل واللوز فضلا عن قصب السكر الذي انتشرت زراعته بشكل أساسي على طول خط ساحلي متقطع يمتد من بلنياس إلى عكا مرورا بطرابلس وبيروت[٦] وهناك خط داخلي آخر يمتد من أريحا باتجاه غور الأردن شرقا[٧].

---

[١] النويري، نهاية الأرب، ج٨، ص٢٥٦.

[٢] المصدر نفسه، ج٨، ص٢٥٦.

[٣] المصدر نفسه، ج٨، ص٢٥٦.

[٤] غوانمة، تاريخ شرقي الأردن (القسم الحضاري)، ص٥٦.

[٥] القلقشندي، صبح، ج٤، ص٨٣.

[٦] شيخ الربوة، نخبة الدهر، ص٢٠٧. أبو الفداء، تقويم البلدان، ص٢٥٢-٢٥٥. ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص٢٦٣.

[٧] ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ص١٣٦.

## ب- المحاصيل الزراعية:-

أكثر المزروعات في عهد السلطان الأشرف شعبان كانت غذائية وقليل منها ما كان صناعيا. فالزراعة أنصبت على الحبوب من قمح وشعير وفول وعدس وحمص بالإضافة إلى البصل والثوم والقرط، أما المزروعات الصناعية فكانت قصب السكر والسمسم والكتان والقطن والنيلة[1].

وكان القمح يزرع في أكثر المناطق المصرية، ويبدو أن أراضي الصعيد كانت الأكثر صلاحية لزراعته، وكانت زراعة الشعير موزعه في أقصى الجنوب والشمال، والفول والعدس في الصعيد أما أنواع نباتات العلف فكانت تزرع في الدلتا[2]. وقد وجد لها نوعان من المخازن: الأول عرف بالشون السلطانية والثاني عرف بالأهراء السلطانية[3].

كذلك زرعت العديد من الأشجار المثمرة كالنخيل وكروم العنب والموز والفاكهة والخضراوات، وتركزت زراعتها في الصعيد المصري والدلتا[4]. أما بلاد الشام فاشتهرت بأشجار الزيتون والتين والكرمة والحمضيات وتركزت زراعتها على الساحل الشامي ومنطقة

---

[1] زيادة، دراسات عن المقريزي، ص٩٩-١٠٠.

[2] المرجع نفسه، ص١٠٠-١٠١.

[3] الأهراء: مكان وضع مخزون الغلال المتنوعة ولا تفتح إلا وقت الحاجة. أما الشون فهو المكان الذي يوضح به ما يستعمل من الغلال والأحطاب والأتبان وما شابه ذلك. الظاهري، زبدة، ص١٠٤. وأنظر البقلي، التعريفات، ص٥٢، ٣٠٨.

[4] المقريزي، الخطط، ج١، ص١٨٩. البغدادي، الإفادة، ص٩٢. ابن ظهيرة، محمد بن أحمد، (ت ٨٨٨هـ/١٤٨٣م)، الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس، مطبوعات دار الكتب، الجمهورية العربية المتحدة، ١٩٦٩م، ص٦٧.

الزيتون والتين والكرمة والحمضيات وتركزت زراعتها على الساحل الشامي ومنطقة الأغوار وحول المدن كدمشق وحلب[1].

أما قصب السكر فقد احتكرت دولة المماليك زراعته نظرا لأهميته الاقتصادية[2]، وقد انتشرت زراعته في كل ولايات الدلتا ومدينة فوة[3] وعلى مقربة من رشيد وعلى ضفاف النيل من الإسكندرية حتى فوة[4] ويذكر المقريزي أن القصب كان يزرع مقابل بولاق وفي الفيوم وكانت زراعته ظاهرة عامة في أكثر جهات الصعيد، وأن معامل التكرير السلطانية كانت في الصعيد[5]ساحل بلاد الشام فكان مكانا مميزا لزراعته. وعلى الرغم من الخراب الذي لحق منطقة عكا وصيدا وصور فإن زراعة قصب السكر ظلت مستمرة في أيام المماليك، كما ظلت موجودة حول طرابلس وبيروت وصيدا وصور[6]. ويذكر النويري زراعة القصب حول عكا وطرابلس وبيروت. كما يبين أساليب زراعتها من اختيار الأرض الجيدة التي يشملها الري، ثم تنظيف الأرض من الأوساخ وحراثتها لعدة مرات وجعل المياه تغمرها، ثم غرس الأقصاب وسقايتها كل أسبوع مرة، ثم تنكش أرضه حتى يقطف[7].

---

(1) العمري، مسالك الأبصار، ص١٧١-١٧٦، ١٨٠، ١٨٦. البدري، نزهة الأنام، ص١٨٧-١٨٨، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٦-٢٠٧.

(2) اشتور، آ، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبدالهادي عبلة، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٥م، ص٣٩٩.

(3) فوة. بليدة على شاطئ نهر النيل قرب رشيد وهي ذات أسواق ونخل كثير. ياقوت، معجم، مج٣، ص٤٤٩.

(4) المقريزي، الخطط، ج٢، ص١٣١- السلوك، ج٢، ق٢، ص٤١٩.

(5) المقريزي، السلوك، ج٢، ص٤٣١. أشتور، التاريخ الاقتصادي، ص٣٩٣-٣٩٤.

(6) عباس، إحسان، تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك، مطبعة الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٨م، ص١١٨.

(7) نهاية الأرب، ج٨، ص٢٦٤-٢٦٥، ٢٧١.

ويشير القلقشندي أن قصب السكر كان يزرع في الأغوار[١]. ويضيف النويري أنباء عن زراعة قصب السكر في مواقع أخرى من بلاد الشام منها منطقة الأغوار (سهل بيسان والبحر الميت) [٢]. وعلى أي حال، فإن منطقة الأغوار تشمل سهل بيسان، وفي ذلك السهل كان لسلاطين المماليك إقطاعات كثيرة، ولهذا يمكن في يسر ان نفهم لماذا كانت زراعة قصب السكر متوافرة في تلك المنطقة، فقد كانت تنتج كميات غير قليلة من السكر. وكان محصول السكر في الشام ومصر ضخما. وفي الثانية أضخم، إذ يذكر ابن بطوطة أنه كان في منلوى[٣] إحدى عشرة معصرة للسكر[٤]. واذا كان الصعيد يزرع قصب السكر فمن المعقول أن أكثر القرى والمدن الصغيرة كانت تحتوي معاصر، لأن المعاصر لا بد ان تنشأ على مقربة من الحقول حيث يزرع القصب[٥].

ومن المزروعات التي راجت أثناء حكم السلطان الأشرف شعبان الكتان. وقد أكثرت دولة المماليك من زراعته لدخوله في صناعة الملابس[٦]، وتركزت زراعته في الأرياف المصرية[٧]. وكذلك القطن الذي يدخل في صناعة الأقمشة والملابس، وتستخدم بذوره أعلافا لتسمين المواشي، وأغلب زراعته في الواحات والأعمال البهنساوية والفيوم[٨] وفي سهول اعزاز من بلاد الشام[٩]. واهتمت دولة المماليك بزراعة النباتات الطبية لأنها تدخل في إنتاج الأدوية، كالأفيون الذي يستخرج من الخشخاش الأسود

---

[١] صبح، ج٤، ص٨٧، ١٨٤.

[٢] نهاية الأرب، ج٨، ص٢٧٩.

[٣] منلوى. مدينة صغيرة تبعد عن النيل ميلين وتقع بين المنيا ومنفلوط. ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص٢٢٥.

[٤] المصدر نفسه، ج١، ص٢٢٥.

[٥] المقريزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٤٣١.

[٦] ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص٦٠٩.

[٧] ابن مماتي، قوانين الدواوين، ص٢٦٢. العمري، مسالك الأبصار، ص١٥٠. ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص٥٦، ٥٨، ٦٢.

[٨] المقريزي، الخطط، ج١، ص١٦٤-١٦٥. ابن دقماق، الانتصار، ج٥، ص١٢، ١٤-١٦.

[٩] تواء، فادي إلياس، المناخ والأسعار والأمراض في بلاد الشام في عهد المماليك، بيروت، ١٩٩٨م، ص٢١.

المصري[1]، والقنب (الحشيشة المخدرة)[2]، أما البلسان (البلسم) فيستخدم لعلاج الفالج وارتخاء الأعصاب[3].

واهتمت دولة المماليك أثناء عهد السلطان الأشرف شعبان بالثروة الحيوانية وذلك لحاجتهم الماسة إلى لحومها وألبانها وأصوافها، فضلا عن استخدامها في التنقل ونقل البضائع، وفي إدارة السواقي والطواحين وحراثة الأرض[4]، واحتوت الدولة على العديد من المواشي كالبقر والجاموس والأغنام، وأولتها الاهتمام، فأمنت إسطبلات خاصة بالخيول ومناخات للجمال وحظائر للأغنام والأبقار وأبراج للحمام[5].

بالاضافة إلى المواشي، احتوت صعيد مصر وصحاريها وبراريها على العديد من الطيور والحيوانات البرية، وكان الصيد رياضة المماليك المفضلة وتسليتهم المحببة وكانت له مواسمه الموقوتة وأيامه المعروفة[6]، وحين يحل هذا الوعد الموقوت يخرج السلطان وكبار أمرائه في موكب كبير يقصدون هذا المكان أو ذاك، ومعهم عدة الصيد وآلته وهناك يضربون خيامهم ويصيدون الطيرو يقنصون الوحش ثم يعودون إلى القاهرة[7].وقد تكرر خروج السلطان الأشرف شعبان كثيرا إلى

---

[1] أبو الفداء، تقويم، ص١١٥. العمري، مسالك الأبصار، ص١٢٩.

[2] العمري، مسالك الأبصار، ص١٢٩.

[3] البغدادي، الإفادة، ص٣٤. القلقشندي، صبح، ج٣، ص٣٤٤.

[4] ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص٥٨٥، ٥٩٢.

[5] القلقشندي، صبح، ج٣، ص٣٤٦.

[6] ابن كثير، البداية، ج٣، ص٣٦٢-٣٦٣.

[7] ابن تغري بردي، النجوم، ج٩، ص١٧٠.

الصيد ويكون خروجه بموكب حافلٍ يعبر شوارع القاهرة برفقة كبار الأمـــراء الممـــاليك ورجال الحاشية والخدم[1].

## ٦- الصناعة:

ازدهرت الصناعة بفضل تشجيع السلاطين المماليك لها وتوفر الأيـــدي العاملـــة والمـــواد الأولية اللازمة لقيامها. ومن أهم الصناعات:

### أ- المنسوجات:

دلّ حديث ابن بطوطة عن المراكز الصناعية أن مصر كانت متقدمة في صناعة منسوجات مختلفـة الأنواع وذات شهرة كبيرة، حيث كانت تصدرها إلى الخارج[2]. أما في الشام فقد احتلت حمص المرتبـــة الثانية في صناعة الأقمشة والمنسوجات بعد الإسكندرية[3].

وقد خصصت دولة المماليك مصانع خاصة لنسيج السلاطين وكبار رجال الدولـــة عرفـت بدور (الطرز). كما وجدت مصانع أهلية كثيرة يمتلكها الأفراد في مصر وشـملت معظـم مدنـها حتى أن أنواعاً من الأقمشة نسبت إلى مدنها وقراها[4].

وكذلك اهتم المماليك بصناعة البسط والفرش والخيام والسروج المحلاة بالذهب والفضة[5].

---

(١) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٧٠، ١٩٠، ٢٣٢. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص١٠٠.

(٢) مصطفى، أحمد أمين، الحياة في القرن الثامن الهجري كما تصورها رحلة ابـن بطوطـة، مطبعـة السـعادة، القاهرة، ١٩٩٢م، ص١٣٩.

(٣) ابن الشحنة، الدر، ص٢٧٤.

(٤) ماجد، نظم، ج٢، ص٦٦.

(٥) المقريزي، الخطط، ج٢، ص٩٨، ٢١١-٢١٢.

ومن اهتمامات السلطان الأشرف شعبان بالمنسوجات المرسوم الذي أرسله إلى نائب دمشق الأمير بيدمر الخوارزمي في سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م، يأمره بعمل تشكيلة من المنسوجات من "طرز وزوايا زركش برسم الحريم، وبعمل كنابيش زركش للهجن وسلاسل فضة وذهب، وأكوار مفرقة برسم الحجاز الشريف، فعند ذلك طلب التجار في دمشق، وطرح عليهم الأصناف وطلب الصياغ وأخرج لهم الذهب والفضة، وأمرهم أن يعملوا ذلك، وكان من جملة الاستعمالات سبعمائة زاوية زركش، في كل واحدة من الذهب ثلاثمائة إلى خمسمائة مثقال، وعمل أيضا إبرا بروؤس لؤلؤ ألفي إبرة، وفضة بروؤس ذهب برسم الجواري ثلاثة آلاف، وطرز يلبغاوية ألف ومائتي زوج ومثلها كنابيش[1]، وأخرج أطلس زركش مائة وعشرين خرجا[2] برسم الأكوار[3] وثلاثمائة كور ملبسة ذهبا وفضة، وركب ذهب وفضة ستين زوجا وسلاسل ومخاطم برسم الهجن والجمال شيء كثير. وكانت الخزائن من عنده متصلة إلى القاهرة أولا فأول، خزانة بالقاهرة، وأخرى بغزة، وأخرى بالغور، وأخرى خارجة من دمشق، وأخرى في أيدي الصناع"[4].



**ب- صناعة السكر:** تبرز أهمية صناعة السكر في دولة المماليك لتوفر مزارع السكر ولوجود المعاصر المخصصة لاستخراجه. وتعددت أماكن تواجد معاصرة في مختلف مدن

---

[1] كنابيش: جمع كنبوش وهو البرذعة تجعل تحت سرج الفرس وتوضع فوقها الفاشية وهي غطاء مزركش فوق البرذعة والكنبوش أيضا غطاء للسيف. دهمان، معجم، ص١٣١.

[2] الخرج: كيس من جلد أو شعر أو قماش سميك ذو عدلين يوضع على ظهر الدابة وجمعه خرج أو اخراج. دهمان، معجم، ص٦٧.

[3] الأكوار: جمع كور وهو ما يقعد فيه الراكب فوق ظهر النجيب وهو مغشى بالذهب أو الفضة وقد يكون غير مغشى. البقلي، التعريفات، ص٢٩٠.

[4] ابن صصري، محمد بن أحمد، (ت ٨٠٠هـ/ ١٣٩٨م)، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، تحقيق وليم برينر، ١٩٦٣م، ص١٨٩. ابن طولون، محمد الصالحي، (ت ٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م)، أعلام الورى بمن ولي نائبا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٨٤م، ص٥١-٥٢.

السلطنة، فالمقريزي يذكر أن سمنود[1] وجد فيها سبعة عشر حجرا لعصر القصب كما وجد عـدة معاصر أخرى بقرية منلوى أما الشام فوجدت معاصره في طرابلس وغـور الأردن[2]. وعندمـا أغار الصليبيون على طرابلس سنة (٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م) وجدوا في أحد متاجرها جيفان كثيرة من السكر التي أخذوا يكسرونها ويرمونها على المسلمين بدلا من الحجارة[3] مما يثبت توفره بكميـات كبيرة.

وهناك ثلاث طرق لاستخلاص السكر: بحجارة الماء، وبالأبقار، وبالسهام (الأعـواد مـن الخشب) وذلك تحت اشراف مسؤول حكومي حيث "يضبط ما يتحصل ويحرسه ... وينظم كل يوم محضرا بما اعتصروه وما تحصل." [4].

وأطلق على هذه المعاصر اسم المطابخ السلطانية وهي متخصصة بعصير القصب وكـانت على نوعين: مطبخ الخاص السلطاني ومطبخ الدولة، فضلا عن المطابخ الخاصة لكبـار رجـال الدولة، ومن هذه المعاصر، مطبخ يسمى الذخيرة وهو ملك لأولاد السلطان الأشرف شعبان كـان يسبك به سكر الذخيرة ثم استأجره بعد ذلك السلطان برقوق عندما كان أتابكا للعسكر، كذلك مطبخ الأمير سيف الدين أرغون شاه الأشرفي الذي أداره مدة حياته ثم انتقل للشريف بكتمر الحسيني[5].

---

[1] سمنود مدينة تقع جنوب المنصورة وتقع على شاطئ النيل. ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص٢٠٠.

[2] ابن الشحنة، الدر، ص٢٦٣. غوانمة، تاريخ شرقي الأردن (القسم الحضاري)، ص٨١.

[3] سالم، طرابلس الشام، ص٤٧٠-٤٧١. خرابشة، نيابة طرابلس، ص١٦١-١٦٢.

[4] النويري، نهاية، ج٨، ص٢٧١-٢٧٢.

[5] ابن دقماق، الانتصار، ج١، ص٤١، ٤٥.

## ج- صناعة الزيت:

انتشرت صناعة الزيوت في بلاد الشام نظرا لتواجد أشجار الزيتون التـــي تنتـج كميـات كبيرة؛ منها ما يدخل في صناعة الصابون الذي انتشرت مصانعة في سرمين وحلب وطرابلــس والقدس ونابلس، ومن هذه المدن ينقل إلى دمشق ومصر[1].

وفي مصر استخرج زيت من بذور نبات السلجم (اللفت) الذي كثرت زراعته في أســيوط وحرجا وكما واستخرج الزيت الحار من بذور الكتان واستخرج زيت من بذور نبات السمسم[2].

## د- صناعة المعادن:

راجت في مصر صناعة تكفيت[3] المعادن، وتعني تطعيم النحاس بالذهب والفضة، وأشـهر هذه الأدوات المكفتة: القناديل والمباخر والمشكاوات والأباريق والطسوت[4].

كذلك تقدمت طرق استخراج مادة البلور الذي أستخدم كتحف في قصور المماليك وفي ذلـك يقول المقريزي "أخبرني من شاهد جهاز بعض بنات السلطان حسن بن محمد بن قــلاوون وقـد حمل في القاهرة عندما زفت على بعض الأمراء في دولة الملك الأشرف شعبان بن حسين، فكـان شيئا عظيما، ومن جملته دكه من بلور تشتمل على عجائب منها زير قد نقش بظاهره صور ثابتـة على شبه الوحوش والطيور، وقدر هذا الزير ما يسع قربة ماء"[5].

---

[1] ابن بطوطة، الرحلة، ج١، ص٢٥٤، ٢٧٢. ابن الشحنة، الدر، ص٢٦٣.

[2] زيادة، دراسات، ص١٠٣.

[3] التكفيت، هو تطعيم المعدن بمادة أقيم وأثمن كتطعيم النحاس بالذهب أو الفضة بالذهب. المقريــزي، الخطـط، ج٢، ص١٠٥.

[4] المقريزي، الخطط، ج٢، ص١٠٥. زيادة، دراسات، ص٧٢-٧٣.

[5] المقريزي، الخطط، ج٢، ص١٠٥.

وصنع المماليك لوازم البناء المختلفة من شبابيك وأبواب وصفائح معدنية وغيرها، ففي سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م، شيد السلطان الأشرف شعبان بناء تحت القلعة، فطلب من نائب دمشق الأمير بيدمر الخوارزمي تزويده بما يلزم هذا البناء من مواد. فأرسلها الأمير بيدمر إلى القاهرة محملة على مائة وستين جملا[١].

وراجت صناعة الذهب والسلاح والنحاس المطعم والزجاج المذهب في دمشق[٢]. واستخرج الملح والكبريت والنحاس والذهب والزمرد من مصر[٣]. أما القراطيس (الورق) فصنعت في دمشق والقاهرة[٤]، واستخرج النطرون[٥] من بركة النطرون ومن منطقة الخطارة[٦]. كما أستخرج معدن الشب[٧] بالقرب من أسوان، والنفط من ساحل البحر الأحمر الذي يجمع زيته ويحفظ في خزائن السلاح السلطانية[٨].

كما برع المصريون في صناعة المراكب البحرية، وتمركز العمل بها في دار صناعة جزيرة أروى، وقد كان للأمير يلبغا العمري نشاط كبير في هذا المجال عندما أنجز مائة مركب بحري على اختلاف أنواعها في أقل من عام[٩].

---

(١) ابن صصري، الدرة المضيئة، ص١٨٩. ابن طولون، أعلام الورى، ص٥١.

(٢) العمري، المسالك، ص١٨٠.

(٣) المقريزي، الخطط، ج١، ص٢٨. السيوطي، حسن، ج٢، ص٢٧٩.

(٤) العمري، مسالك، ص١٨٠. السيوطي، حسن، ج٢، ص٢٧٩.

(٥) النطرون مادة مركبة من كربونات الصوديوم وتدخل في بعض الصناعات.

(٦) القلقشندي، صبح، ج٣، ص٣١٣.

(٧) الشب: هو مزيج من البوتاسيوم والألمنيوم. القلقشندي، صبح، ج٣، ص٣١٣. حاشية رقم (١). البقلي، تعريفات، ص١٩٢.

(٨) القلقشندي، صبح، ج٣، ص٣١٣.

(٩) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٢٩. ابن تغري بردي. النجوم، ج١١، ص٣٠.

ورغم شح المعلومات التي أوردتها المصادر التاريخية عن القطاع الصناعي في عهد السلطان الأشرف شعبان إلا أنه يمكن الاستدلال من أقوال المؤرخ ابن تغري بردي أن الصناعة كانت بعهده صناعة مزدهرة ورائجة وحول ذلك يقول "ومشى سوق أرباب الكمالات في زمانه من كل علم وفن وقصده كل العاملين بالفنون والملح، ولم يقل من الإحسان إليهم". وقولته المشهورة "أفعل هذا لئلا تموت الفنون في دولتي وأيامي"[1]. لهي دليل قاطع على حرصه واهتمامه بالصناعة وبالعاملين بها، فتوافد على دولته أصحاب المهن والحرف إلى جانب العلماء والفقهاء لنيل إحسانه وللتمتع بعطاياه الجزيلة.

(1) النجوم، ج١١، ص٣٠.

## الفصل الخامس: فساد الحكم في دولة المماليك في عهد السلطان الأشرف شعبان

١- الجيش

٢- الأمراء

٣- القضاء

٤- نهاية الأشرف شعبان ومقتله:

# الفصل الخامس

## فساد الحكم في دولة المماليك في عهد السلطان الأشرف شعبان

تطرق الفساد إلى النظام السياسي والإداري والعسكري المملوكي خلال الفترة بين وفاة السلطان الناصر محمد (٧٤١هـ/١٣٤٠م) وبين سقوط دولة المماليك سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م. فقد حكم خلال هذه الفترة البالغة ثلاثا وأربعين سنة اثنا عشر سلطانا، ثمانية من أولاد الناصر محمد في العشرين عاما الأولى بعد وفاته، وأربعة من أحفاده خلال عقدين كاملين وكان السلطان الأشرف شعبان من ضمن هؤلاء السلاطين. وكانت كل هذه الفترة سلسلة حوادث بؤس وشقاء. إذ لم يكن أحد منهم على مستوى يؤهله لأن يمارس صلاحياته إلا بواسطة اتابكة كانوا مثالا للجشع والفساد. وبالمقارنة مع فترة الازدهار في عصر الناصر محمد، فان هذه الفترة الممتدة حتى سقوط الدولة تتخذ مظهرا اقل روعة. وكانت حالات الفوضى التي صاحبت اعتلاء السلاطين وعزلهم بمثابة شواهد واضحة على ما أصاب دولة المماليك من ضعف[١]. وجاءت وفاة الناصر محمد إيذانا بانتهاء فترة الاستقرار والرخاء. وإذا كان خلفاؤه قد تمكنوا من البقاء في الحكم مدة ثلاث وأربعين سنة بعد وفاته، فإن ذلك لا يرجع إلى موهبة خاصة ظهرت في أحدهم وإنما مرد ذلك إلى هيبة بيت قلاوون في قلب المعاصرين من جهة وإلى قوة الدولة المختزلة من جهة أخرى .

ويلاحظ خلال هذه الفترة عدم اهتمام السلاطين بمزاولة الحكم بفعل صغر سنهم وجهلهم بالأمور السياسية، واستبداد الأمراء بهم، يولون ويعزلون أو يقتلون وفق مشيئتهم، وكان أضعفهم

---

[١] حسن، المماليك البحرية، ص١٣٦.

إرادة، أكثرهم قبولاً لدى الأمراء النافذين، فإذا بدأ يعارض رغباتهم بادروا إلى عزله وتدبير أمر مقتله أحياناً[1].

ويبدو أن الأمراء المتنفذين اتفقوا ضمنياً، فيما بينهم، حول معنى الوراثة في الحكم، في أن يكون الجالس على عرش مصر من أبناء أو أحفاد السلطان الناصر محمد، ولكن ليس من الضروري أن يستمر في الحكم حتى يموت، بل يباح عزله أو قتله إذا أساء التصرف ما دام من يخلفه شخص من عائلة السلطان الناصر محمد[2]. والراجح أن خوفهم من بعضهم، وعدم قبول فكرة أن يسود أحدهم خشية أن يستبد بهم، هو الدافع عن إحجامهم عن اغتصاب السلطة، وتفضيل سلطان حاكم لا شخصية له ولا إرادة، وقد توفرت هذه الصفات في أولاد الناصر محمد وأحفاده[3].

ونتج عن تنصيب صبية صغار، وقصر مدة حكمهم؛ ظهور نفوذ الاتابكة بشكل جليّ، وتركيز السلطة في أيديهم، وتوارى السلطان في الظل ليس له من الأمر شيء، وأدّى ازدياد نفوذهم إلى استمرار التنازع والتحاسد وتدبير الفتن والدسائس ضد بعضهم البعض. فكانت عهود هؤلاء السلاطين عبارة عن سلسلة من المؤامرات بين الأمراء لتحقيق مصالحهم، وكانت النتيجة الطبيعية لهذه المؤامرات، ازدياد نفوذ الأمراء واشتداد سطوتهم وتحكمهم في مصالح البلاد والعباد، وتلاعبهم بالسلاطين بالتعيين والعزل والقتل وفقاً لأهوائهم، ولهذا اشتد الصراع بين الأمراء، وازداد التنافر والعداء بين طوائف المماليك الذين انقسموا شيعاً يتقاتلون في شوارع القاهرة بين حين وآخر، مما أغرق البلاد في بحر من الفوضى[4].

وعليه فإن دولة المماليك الأولى ( البحرية ) تصدعت اعتباراً من أواسط القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، فظهرت دولة المماليك الثانية (البرجية) التي تعد استمراراً للدولة الأولى في الهدف والتركيب الاجتماعي والعسكري، وإنما تتميز عنها بتبدل العرق الحاكم من الأتراك إلى الجراكسة[5].

---

[1] حسن، المماليك البحرية، ص١٣٦.

[2] المرجع نفسه، ص١٣٧.

[3] عاشور، مصر والشام، ص٢٣٥.

[4] سرور، دولة بني قلاوون، ص٥٧.

[5] المرجع السابق، ص٥٨.

وهكذا ازداد نفوذ الجراكسة داخل الدولة حتى استطاعوا في النهاية إسقاط أسـرة قـلاوون التي سقطت بسقوط دولة المماليك الأولى وأسس الجراكسة دولتهم الثانية.

ولتوضيح مساوئ الحكم في عهد السلطان الأشرف شعبان ينبغي دراسة أوضـاع الجيـش المملوكي، وأثر الأمراء في سير الحوادث الجارية إذ ذاك، ومن ثم تتبع دور القضـاة والجـهاز القضائي. حتى يتسنى لنا فهم الفساد الذي استشرى في تلك الفترة.

## ١-الجيش

يعود الفضل الأول في تكوين فرقة المماليك الأولى " البحرية"[١] إلى السـلطان الأيوبـي الصالح نجم الدين أيوب الذي أنشأ فرقة مميزة من المماليك لحاجته لجيش قـوي يـؤازره فـي صراعه مع باقي أفراد البيت الأيوبي من ناحية ومع الصليبيين من ناحية ثانية، فضلا عن عزمـه وضع حد لباقي طوائف المماليك الذين غرروا به كالخوارزمية والكردية[٢].

من هنا عمد إلى إعداد تلك الفرقة إعدادا عسكريا رفيع المستوى وعمل على تربية أفرادهـا تربية إسلامية صحيحة وأسكنهم في قلعة جزيرة الروضة[٣] على النيل[٤].

---

[١] سموا بذلك نسبة لجلبهم عن طريق البحر من بلاد القفجاق، وقيل لأن الصالح أيوب أسـكنهم قلعـة الجزيـرة (الروضة). أنظر ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٤٤٣. المقريزي، الخطط، ج٣، ص١٢٢. ابن إياس، بدائـع، ج١، ق١، ص٢٩٦.

[٢] ابن واصل، مفرج الكروب، مج٥، ص٢٧٥. ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٤٤٢. ابن دقماق، نزهـة الأمـم، ص٢١٠.

[٣] قلعة الجزيرة بناها الصالح أيوب في سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م بجزيرة الروضة، وعرفت بقلعة الروضة وبقلعـة الصالحية. المقريزي، الخطط، ج٢، ص٧٩٩.

[٤] ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٤٤٣. المقريزي، الخطط، ج٣، ص١٢٢.

وقد برهنت هذه المجموعة على تفوقها عندما استطاعت الإنتصار على قوات الحملة الصليبية السابعة المحتلة لمدينة دمياط في ثاني محرم سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م. وأصبحت بذلك نواة الجيش المملوكي[١].

ولم يكن المماليك من أصل واحد، بل كانوا من أجناس شتى[٢] مثل الترك[٣] والتركمان[٤] والأكراد[٥] والعربان وأولاد المماليك (أولاد الناس)[٦]، وعناصر خارجية جلبت من بلاد شبة جزيرة القرم وبلاد القوقاز والقفجاق[٧]، وآسيا الصغرى وفارس وتركستان وبلاد ما وراء النهر[٨]، وقد تنوعت أعراق هذه العناصر فمنهم الروم والروس والمغول والأرمن والعديد من أقليات البلدان الأوروبية[٩].

ولذلك فإن المماليك – كما يستدل من اسمهم- ينتمون إلى سلالة عبيد من أجناس مختلفة وقوميات متباينة، استطاعت إقامة دولة عسكرية في بلاد غريبة عن مواطنها الأصلية[١٠].

---

[١] أبو شامة، ذيل الروضتين، ص١٨٤. ابن شداد، الأعلاق الخطيرة، ج٣، ق٢، ص٥٣٤. أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٢٨٧.

[٢] العمري، مسالك الأبصار، ص٩٣. السيوطي، حسن، ج٢، ص١٢٨.

[٣] الترك: لفظ الترك هو اسم جنس المماليك الذين جاءوا من بلادهم القفجاق وهم التتر والجركس والروس والغز والأص. ابن حوقل، أبي القاسم النصيبي، صورة الأرض، منشورات مكتبة دار الحياة، بيروت، ص٣٧٤-٣٧٦. ياقوت، معجم، مج٢، ص٢٣-٢٤. القلقشندي، صبح، ج١، ص٤٢٠-٤٢١-ج٤، ص١٨٩.

[٤] التركمان: هم قبائل بدوية وأصولهم ترجع للترك الغز المسلمين حيث اختلطوا بشعوب المناطق التي نزحوا منها، حتى استقروا في منطقة جنوب روسيا الحالية أي نواحي (بحر قزوين والمنطقة القوقازية حتى البحر الأسود). ابن شداد، الملك الظاهر، ص١٢١. ابن تغري بردي، النجوم، ج٧، ص١٦٥، ٣٠٢-٣٠٣.

[٥] الأكراد: أغلب الأكراد ينتسبون الى موطنهم الأصلي شهرزور (مدينة السليمانية الحالية بكردستان في العراق)، كما وجد أعداد منهم في أرمينيا وبعض بلاد العراق كالموصل وديار بكر. وقد هاجر هؤلاء الأكراد من موطنهم الأصلي نحو بلاد الشام في مطلع القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي. سوبرنهيم "حصن الأكراد"، دائرة المعارف الإسلامية، ج٧، ص٤٤٨-٤٥١.

[٦] أولاد الناس. هم أبناء السلاطين والأمراء والمماليك ممن ولدوا أحرارا ولم يمروا وهم صغار بدور الرق الذي مر به آباؤهم. أنظر المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٦٩٠. حاشية ٢. دهمان، معجم، ص٢٦.

[٧] تشمل بلاد القفجاق حوض نهر الفولجا والأراضي الواقعة حول بحر قزوين. أنظر عاشور، مصر والشام، ص١٦٧.

[٨] حسن، المماليك البحرية، ص٢٤.

[٩] العمري، مسالك الأبصار، ص٩٣. السيوطي، حسن، ج٢، ص١٢٨.

[١٠] حتي، تاريخ سوريا، ج٢، ص٢٦٧.

وقد اهتم السلاطين المماليك بشراء المماليك الجدد، ولا سيما الناصر محمد الـذي اسـتقدم الرقيق من الجنس التركي المتوافر في بلاد أزبك وتبريز وبلاد الروم وبغداد، مما زاد في نفوذهم على حساب باقي الأجناس وأصبحوا سادة الدولة والجيش[1].

لكن الأمراء الأتراك أنفسهم بعد وفاة الناصر محمد سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م[2]، انقسموا على أنفسهم بسبب التنافس على السلطة وخاصة مع وجود سلاطين صغار لا يحسنون التصرف كأبناء الناصر محمد وأحفاده، فكان ذلك سببا في تسابق الأمراء على شراء المماليك[3]. كـالأمير يلبغـا العمري الذي اشترى أعدادا كبيرة من المماليك من ماله الخاص بلغ عددهم ثلاثـة آلاف مملـوك عرفوا بالمماليك اليلبغاوية[4].

وقد تنوعت مصادر الحصول على هؤلاء المماليك في عهد السلطان الأشرف شعبان كمـا كان سابقا في عهود أسلافه السلاطين، وتميزت التجارة المتخصصة بـالرقيق بأنـها المصـدر الرئيسي لإحضار أعدادا كبيرة منهم إلى الدولة حيث يلقون تدريبا صارما بمجرد وصولهم إلـى مصر[5].

وكانت تجارة الرقيق رائجة لعدة أسباب أهمها الحروب الطاحنة التي شنها المغـول علـى جيرانهم ولاسيما القفجاق، فقتلوهم وسلبوا ذراريهم، واستغل التجار تلك الحروب وجلبوا أعـدادا

---

(1) المقريزي، الخطط، ج٣، ص٦٧.

(2) الذهبي، دول الاسلام، تحقيق عبدالله بن ابراهيم الأنصاري، دار إحياء التراث الإسلامي، قطـر، ١٩٨٨م، ج٢، ص٢٤٧. ابن حبيب، تذكرة، ج٢، ص٣٢٥.

(3) عبدالسيد، حكيم أمين، قيام دولة المماليك الثانية، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، الجمهوريـة العربيـة المتحدة، ١٩٦٦م، ص٣١.

(4) ابن قاضي شهبة، تاريخ، مج٣، ص٣٠٥-٣٠٦. ابن حجز، الدرر، ج٥، ص٢١٣.

(5) عاشور، مصر والشام، ص١٦٨. ماجد، عبدالمنعم، طومان باي أخر سلاطين المماليك فـي مصـر، مكتبـة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨م، ص١٧.

منهم إلى مصر وباعوهم في أسواقها[1]. كذلك ساعد ثراء دولة المماليك، وتواتر الأخبار بأن في وظائفها وسلطنتها ميدانا فسيحا لكل ذي موهبة لاجتذاب أعداد كبيرة من أجناس مختلفة إلى مصر، فضلا عن ترغيب التجار لأهل المجلوبين بالفرص الغنية التي تنتظر أطفالهم في مصر[2].

وكان السلاطين المماليك يدفعون المبالغ الضخمة ثمنا لبعض المماليك ويجزلون العطاء للتجار، ويهيئون لهم أماكن مناسبة لعرض تجارتهم، فخصصوا أسواقا معينة في القاهرة عرفت بأسواق الرقيق مثل خان مسرور[3].

وأوجدوا وظيفة "تاجر المماليك" أو " معلم المماليك " الذي يعد همزة الوصل الرئيسة بين الدولة والبلاد التي يأتون منها[4]. وبالعادة يطلق عليهم لقب "خواجة" أو "الخواجا"[5]. وكان أغلبهم من النصارى واليهود[6]. ومن الأمثلة عليهم في عهد السلطان الأشرف شعبان الخواجا ناصر الدين محمد بن مسلم[7]، وقد وجد هؤلاء التجار الحفاوة من السلطان المملوكي حتى أن الدولة كانت تسامحهم بما يلزم عليهم من الضرائب نظير ما يجلبونه من المماليك[8].

---

(1) ضومط، الدولة المملوكية، ص٢٩.

(2) زقلمة، أنور، المماليك في مصر، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م، ص١٨-٢٢.

(3) خان مسرور موضعه بالقرب من باب الزهومة والصناعة المجاورة للجامع الأزهر، ويجاوره حجرتان للرقيق ودكة للمماليك. االمقريزي، الخطط، ج٢، ص٨٤-٨٥.

(4) ماجد، نظم، ج١، ص١٣.

(5) القلقشندي، صبح، ج٦، ص١٢، ١٥. وأنظر ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص٥٩٨.

(6) ماجد، طومان باي، ص١٧.

(7) أحد كبار التجار في مصر. توفي سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م. ابن حجر، إنباء، ج١، ص٩٩.

(8) القلقشندي، صبح، ج٤، ص١٣٨-١٣٩، ج١٣، ص٣٨-٤٠.

إلى جانب التجارة، حصل السلاطين على المماليك الجدد عن طريق المهاداة من ملوك وأمراء بعض الدول المجاورة الصديقة أو الحليفة[1] كنوع من توطيد علاقات الود والصداقة بين الدولتين، ومن الشواهد التاريخية على ذلك الهدية الكبيرة التي أرسلها ملك النوبة إلى السلطان الأشرف شعبان في سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م، وكان من ضمنها رقيق المماليك النوبيين كنوع من حسن الجميل عما قدمه الجيش المملوكي من تضحيات في سبيل إرجاع ملكه الذي اغتصبه منه أولاد الكنز وحلفائهم عرب العكارمة[2].

واحتوى الجيش المملوكي أثناء حكم السلطان الأشرف شعبان على خليطٍ من المماليك من مختلف الجنسيات كالأتراك والجركس والروم والمغول والبلغار والآص[3]، فضلاً عن العناصر المحلية المتمثلة بالأكراد والتركمان والعربان[4].وكان تفوق إحدى هذه الفئات على غيرها يعود إلى السلطان القائم بالحكم فإذا كان سلطاناً قوياً يحكم بنفسه، فإنه عادةً ما يستخدم أبناء جنسه كما فعل السلطان الظاهر بيبرس عندما رحب بالمماليك القفجاق، ويذكر ذلك القلقشندي بقوله: "ومالت الجنسية إلى الجنسية"[5]

أو يلجأ السلطان إلى استحداث فرقة معينة مخالفة لجنسه كما فعل السلطان قلاوون عندما استقدم أعداداً كبيرة من الجراكسة وشكل منهم فرقة لمساعدته ضد منافسيه الأمراء المماليك[6].

---

(1) العمري، مسالك الأبصار، ص٤٦.

(2) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٢٢.

(3) الآص أو اللان: اللان بلاد واسعة في طرف أرمينيا قرب باب الأبواب مجاور للخزر. أنظر القلقشندي، صبح، ج٤، ص١٨٩. حاشية ١.

(4) العمري، مسالك الأبصار، ص٩٣. القلقشندي، صبح، ج٤، ص١٨٩. المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٧٥٥-٧٥٦.

(5) صبح، ج٤، ص٤٥٨. وانظر العبادي، الأيوبيين والمماليك، ص١٨٣-١٨٤.

(6) المقريزي، الخطط، ج٣، ص٦٥- السلوك، ج١، ق٣، ص٧٥٦. ابن إياس، بدائع، ج١، ق١، ص٣٦٢.

ولكن اذا كان السلطان القائم بالحكم مسلوب الإرادة كما هو الحال في بداية حكم السلطان الأشرف شعبان، فإن الغلبة تكون لقائد الجيش (الأتابك) ولكبار الأمراء المتنفذين فيتحكمون عندئذ بأعداد المماليك وجنسياتهم حسب أهوائهم ومصالحهم[١].

وتميز العنصر التركي بالأفضلية والسيادة طيلة فترة حكم سلاطين دولة المماليك الأولى بشكل عام[٢]، وفترة حكم السلطان الأشرف شعبان خاصة، لأن معظم سلاطين دولة المماليك الأولى كانوا من الترك القفجاق الذين سمّوا فيما بعد بالمماليك البحرية[٣]، مثل أيبك وقطز وبيبرس وقلاوون، ونتيجة لذلك فإنه من المألوف أن يعتمد هؤلاء السلاطين على أبناء جنسهم في إدارة الدولة والجيش لما عرف عنهم من صفات الجندية الصلبة كالفروسية والشجاعة والإقدام وتحمل المصاعب[٤]، حتى أن بعض السلاطين أرسلوا أبناءهم إلى تلك البلاد لكي يتعلموا اللغة التركية لينشأوا على العادات الخشنة كي يصبحوا مؤهلين لتولي السلطنة فيما بعد[٥].

ومما لا شك فيه أن العنصر التركي شكل أغلب عناصر الجيش المملوكي أثناء حكم السلطان الأشرف شعبان لدولة المماليك بدليل أن السلطان الأشرف شعبان نفسه ينتمي إلى الجنس التركي كما أن الأتابك يلبغا العمري كان تركياً مملوكاً للسلطان الناصر حسن[٦].

---

[١] ابن حجر، الدرر، ج٥، ص٢١٣.

[٢] ضومط، الدولة المملوكية، ص٢٤.

[٣] أبو الفداء، المختصر، ج٢، ص٢٨٥. الذهبي، سير، ج٢٣، ص١٩١-١٩٢. ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٤٤٣.

[٤] الشريدة، آمنة، "الجيش في بلاد الشام في العصر المملوكي"، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، اربد، ١٩٩٣م، ص٥٩.

[٥] ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص٦٠١.

[٦] ابن قاضي شهبة، تاريخ، مج٣، ص٣٠٥-٣٠٦.

أما العنصر الجركسي فوجد العديد منهم ضمن أفراد الجيش المملوكي إبّان حكم السلطان الأشرف شعبان. فحين قضى السلطان الأشرف شعبان على ثورة المماليك اليلبغاوية سجن وقتل العديد منهم ونفى البعض الآخر إلى الكرك، وكان للجراكسة دور كبير في هذا الصراع، إذ اشتملت جماعة اليلبغاوية ممن نفوا إلى الكرك على العديد منهم كبرقوق العثماني وجركس الخليلي[1] وغيرهم[2].

وبقي الجراكسة اليلبغاوية بالمنفى حتى تشفّع بهم الأمير منكلي بغا الشمسي والأمير طشتمر الدوادار[3].

فالأول كاتب السلطان بقوله: "إن في إتلافهم قص جناح الدولة وإنهم ناشئة من الجند يحتاج الملك لمثلهم". أما الثاني فبث الرعب في قلب السلطان وحذره من مغبة بقائهم بالشام[4].

ولما عادوا إلى القاهرة تكتلوا مع إخوانهم ممن بقي بقلعة الجبل، وتنامت قوتهم حتى استطاعوا إزالة حكم أسرة قلاوون وإقامة دولتهم المستقلة على يد السلطان برقوق سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م[5].

ولا شك في أن النظام العسكري المملوكي، بُني أساساً على التربية المتقنة في الطباق[6]. فالسلطان ينتقي من المماليك المشتروات صغار السن[7]، ويرسلهم للعرض على أطباء متخصصين لفحصهم وتفقد أحوالهم الجسمانية[8]، وقد كان الظاهر بيبرس البندقداري (ت ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م) أول من

---

[1] الأمير جركس الخليلي من مماليك السلطان برقوق، توفي سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م. ابن حجر، الدرر، ج٢، ص٧٠.

[2] ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص٣٧-٣٨. ابن صصري، الدرة المضيئة، ص١٢. ابن تغري بردي، مورد اللطافة، ص١٠.

[3] الأمير طشتمر بن عبدالله المحمدي اللفاف ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م. ابن حجر، إنباء، ج١، ص١٦٥. ابن تغري بردي، الدليل الشافي، ج١، ص٣٦٢.

[4] ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٥٤٩-٥٥٠.

[5] المقريزي، السلوك، ج٣، ق٢، ص٤٧٧-٤٧٩. ابن حجر، إنباء، ج٢، ص٩٢. القاضي عبدالباسط، نيل الأمل، ج١، ورقة ١٣٩/ب.

[6] الطباق مكان تربية المماليك وتعليمهم، بلغ عددها اثنا عشر طبقاً منها قدر حارة وتشمل على عدة مساكن وتتسع لألف مملوك، ووجدت هذه الطباق في أماكن متفرقة داخل القاهرة وخارجها ولا سيما في قلعة الجبل. االمقريزي، الخطط، ج٣، ص٦٥. الظاهري، زبدة، ص٢٤. بولياك، أ، الإقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان، ترجمة عاطف كرم، منشورات دار المكشوف، بيروت، لبنان، ص٢٠.

[7] ابن حجر، الدرر، ج٢، ص٦٤-٦٥. ابن تغري بردي، النجوم، ج٩، ص١٥٢. ابن إياس، بدائع، ج١، ق١، ص٨٧.

[8] االمقريزي، الخطط، ج١، ص٥٠ – السلوك، ج٢، ق٢، ص٥٢٤-٥٢٥.

بنى الطباق للمماليك بجانب برج الزاوية المجاور لباب القلعة، كما بنى طباقين آخرين في القلعة كانا يشرفان على رحبة جامع القلعة[1].

وفي عهد السلطان الأشرف خليل (ت ٦٩٢هـ/ ١٢٩٣م) عمد إلى ترتيب المماليك كل منهم في الطباق المخصص لبني جنسه[2]، مما خلق نوعاً من العنصرية والتباغض بين أفراد المماليك أنفسهم انعكس على وجودهم داخل الجيش المملوكي، كذلك بنى الناصر محمد ت ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م في سنة ٧١٢هـ/ ١٣١٢م طباقاً جديداً بساحة الإيوان في القلعة بعد أن هدم قصر الرفرف[3] الذي شيده أخوه الأشرف خليل على مكان عال يشرف على الجيزة للجلوس فيه[4].

وبعد إنزال المماليك في الطباق المعد لكل منهم حسب جنسه تبدأ المرحلة الأولى في مسيرة المملوك، وهي تعليمهم المهارات الثقافية العامة، حيث يعهد لكل طائفة منهم فقيه يحضر إليهم يومياً لتعليمهم القراءة والكتابة ومعرفة الخط وحفظ بعض آيات القرآن الكريم، وصقلهم بالآداب الإسلامية والحرص على ملازمتهم الإذكار وإقامة الصلوات، حتى إذا شب الواحد منهم علمه الفقيه شيئاً من الفقه[5]. وبذلك تنتهي المرحلة التي اصطلح على تسميتها "رسم الكتابة" وسمي مماليكها "المماليك الكتابية"[6]. ثم تبدأ المرحلة الثانية وهي بعد أن يبلغ المملوك سن البلوغ ينتقل إلى التعليم الحربي ويتسلم كل طائفة منهم معلم خاص يعلمهم السباحة وركوب الخيل واللعب بالسيف والضرب بالرمح والقذف بالأطواق ورمي النشاب ولعب الكرة[7]، وهؤلاء المعلمون هم

---

(1) ابن شداد، الملك الظاهر، ص٣٤١-٣٤٢. العريني، السيد الباز، المماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ص٨٥. ماجد، نظم، ج٢، ص١٠.

(2) المقريزي، الخطط، ج٢، ص٣٢٧. ضومط، الدولة المملوكية، ص٢٨.

(3) الرفرف من جملة دور القلعة عمره الأشرف خليل وكان يجلس فيه حتى هدمه الناصر محمد سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م، وعمل بجواره برجاً نقل إليه المماليك. المقريزي، الخطط، ج٣، ص٦٣.

(4) المقريزي، الخطط، ج٣، ص٦٣-٦٥. حسن، مصر، ص٤٠٨.

(5) المقريزي، الخطط، ج٣، ص٦٥. ماجد، نظم، ج١، ص١٥. ضومط، الدولة المملوكية، ص٢٩.

(6) المقريزي، الخطط، ج٣، ص٦٥- السلوك، ج٣، ق٢، ص٦٠١. العريني، المماليك، ص٨٤، ٨٩.

(7) المقريزي، الخطط، ج٣، ص٦٥-٦٦- السلوك، ج٢، ق٢، ص٥٢٤-٥٢٥. ابن تغري بردي، النجوم، ج٦، ص١٣٠.

أما المرحلة الجديدة من حياة الجندي المملوكي فهي مرحلة التدرج بالوظائف العسكرية من رتبة إلى أخرى مع استمراره في تعلم فنون الفروسية المختلفة، فمن رتبة أمير خمسة[١] إلى أمير عشرة[٢] وأمير طبلخاناه[٣] .

إذا واتاه الحظ بلغ أمير مائة[٤]، وحتى أن بعضهم وصل إلى مرتبة نائب السلطنة في مصر أو الشام ومنهم من بلغ منصب السلطنة نفسها[٥].

---

[١]هذه الرتبة أقل رتب الجيش منزلة وأعدادهم ضئيلة في دولة المماليك وخاصة في مصر ويكون بخدمة صاحبها خمسة مماليك وغالبية هذه الطبقة من الأمراء الأولاد الذين توفى آباؤهم فينعم السلطان عليهم بهذه الرتبة إقرارا منه بالخدمات التي قدمها سلفهم للجيش وللدولة وحسب قول القلقشندي "هم في الحقيقة كأكابر الجند". أنظر القلقشندي، صبح، ج٤، ص١٥. العريني، المماليك، ص١٥٢. ضومط، الدولة المملوكية، ص٦٥.

[٢] هذه الرتبة يتولاها أمير يتولى الإشراف على عشرة مماليك، وقد يزداد مماليك أحدهم ليصبحوا عشرين مملوكا، ولكن لا يعد إلا من أمراء العشروات ومن هذه الطبقة يعين صغار الولاة. ووظائف المرتبة الثالثة مثل الدواذار الثالث وأمير آخور والثالث ورأس نوبة الثالث وغيرهم. العمري، مسالك الأبصار، ص٦٠، ٩٣. القلقشندي، صبح، ج٤، ص١٥. Ayalon, David. The System of Payment In Mamluk Military Society. Journal of the Economic and Social History of The omient. Leiden EJ. 1988. Vil.I, P.46

[٣] وهم ممن يكون تحت إمرة أحدهم أربعين فارسا، وقد يزداد الواحد منهم إلى سبعين أو ثمانين فارسا ويكون ذلك بحسب إقطاع الأمير الذي منحه إياه السلطان ولا تعطى هذه الإمرة لأقل من أربعين فارسا. وسبب تسميتهم هكذا لأحقيتهم في دق الطبول على أبواب قصورهم أو في المواكب كما يفعل السلطان ويتولى أمراء الطبلخاناه الوظائف من المرتبة الثانية كالداوادار الثاني وأمير آخور الثاني ورأس نوبة الثاني وغيرهم. العمري، مسالك الإبصار، ص٦٠، ٩٣. القلقشندي، صبح، ج٤، ص١٥. الظاهري، زبدة، ص٩٥. العريني، المماليك، ص١٥١.

[٤] هذه الرتبة من أهم وأعظم الرتب العسكرية المملوكية، ويتولى صاحبها الإمرة على مائة فارس، وقد يزدادون عشرة أو عشرين ويكون مقدما على ألف فارس من أجناد الحلقة في وقت القتال، ولذلك يقال له أمير مائة مقدم ألف ويتميزون بدق الطبول على أبوابهم سواء كانوا يشغلون وظيفة بالدولة أو بدون وظيفة ومن هذه المرتبة يكون أكابر الوظائف مثل نواب السلطنة والولايات والأقاليم وأتابك العساكر وأمير سلاح وأمير مجلس وغيرهم. العمري، مسالك الأبصار، ص٩٣. القلقشندي، صبح، ج٤، ص١٤. الظاهري، زبدة، ص٩٤. بولياك، الإقطاعية، ص٣٥. العريني، المماليك، ص١٤٧-١٤٨.

[٥] العريني، المماليك، ص١٣٣.

ولا بد من التأكيد على أنه خلال إقامة المملوك في الطباق، كان يخضع لنظام قاس، فقد كانت تحصى عليه حركاته وسكناته، ومن هنا تخرج المماليك وهم على درجة عالية من الضبط المتين، طائعين لرؤسائهم وللسلطان. وبدت الدولة قوية في أول عهدها بهؤلاء المماليك الذين كان مثلهم الأعلى أن يظلوا الطبقة الحاكمة المميزة لأنهم كانوا أعظم الأجناد شأنا وقدرا، وأوفرهم إقطاعا وأقربهم إلى السلطان[1].

ولكن جلب المماليك لم يقتصر على الأرقاء الصغار، إنما جيء بالأجلاب[2] كبار السن ومع مرور الزمن كثر عدد الرجال من الأجلاب، مما أدى إلى انخفاض مستوى التعليم في صفوف المماليك السلطانية[3] في الدين والتدريب. وغالبا ما عرفوا باسم أساتذتهم كالأشرفية في عهد السلطان الأشرف شعبان.

والمماليك السلطانية، كانوا يعدون العمود الفقري للجيش المملوكي وذلك قبل تطعيمهم بالأجلاب الكبار، وكثيرا ما شارك المماليك السلطانية في تقديم خدمات جليلة لدولة المماليك وبخاصة في القضاء على الفتن والثورات، ففي سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م شارك المماليك السلطانية مشاركة فعالة في القضاء وعلى فتنة كبيرة حدثت بين الأمراء المماليك بعد مقتل الأمير يلبغا

---

(1) المقريزي، الخطط، ج٣، ص٦٦. حسن، المماليك البحرية، ص٣٤.

(2) الأجلاب: هم المماليك الذين يجلبون من بلادهم كبارا، وكانوا هناك يعملون بالمهن المختلفة، ولم يكونوا على دراية تامة بالفروسية، وقد أساؤوا إلى الناس وظلموا وجاروا وكثرت شرورهم في مصر والشام، وقد كثر الأجلاب في دولة المماليك الثانية. غوانمة، تاريخ شرق الأردن (القسم السياسي)، ص٢٨٠، حاشية ٦٩.

(3) المماليك السلطانية: هذه الفرقة من أهم الفرق العسكرية المملوكية وأعظمهم شأنا " فهم أعظم الأجناد شأنا، وأرفعهم قدرا، وأشدهم إلى السلطان قربا، وأوافرهم اقطاعا، ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة". ويقسم المماليك السلطانية إلى أربعة أقسام وهي المماليك الجلبان والمماليك الخاصكية والمماليك القرانيص ومماليك الأمراء (المماليك السيفية). القلقشندي، صبح، ج٤، ص١٥-١٦. الظاهري، زبدة، ص٩٧-٩٨. ضومط، الدولة المملوكية، ص٣٢-٣٤. Ayalon: Op.Cit., P, 217-221.

العمري[1]، وبعد سنة شاركوا في القضاء على ثورة الأمير أسندمر الناصري أتابك العساكر والأمير خليل بن قوصون[2] ومن معهما من المماليك اليلبغاوية، حيث استطاعوا القبض عليهما وتشتيت المماليك اليلبغاوية وتثبيت حكم السلطان الأشرف شعبان على دولة المماليك[3].

ولذا فقد تلقى المماليك السلطانية أفضل تدريب عسكري، وأتقنوا فنون الفروسية كلها، وكانوا القوة الرئيسة في الحملات. ولكن يبدو أن هذا الأمر تغير مع تغير الزمن، وذلك ناتج عن قصر المدة التي عاشها المماليك في الطباق، وعن تنوع فئات المماليك السلطانية، وقصر مدد حكم السلاطين، إضافة إلى اعتلاء السلطنة عدد لا بأس به من السلاطين الأطفال[4].

إن كثرة تغير السلاطين، بعد وفاة السلطان الناصر محمد سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤١م، وما رافقها من تعدد في الفرق المملوكية، أوجب على السلطان أو الوصي عليه تخريج عدد من الأجلاب في أقصى سرعة ممكنة، ليؤازروه في المحن والخطوب[5].

ولا شك في أن سرعة تخريج المماليك، انعكس على قلة ولائهم، وفقدت رابطة الأخوة في الجندية جوهرها، حتى غدت أحزابا سياسية منقسمة على نفسها. وانعدمت العلاقة بين المملوك

---

(1) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٤١. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٥٥.

(2) الأمير خليل بن قوصون وهو ابن عمة السلطان شعبان. توفي سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م. انظر ابن حجر، إنباء، ج١، ص١٣٨.

(3) ابن دقماق، الجوهر، ج٢، ص٢٣١-٢٣٢. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٥٠-١٥١. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٦٩-٧٠.

(4) ضومط، الدولة المملوكية، ص٧٦.

(5) المرجع نفسه، ص٧٧.

الصغير والمملوك الكبير لجهة التوجيه والإرشاد، وقل ولاء المملوك لأستاذه الذي عمل على تربيته وعتقه، وقل احترام وانصياع المماليك لطواشيهم ومقدميهم[1].

فالانقسام الذي حدث بين الأمراء الترك وما تبعه من ازدياد التنافس بينهم صار عاملاً من عوامل ضعف دولة المماليك الأولى وسقوطها بالتالي؛ إذ فضلاً عن اضعاف شخصيات السلاطين أو تولية صغارهم ممن لا يحسنون التصرف، فإن مقاليد الأمور حين أصبحت بيد الأمراء الترك نتيجة هذه الأمور ساعدت على ازدياد ثرائهم لدرجة مكنتهم من شراء أعداد كبيرة من المماليك أملاً في ازدياد نفوذهم وإمكان اغتصاب السلطنة وأبرز دليل على هذا الأتابك يلبغا العمري الذي ورث مماليك وأموال الأمير صرغتمش[2]، ومن ثم أخذ في شراء أعداد كبيرة من المماليك من ماله الخاص بلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف مملوك جعل منهم نواباً لأقاليم الدولة ليكونوا له عوناً وسنداً ضد منافسيه، أما السلطان الأشرف شعبان فكان سلطاناً بالاسم مجرداً من الصلاحيات وامتيازات السلطة[3].

وقد رأينا فيما مضى أنه لم ينقذ السلطنة المملوكية من سطوة الأمير يلبغا العمري سوى انقسام اليلبغاوية أواخر سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م بسبب سوء سياسة يلبغا نفسه. وذلك أنه قتل عدداً كبيراً منهم، كما تنوع في تعذيبهم على أدنى جرم، فأضمروا له السوء ولم يتردد السلطان الأشرف

---

[1] ضومط، الدولة المملوكية، ص٧٧.

[2] الأمير سيف الدين صرغتمش الناصري، تقدم بالرتب حتى أصبح مدبراً للمملكة بعد قتل الأمير شيخو، سجن بالاسكندرية سنة ٧٥٩هـ/ ١٣٥٧م ثم توفي بعد ذلك. الصفدي، أعيان العصر، ج٢، ص٥٥٥.

[3] ابن حبيب، درة الأسلاك، ج٣، ورقة ٥١/ب. ابن حجر، الدرر، ج٥، ص٢١٣. ابن قاضي شهبة، تاريخ، مج٣، ص٣٠٥-٣٠٦.

شعبان في الاتفاق مع اليلبغاوية الكارهين له حتى قتلوه في ١٢ ربيع الآخر سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م[١].

نستخلص من ذلك أن الأمير يلبغا العمري مارس جبروتا وتسلطا في إدارته لشؤون الدولة والحكومة مما أثار روحا من الكراهية حوله، كذلك نلاحظ كثرة العساكر والأجناد والمماليك الذين كانوا يعملون لخدمته ولصيانة مصالحه الكثيرة، لكن تسلطه على الرعية والمماليك ترجم تمردا ضده من قبل مماليكه وخاصة طائفة الأجلاب الذين ازداد نفوذهم واستقوى أمرهم مما عجل بنهايته على يدهم، بل أنهم نجحوا في كسب السلطان الأشرف شعبان إلى جانبهم ضده بسبب ادراكهم حقيقة موقف السلطان الأشرف شعبان نحوه وتسلطه عليه وعلى حقوقه. والأهم من هذا كله أن روح الأستاذية بين الأمير يلبغا ومماليكه اليلبغاوية اهتزت منذ تطاوله عليهم وتنكيلهم ولذلك قل ولاءهم نحوه مما أدى إلى ثورتهم عليه.

ففي عهد السلطان الأشرف شعبان الذي تميز بالضعف والفوضى وتسلط كبار الأمراء عليه ازدادت أعداد الفرق المملوكية وتشعبت وتشابكت وتنازعت النفوذ والبقاء.

فالمماليك السلطانية كما مر بنا سابقا ينقسمون إلى أربعة أقسام وهم الجلبان[٢] والخاصكية والقرانيص والمماليك السيفية، وجميع هذه الفئات حاولت الاستحواذ على أكبر قدر ممكن من السلطة والنفوذ، فالمماليك الجلبان أو كما عرفوا بالمشتروات[٣] كالمماليك الأشرفية، كانوا أعلى فرق الجيش تدريبا وأحسنهم نظاما من سائر المماليك وأرفعهم مكانة وأكثرهم إقطاعا حيث يخضعون لتربية عسكرية

---

[١] ابن حبيب، درة الأسلاك، ج٣، ورقة ٥١/ب. ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٥٤٣. ابن خليل، دول الإسلام، ص٧٣.

[٢] المماليك الجلبان. هم المماليك الصغار السن. يشتريهم السلطان ويقوم على تربيتهم بالطباق تربية محكمة صارمة. ضومط، الدولة المملوكية، ص٣٤. حاشية ٦٧. البقلي، التعريفات، ص١٦.

[٣] المقريزي، الخطط، ج١، ص١٥٩. ابن تغري بردي، النجوم، ج٩، ص٩٨-٩٩. الظاهري، زبدة، ص٩٨.

في الطباق ثم يعتقهم السلطان من الرق وينعم عليهم بالخيل والسلاح والإقطاعات[1]. أما الخاصكية فهم حرس السلطان الذين يحيطون به في خلواته ويلازمونه في كل تحركاته ويدخلون عليه دون إذن مسبق[2] وهم المرشحون ليكون منهم الأمراء والنواب وأصحاب المناصب العليا في الدولة[3]، وكثيراً ما اصطدم هؤلاء مع غيرهم من فئات المماليك، ففي سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م استخدمهم السلطان الأشرف شعبان في القضاء على فتنة الأمير ألجاي اليوسفي وأمرائه وكافأ بعضهم بالإقطاعات والإمريات نظير جهودهم كالأمير منجك اليوسفي الذي جعله نائباً للسلطنة بمصر وفوض إليه أمور السلطنة[4].

أما المماليك القرانيص فهم مماليك السلاطين المتوفين أو المعزولين والذين انتقلوا إلى الخدمة عند السلطان الأشرف شعبان وهؤلاء يسمون "القرانصة"[5]. ونتيجة لكثرة تغير السلاطين منذ وفاة الناصر محمد حتى عهد السلطان الأشرف شعبان فمن الطبيعي أن تكثر أعداد هؤلاء المماليك. وقد تميز هؤلاء المماليك بالقوة والاستئثار بالسلطة في بداية عهد السلطان الأشرف شعبان كالأمير يلبغا العمري والأمير طيبغا الطويل وكلاهما كانا من مماليك السلطان الناصر حسن[6]، ولكن يبدو أن العلاقة بين مماليك السلطان الأشرف شعبان ومماليك السلاطين السابقين كانت علاقة غير ودية، كما تميزوا هم أنفسهم بأن رابطة الخشداشية (الزمالة) كانت مفقودة بينهم،

---

(1) القلقشندي، صبح، ج٤، ص١٥-١٦. البقلي، التعريفات، ص١٦.

(2) المقريزي، الخطط، ج٣، ص٢١٤. ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص٦٠٥.

(3) الظاهري، زبدة، ص٩٧. ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص٦٠٥.

(4) ابن دقماق، الجوهر، ج٢، ص٢٣٥-٢٣٦. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢٢٥. ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٥٣.

(5) الظاهري، زبدة، ص٩٧. ضومط، الدولة المملوكية، ص٣٢.

(6) ابن حجر، الدرر، ج٢، ص٣٣٢-ج٥، ص٢١٣-٢١٥. ابن تغري بردي، المنهل، ج٧، ص٣٦.

لهذا لم يشكلوا فرقة عسكرية واحدة لانتساب كل فئة منهم إلى السلطان الذي أعتقهم، ولهذا فإن ولاءهم للدولة كان ضعيفاً[1].

وكذلك المماليك السيفية (مماليك الأمراء) وهم مماليك الأمراء الذين يتحولون إلى خدمة السلطان بعد أن يتوفى أساتذتهم أو يصادرون أو يسجنون أو أسقطت عن بعضهم الإمارة[2]، وهم يشبهون القرانيص في تعدد انتماءاتهم نتيجة تعدد أساتذتهم وبالتالي فإن رابطة الزمالة تكون هي الأخرى ضعيفة بينهم[3].

ويتميز المماليك السيفية بأنهم أقل تدريباً ومهارة من باقي المماليك السلطانية لعدم التزامهم بالتعلم بالطباق[4]. ومن الأمثلة عليهم في عهد السلطان الأشرف شعبان، مماليك الأمير منكلي بغا الشمسي الذي توفي سنة ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م، وكان عددهم مائتي مملوك، فأمر السلطان الأشرف شعبان بترتيبهم بالخدمة السلطانية ثم جعلهم في خدمة ولده الأمر علي[5]، كذلك في سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م احتاط السلطان الأشرف شعبان على جميع أملاك الأمير ألجاي اليوسفي وأخذ جميع مماليكه وصفح عنهم ثم جعلهم في خدمة ولديه الأمير علي والأمير حاجي[6].

أما مماليك الأمراء أو كما كان يطلق عليهم أجناد الأمراء، فهم من مشتريات الأمراء، ويتبعون لأمراءهم الذين يتولون الاعتناء بهم والإنفاق عليهم[7]، ومناشيرهم يصدرها أمراؤهم[8]، وقد شكل هؤلاء المماليك فرقة مستقلة عن باقي طوائف الجيش المملوكي إلا أنهم كانوا أقل تدريباً ومهارة من المماليك السلطانية، حيث تنقصهم التربية العسكرية في الطباق لكي يتقنوا فنون الثقافة والفروسية[9]، ولذلك كانت ترقيتهم بطيئة بالمقارنة مع المماليك السلطانية بسبب اقتصار مهامهم على خدمة أمرائهم فقط مقابل مرتبات معينة يقدمها لهم الأمراء[10].

---

[1] ضومط، الدولة المملوكية، ص٣٢. Ayalon: Op. Cit., P, 217-221.

[2] الظاهري، زبدة، ص٩٨. ماجد، نظم، ج١، ص١٤٨. العريني، المماليك، ص١٣٠-١٣١.

[3] ضومط، الدولة المملوكية، ص٣٣.

[4] ابن تغري بردي، النجوم، ج١٤، ص٧٠. ضومط، الدولة المملوكية، ص٣٣.

[5] ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص١١٢.

[6] ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٥٠.

[7] القلقشندي، صبح، ج٤، ص٦١-٦٢. Ayalon: Op. Cit, P. 44-45.

[8] العمري، مسالك الأبصار، ص٩٣.

[9] ابن تغري بردي، النجوم، ج١٤، ص٧٠. ضومط، الدولة المملوكية، ص٦٥.

[10] ضومط، الدولة المملوكية، ص٦٥.

ونتيجة لتفاوت الأمراء من حيث الوظيفة والقوة والثراء فإن أعداد مماليكهم تتفاوت أيضاً، فالأمير يلبغا العمري الذي عكف منذ توليه الأتابكية زمن السلطان حسن على شراء المماليك حتى بلغ عدد مماليكه ثلاثة آلاف مملوك[1]، فعد هؤلاء من الأسباب التي جعلته يتصرف في أمور الدولة كيفما يشاء، وهذا يشير إلى عدم التزام الأمراء باقتناء العدد المسموح به من المماليك الذي تنص عليها رتبهم العسكرية[2].

ومن الأسباب التي تؤدي إلى زيادة أعداد مماليك بعض الأمراء غضب السلطان على أحدهم فيلجأ عندئذ إلى نقل جميع أملاك الأمير المغضوب عليه إلى أحد خواصه أو إلى من يرى فيه الصلاح والمصلحة، ففي سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م وبعد القضاء على فتنة الأمير أسندمر الناصري، أنعم السلطان الأشرف شعبان على الأمير بيرم العزّي[3] الدوادار بتقدمة ألف وبإقطاع الأمير طغتمر النظامي[4] ووظيفته وجميع موجوده ومماليكه وحواصله بعد أن قبض عليه وسجنه[5].

---

[1] ابن قاضي شهبة، تاريخ، مج٣، ص٣٠٥-٣٠٦. ابن حجر، الدرر، ج٥، ص٢١٣.

[2] ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص٣١٣-٣١٤. ابن إياس، بدائع، ج١، ق١، ص٥٧٧.

[3] الأمير بيرم العزي توفي في حدود السبعين والسبعمائة للهجرة وهو أحد الأمراء الكبار في دولة السلطان شعبان. أنظر ابن حجر، الدرر، ج١، ص٥١٤.

[4] الأمير طغتمر النظامي تولى عدة وظائف في الدولة منها الدوادارية. توفي سنة ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م. أنظر ابن حجر، الدرر، ج٢، ص٢٢٣.

[5] ابن دقماق، الجوهر، ج٢، ص٢٣٠-٢٣١.

ويضاف إلى الفرق المملوكية السابقة فئة أجناد الحلقة[1] وهم أكثر فئات الجيش عدداً، وقد تألفت أعدادهم من بعض المماليك السيفية والقرانصة وأولاد السلاطين وأولاد الناس ومماليك أولاد الناس وأجناد الأمراء فضلاً عن بعض المتعممين والعرب والتركمان والأكراد وغيرهم[2].

بالنظر إلى هذا الخليط الذي احتواه الجيش المملوكي أثناء حكم السلطان الأشرف شعبان. نستنتج مدى التشعب والتشابك والتنازع بين هذه الفرق والفئات. زد على ذلك أن المماليك السلطانية في تلك الفترة قلت مكانتهم ومهابتهم تجاه طغيان مماليك الأمراء الذين زادت أعدادهم أضعافاً عن أعداد المماليك السلطانية، وفتح أساتذتهم أمامهم أبواب الترقية والتسلط، فحقدت الفرقتان كل على خصمه مما أذكى نار الفتن العنصرية فيما بينها.

وزاد النظام العسكري ضعفاً في عهد السلطان الأشرف شعبان حين سمح بترقية عدداً كبيراً من الأمراء متجاوزاً التدرج الطبيعي لنظام الترقية من رتبة إلى أخرى ضمن سلم رتب الجيش المعمول به بالدولة وهي من إمرة خمسة إلى إمرة عشرة ثم إمرة طبلخاناة ثم إمرة مائة تقدمة ألف[3].

وبالنظر إلى فرص الترقية في الجيش المملوكي نجد أنها لم تكن متساوية بين طوائف المماليك أنفسهم وإنما حددت ضمن اعتبارات ودوافع مختلفة منها علاقة السلطان مع أجناده المماليك، فكلما كان المملوك قريب المنزلة من السلطان كلما كانت فرصة ترقيته أسرع[4]، وبمقارنة ترقية المماليك السلطانية

---

(1) الحلقة: لفظ الحلقة مستمدة من كون الجيش يحيط بالسلطان، وقيل لأنهم كانوا يحيطون بالأعداء أثناء الحرب. القلقشندي، صبح، ج٤، ص١٦، حاشية رقم ٢. ضومط، الدولة المملوكية، ص٥٦.

(2) العمري، مسالك الأبصار، ص٦١، ٩٣. القلقشندي، صبح، ج٤، ص١٦.

(3) المقريزي، الخطط، ج٣، ص٦٥-٦٦- طرخان، المماليك الجراكسة، ص٢٣٢.

(4) حسن، المماليك البحرية، ص٣٠. العريني، المماليك، ص١٣٩. ضومط، الدولة المملوكية، ص٤٧.

مع مماليك الأمراء وباقي الأجناد نجد أن المماليك السلطانية كانوا أوفر حظاً من باقي طوائف المماليك الأخرى وذلك لقربهم من السلطان ولعصبيتهم ضد جميع العناصر الأخرى الدخيلة على بيئتهم ونظام تنشئتهم، ولأنهم في نظر أنفسهم وفي نظر المعاصرين لهم كذلك هم أرباب الفروسية المملوكية[1]. كما يزداد تطبيق هذا المفهوم على المماليك الخاصكية الذين كان لهم نصيب الأسد من الترقية العسكرية والإدارية بين فئات المماليك السلطانية ولا سيما بعد الإضطرابات والفتن التي تحدث في الدولة فيلجأ السلطان إلى ترقية من ساعده على تثبيت حكمه من الخاصكية[2].

فبعد الإنتهاء من فتنة الأمير يلبغا العمري سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م، رقّى السلطان الأشرف شعبان مجموعة من المماليك الخاصكية منهم إثنان إلى مرتبة الأمراء المقدمين وهما الأمير قطلو بغا جركس[3] والأمير أقطاي[4]، والباقي رقوا إلى إمرة عشرة، وجاءت هذه الترقية كمكافأة لهم على وقوفهم إلى جانب السلطان ضد الأتابك المتمرد[5].

ولما ثار الأمراء اليلبغاوية ضد مقتل أستاذهم وانتهت ثورتهم بالقبض عليهم من قبل المماليك السلطانية. رقّى السلطان الأشرف شعبان عدداً من خاصكيته[6]، ومنهم الأمير بيرم العزي الذي رقاه إلى رتبة أمير مائة تقدمة ألف، وأنعم عليه بالدوادارية الكبرى، حتى عدّ ذلك من النوادر، حسب أقوال المؤرخ ابن إياس[7].

---

(1) العريني، المماليك، ص٥٨.

(2) المرجع نفسه، ص١٣٤، ١٣٩.

(3) الأمير قطلو بغا جركس أحد الأمراء الكبار. توفي سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م. أنظر ابن حجر، الدرر، ج٣، ص٣٣٦.

(4) لم أعثر على ترجمته.

(5) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٤١. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٦٠.

(6) ابن دقماق، الجوهر، ج٢، ص٢٣٠. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٤٤.

(7) بدائع، ج١، ق٢، ص٥٨.

كذلك من دواعي الترقية وجود بعض الأمراء الذين وصفوا بالدهاء والمكر والنفوذ ضمن صفوف المماليك السلطانية وخاصة في عهد السلاطين الضعفاء وفترات الإضطرابات والفتن، فيحدث عندئذٍ أن يقفز المملوك من الجندية أو من إمرة عشرة إلى إمرة مائة مرة واحدة، وهو ما عبّر عنه بمصطلح العصر المملوكي (الطفرة) [١]، ففي سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م وبعد فتنة الأمير يلبغا العمري أنعم السلطان الأشرف شعبان على الأمير قرابغا الصرغتمشي[٢] بتقدمة ألف دفعة واحدة من إمرة عشرة وذلك نظير اشتراكه في القضاء على الأمير يلبغا ومماليكه[٣].

وبعد انفراد الأمير أسندمر الناصري أتابك العساكر بالنفوذ والسلطة سنة ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م، رقّى الأمير ألطنبغا اليلبغاوي[٤] إلى رتبة أمير مائة تقدمة ألف[٥]، كذلك أقرّ الأمير بيرم العزي داوداراً بتقدمة ألف وكان قبل ذلك جندياً لا غير[٦].

وفي سنة ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م أنعم السلطان الأشرف شعبان على الأمير طشتمر العلائي[٧] بالداوادارية الكبرى بإمرة طبلخاناه.

وقد انتقل إليها من الجندية دون أن يترقى بالرتب المعهودة[٨]، كذلك يعد السلطان برقوق وزميله الأمير بركة الجوباني[٩] من المماليك الذين ارتقوا دفعة واحدة من الجندية إلى إمرة

---

[١] طرخان، المماليك الجراكسة، ص٢٣٢. ضومط، الدولة المملوكية، ص٤٧.

[٢] الأمير قرابغا الصرغتمشي. توفي سنة ٧٧٣هـ/ ١٣٧١م. أنظر ابن حجر، الدرر، ج٣، ص٣٢٩.

[٣] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٣٩. ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٣٤.

[٤] الأمير ألطنبغا اليلبغاوي هو أحد مماليك الأمير يلبغا العمري توفي سنة ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م. أنظر ابن حجر، الدرر، ج١، ص٤٣٥.

[٥] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٤٤. ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٣٧. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٥٨.

[٦] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٤٤. ابن قاضي شهبة، تاريخ، مج٣، ص٢٩٦.

[٧] الأمير طشتمر العلائي. توفي سنة ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م. أنظر ابن تغري بردي، المنهل، ج٦، ص٣٩٥.

[٨] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٩٠. ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٤٥. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص١٠١.

[٩] الأمير بركة الجوباني هو أحد مساعدي السلطان برقوق في الوصول إلى الحكم وقد قام بثورة ضده فيما بعد. أنظر ابن تغري بردي، المنهل، ج٣، ص٣٥١.

طبلخاناه بعد أن اشتركا في الثورة التي قامت ضد السلطان الأشرف شعبان سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م[١].

أما صلة القرابة فلعبت دوراً كبيراً في ترقية بعض المماليك في عهد السلطان الأشرف شعبان، فأصبح القفز إلى الرتب العليا أمراً مألوفاً، ومن الأمثلة على ذلك الترقية السريعة للأمير ألجاي اليوسفي زوج أم السلطان الأشرف شعبان، ويصف ابن تغري بردي هذا الترقي المطرد الذي حظي به الأمير ألجاي بقوله "عظم قدر ألجاي كونه زوج أم السلطان، وصار أتابك العساكر، وبهذا استطال ألجاي في المملكة فإنه قبل زواجه بأم السلطان خوند بركة كان من جملة الأمراء المقدمين لا غير"[٢].

ومن الأمثلة الأخرى على صلة القرابة وعلاقتها بالترقية، وصول الأمير خليل بن قوصون ابن عمة السلطان الأشرف شعبان إلى مراكز متقدمة في الدولة كإشراكه للأمير أسندمر الناصري في الأتابكية[٣]، ولولا فشلهما في الثورة التي نويا القيام بها، لأصبح الأمير خليل سلطاناً بدل السلطان الأشرف شعبان بناءاً على الاتفاق الذي أبرم بينهما[٤].

ومن مساوئ نظام الترقية في عهد السلطان الأشرف شعبان ترقية ما يعرف بالخشداشية أو ما يرتبط به المماليك من صلات الزمالة في الرق والعتق والخدمة، ففي سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م تسلم الأمير أسندمر الناصري أتابكية الجيوش خلفاً لأستاذه الأمير يلبغا العمري وحدث أن دخل الأمير أسندمر في صراع مرير مع منافسيه المماليك الأمراء، لكنه استطاع التغلب عليهم في بداية الأمر بفضل خشداشيته

---

(١) المقريزي، السلوك، ج٣، ق٢، ص٤٧٦-٤٧٧. ابن تغري بردي، المنهل، ج٣، ص٢٨٦.

(٢) النجوم، ج١١، ص٤٧.

(٣) ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص١١.

(٤) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٥٢-١٥٣. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٦٨-٦٩.

مع المماليك اليلبغاوية ولذلك كافأهم بالترقية والوظائف، منهم من رقاه إلى رتبة الأمراء المقدمين كالأمير أزدمر العزي[1] أمير سلاح، والأمير جركتمر السيفي منجك[2] أمير مجلس، والأمير الطنبغا اليلبغاوي رأس نوبة النوب، وقطلقتمر العلائي[3] أمير جاندار، كذلك رقّى جماعة منهم إلى إمرة طبلخاناه وجماعة أخرى إلى إمرة عشرة[4].

ومن مسببات الترقية أيضاً اجتهاد ذوي النفوذ لدى السلطان أو الأتابك الوصي على العرش لإصدار الترقيات لمن يريدون من المماليك، فبعد مرور قرابة سنة على تولية السلطان الأشرف شعبان عرش السلطنة، بدأت سلسلة من الإنعامات الأميرية على بعض المماليك، وكانت هذه الإنعامات بوحي من أولئك الذين كانوا يحكمون السلطنة بصلاحيات مطلقة وفعاليات غير محدودة نظراً لصغر سن السلطان الأشرف شعبان[5]، كترقية الأمير شعبان بن الأتابك يلبغا العمري إلى إمرة مائة تقدمة ألف سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م[6]. وكذلك ترقية الأمير كمشبغا الحموي وهو أحد مماليك الأمير يلبغا إلى إمرة طبلخاناه[7].

---

[1] الأمير أزدمر العزي هو أحد خواص الأمير أسندمر الناصري، توفي سنة ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م. أنظر ابن حجر، الدرر، ج١، ص٣٧٨.

[2] الأمير جركتمر منجك السيفي توفي سنة ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م. أنظر ابن حجر، إنباء، ج١، ص١١١. ابن تغري بردي، المنهل، ج٤، ص٢٦٤.

[3] الأمير قطلقتمر العلائي أمير جاندار توفي سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م. أنظر ابن حجر، الدرر، ج٣، ص٣٣٩.

[4] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٤٤. ابن قاضي شهبة، تاريخ، مج٣، ص٢٩٦. ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٣٧.

[5] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٩٠. ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٢٢. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص١١.

[6] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٠٠. ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٢٣.

[7] ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٢٤.

وهكذا نلاحظ أن الترقيات العسكرية العشوائية في عهد السلطان الأشرف شعبان كانت وبالاً على دولة المماليك وعلى السلطان الأشرف شعبان نفسه، فلم يعد ولاء المملوك واخلاصه لسيده ورفاقه في الرق والعتق كما كان سابقاً، فالمصلحة الشخصية أخذت تتأصل في نفوس العساكر المماليك، نتيجة وصول العديد منهم إلى مناصب عليا في الدولة وهم ممن ليسوا أهلاً لذلك، إلى جانب عدم تجانس فئاتهم واختلاف ولائهم بين أمراء مختلفين. كل هذا أدى إلى زعزعة النظام العسكري المملوكي وبالتالي خروج المماليك عن الطاعة سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م عندما خرج السلطان الأشرف شعبان إلى الحجاز حاجاً. فالمماليك السلطانية ومماليك الأمراء ومماليك الأسياد وغيرهم من طوائف المماليك اشتبكوا مع حاشية القصر السلطاني وأسفر هذا الإشتباك عن فرض رأيهم على الجميع واستطاعوا عزل السلطان الأشرف شعبان وتوليه ولده الأمير علي سلطاناً للدولة، ثم تقاسم هؤلاء المماليك الإمريات فيما بينهم ورتبوا أمور الدولة بعد تمكنهم من السلطان الأشرف شعبان وقتله[1].

ويجدر أن نشير إلى الفساد الذي طرق نظام الإقطاع المملوكي. فمن المعروف أن الإقطاعات هي الوسيلة الوحيدة الممكنة لإعالة الجيوش المملوكية، فقد قسمت الأرض الزراعية في مصر إلى أربعة وعشرين قيراطاً، استأثر السلطان منها بأربعة قراريط. وخصص للأجناد عشرة قراريط، على حين وزعت القراريط العشرة الباقية على الأمراء[2]، وعلى الرغم من أن

---

[1] ابن دقماق، الجوهر، ج٢، ص٢٣٩. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢٧٥-٢٧٦. الخالدي، المقصد، ورقة ٧٨/أ.

[2] المقريزي، الخطط، ج١، ص٨٧. سرور، دولة بني قلاوون، ص٢٨٨.

الإقطاعات قد أعيد توزيعها أكثر من مرة فيما عرف آنذاك باسم الروك[1]، فإن هذه الأراضي ظلت وقفاً على السلطان والأمراء ومماليكهم، ولم يبق للمصريين غير زراعتها وتسليم محصولها إلى الحكام[2].

وكانت قيم الإقطاعات تحسب بالدينار الجيشي الذي لم يكن عملة جارية في الأسواق بل وسيلة حسابية لقياس الإقطاع، ثم أن قيمته لم تكن محدودة بدقة بل كانت تتأرجح من إقطاع إلى آخر[3]، ولهذا فإن المماليك كانوا يعيشون على الإقطاع الذي كان يتناسب تناسباً طردياً مع رتبهم العسكرية ومكانتهم الإجتماعية في الدولة[4] وتميزت مداخيل المماليك الإقطاعية بأنها لم تكن تخضع لعرف أو قانون ثابت، وإنما تأثرت بقوة السلطان ونفوذ الأمير ودهائه وطموحه ورضى السلطان أو غضبه عليه[5].

وفي بداية عصر سلاطين المماليك كان الاقطاع يتركز في مكان واحد، وبعد الروك الناصري[6] أصبح الإقطاع يتفرق في عدة جهات، "فصار بعض الجبي في الصعيد، وبعضه في الشرقية، وبعضه في الغربية إتعاباً للجندي وتكثيراً للتكلفة"[7] وهو ما يكشف عن أن الإقطاع

---

(1) الروك: مصدر الفعل الثلاثي راك ومعناه في الأصل مسح الأرض الزراعية في بلد من البلاد لتقرير الخراج المستحق عليه لبيت المال. البقلي، التعريفات، ص١٦٤.

(2) المقريزي، السلوك، ج١، ق٣، ص٨٤١-٨٤٢. سرور، دولة بني قلاوون، ص٢٨٨.

(3) العمري، مسالك الأبصار، ص٦١. القلقشندي، صبح، ج٣، ص٥٠٩.

(4) القلقشندي، صبح، ج٣، ص٥٢٥.

(5) طرخان، ابراهيم علي، النظم الاقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م، ص١٥٩. ضومط، الدولة المملوكية، ص١١٣.

(6) أمر الناصر محمد باجراء الروك للأراضي ما بين عامي ٧١٢هـ/ ٧١٥هـ/ ١٣١٣-١٣١٥م. أنظر ابن كثير، البداية، ج١١، ص٦٩. المقريزي، السلوك، ج٢، ق١، ص١٤٦. Holt: Op. Cit., P, 116-117.

(7) النويري، نهاية الأرب، ج٣٠، ص٣٢٠. المقريزي، الخطط، ج١، ص٨٩- السلوك، ج٢، ق١، ص١٠٣.

الواحد صار يتفرق في أقاليم مختلفة من البلاد والأهم من ذلك أن الإقطاع كان يتغير بتغير وظيفة صاحبه. والراجح أن السلاطين كانوا يقصدون من وراء ذلك عدم التمكين لنفوذ أي من الأمـــراء إذا ما استقروا فترة طويلة في إقطاعات دائمة.

بيد أن هذه السياسة التي سار عليها سلاطين المماليك في منح الإقطاعات، أثبـــت – علـــى المدى الطويل – أنها كارثة على الاقتصاد المملوكي، ذلك أن الأمير أو الجندي صاحب الإقطـــاع كان يعلم مسبقاً أنه لن يستقر به طويلاً، ومن ثم فإنه لم يكن يولي الأرض الزراعية أي اهتمام أو رعاية حقيقية. ومن هنا أهملت وسائل الري والصرف، كما كثرت حـــوادث انقطـــاع الجســـور، وعطش الأراضي الزراعية نتيجة إهمال المماليك لوسائل ضبط النهر[1]. وكان لتدهور الإنتـــاج الزراعي أثره على النظام السياسي الإقطاعي الذي قامت عليه دولة سلاطين المماليك. وبينما قـل اعتماد المماليك على عائد الأرض الزراعية، زاد معـــدل اعتمـــادهم علـــى الرواتـــب النقديـــة والمخصصات العينية التي كان السلاطين يصرفونها لهم. وحين لم يســـتطع الســـلاطين إشـــباع مطالب المماليك كثرت حوادث الشغب والتمرد والاعتداء على الناس في الشوارع والأسواق وهو ما حدث فعلاً في عهد السلطان الأشرف شعبان حين لم يستطع السيطرة على المماليك اليلبغاويـــة فأخذوا ينهبون الأسواق ويظلمون الرعية ويذيقونهم سوء العذاب[2]. ولما لـــم يســـتطع الســـلطان الأشرف شعبان تأمين مخصصات المماليك المرافقين له في طريقه إلى الحجاز، كان رد فعلـــهم عنيفاً، وقرروا قتله[3].

---

[1] قاسم، النيل، ص١٨.

[2] ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٥٤٤. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٤١.

[3] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢٧٩. السخاوي، الذيل التام، حوادث (٧٤٥هـ/ ٨٥٠هـ)، ص٢٨٩.

كذلك بعد وفاة السلطان الناصر محمد سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م، أصاب النظـــام الإقطـــاعي الخلل، بحيث أصبح بإمكان الجندي صاحب الإقطاع التنازل عن إقطاعه لبعض الأفراد نظير مبلغ من المال أو مقايضة الإقطاع بإقطاع آخر، وهذا ما سهّل وقوع الكثير من الإقطاعات فـــي يـد العامة من أصحاب الصناعات والمهن وباعة الأسواق، حتى أنه تخصص لعملية البيع سماســـرة معينون يطوفون على الأجناد ويرغبونهم بالنزول عن إقطاعاتهم أو مقايضتها بغيرها. فتـــأثرت الدولة لذلك نتيجة تلاعب المقطعين[1].

وجرت العادة أن يوزع السلطان الإقطاعات على الأمراء في أيام محدودة، حيث يقرأ مـــا يتعلق بالإقطاعات على مسامع الأمراء ويمضي السلطان ما يشاء منها[2]. أما الأجناد فيحصلـــون على إقطاعاتهم من الأمراء الذين يوزعونها بينهم حسب ما يراه هؤلاء مناسباً ثم يقدّمون لديـــوان الجيش أسماء الجنود وإقطاع كل واحد منهم على شرط أن يبلغ حجم إقطاعـــهم ثلثـــي الإقطـــاع الممنوح لأحدهم ويبقى الثلث لخاصته[3]. وقد تعمل الدولة على تحديد إقطاعات الجند عند إصـدار المنشور الإقطاعي، وما يبقى من الإقطاع لخاص الأمير ولا يسمح للأمير بالاعتداء على حقـوق جنوده وله الحق في التخلي عن جزء من خاصته لأجناده اذا ما رغب في ذلك، وليس له فصـــل أي جندي منهم إلا بسبب مقنع وبعد موافقة السلطان[4].

ولكن حدث تطور في هذا الجانب في عهد السلطان الأشرف شعبان سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م حينمـا أصدر مرسوماً سلطانياً ساوى فيه بين الجند وأمرائهم بالإقطاع، بحيث يأخذ الأمـــير نصـف الإقطـــاع

---

[1] المقريزي، الخطط، ج٣، ص٧٩-٨٠.

[2] الظاهري، زبدة، ص٧٣. ماجد، نظم، ج١، ص١٤١.

[3] النويري، نهاية الأرب، ج٨، ص٢٠٧-٢٠٨. المقريزي، الخطط، ج٣، ص٧١.

[4] النويري، نهاية الأرب، ج٨، ص٢٠٧-٢٠٨. ماجد، نظم، ج١، ص١٤١.

والنصف الآخر للأجناد[1]، وهو ما دعا المقريزي إلى القول "أن الجند قد ضاقت أحوالهم وسيطر الأمراء على إقطاعاتهم، ولم يتمكنوا في الكثير من الأحوال من الحصول على شيء منها"[2].

وخلاصة القول أن النظام الاقطاعي في عهد السلطان الأشرف شعبان أصابه الخلل. ومما زاد الأمر سوءاً حدوث المجاعات وانتشار الأوبئة وخراب الزراعة لانخفاض مياه النيل، مثلما حدث في السنوات ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م[3]، ٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م[4]، ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م[5]، ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م[6]، ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م[7]، وفي بعض تلك الأزمات هلك الكثير من السكان وتضررت معظم القرى، إلى جانب نفوق الكثير من المواشي وخراب المزروعات.

وبدون شك، فإن المساوئ التي تسرّبت إلى النظام العسكري المملوكي، انعكست سلبياً على التنظيم الإداري، لأن القيّمين على الإدارة المملوكية كانوا من أمراء الجيش، فضلاً عن قلة ضئيلة من المتعممين أبناء البلاد الأصليين[8]. فضعف الجيش المملوكي وصغر سن السلطان الأشرف شعبان، فضلاً عن انشغال الأمراء المماليك بمصالحهم الشخصية ونفوذهم وسوء الأوضاع الداخلية بسبب موجات المجاعات والأوبئة، كل هذا شجّع الملك القبرصي بطرس الأول لوزنيان على الإغارة على الإسكندرية. ومر بنا أن غزو الإسكندرية كان سهلاً هيناً ومغنماً وفيراً، مما

---

(1) ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٣٤٠. ابن قاضي شهبة، تاريخ، مج٣، ص٢٧٤.

(2) السلوك، ج١، ق٣، ص٨٦٥.

(3) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٨٥. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٦-٧.

(4) ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٣٠٠-٣٠٦. ابن حجر، إنباء، ج١، ص٣٣.

(5) ابن حبيب، تذكرة النبيه، ج٣، ص٣١٣.

(6) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢١٨، ٢٢١. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص١٢٥.

(7) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢٣٣-٢٣٤. ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٥٤.

(8) ضومط، الدولة المملوكية، ص٧٩.

شجع الصليبيون على العزم قدماً للقيام بعمليات هجومية أكثر ضد الثغور المملوكية من أجل التخريب والهدم من ناحية والسلب والنهب من ناحية أخرى.

## ٢-الأمراء

تميزت الحياة السياسية منذ سلطنة أحفاد الناصر محمد بن قلاوون باستمرار منهج التآمر. حيث بدأ يظهر تسلط الأتابكة على السلاطين الأطفال من أبناء بيت قلاوون بشكل بارز ومتعسف، ففي ربيع الآخر سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م وقعت حركة تمرد الأمير يلبغا العمري الأتابك ضد السلطان الأشرف شعبان؛ إذ بلغ يلبغا درجة كبيرة من القوة والسلطة بحيث أهلته إلى تعين سلطان آخر إلى جانب السلطان الحاكم بل هو أخوه الأمير أنوك؛ فأصبح في دولة المماليك سلطانان أحدهما شرعي وهو الأشرف شعبان والآخر تسنده الأجناد اليلبغاوية وهو المنصور آنوك مما أثار أسباب الاضطراب والفوضى في البلاد[1].

وعلى ذلك يتضح لنا بعض الملاحظات المتعلقة بهذه المؤامرة منها خطورة منصب الأتابكة حيث حظي الأتابك في أثناء هذه الحقبة بالمكانة العالية والمنزلة الرفيعة، كما تمتع بسلطات مطلقة في الدولة والبلاط السلطاني على حد سواء بحيث يمكن القول أنه كان الحاكم الفعلي لسلطنة المماليك خلال هذا العهد، في حين كان السلطان الشرعي مجرد صورة لا تتعدى سلطاتها حدود الإستقبالات الرسمية، والتصديق على إمضاء وختم الأتابك دون مناقشة أو مراجعة مما يثبت مدى الضعف الكبير الذي كانت تتميز به مكانه السلطان في سلطنة المماليك في هذه الفترة. ونلاحظ أن الأمير يلبغا كان يتمتع بقدر كبير من القوة معتمداً على جماعة من مماليكه اليلبغاوية وهم مناصروه في أي حركة يقوم بها سواء من

(١) ابن دقماق، الجوهر، ج٢، ص٢٢٦. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٣٣-١٣٤. ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٣١-٣٢، ٣٥، ٤٠.

أجل الإطاحة بالسلطان أو الحصول على امتيازات أوسع وصلاحيات أكبر، أو تعيين سلطان جديد للدولة، لكل هذه الأهداف كان الأمير يلبغا متحمساً لبناء قوة عسكرية قوية متينة من المماليك المدربين لمساندته ومناصرته في وقت الأزمات.

وتظهر حركة تمرد الأمير يلبغا وقيامه بتنصيب سلطان آخر تحت إشراف الخليفة العباسي[1] -المجبر على مبايعته للمنصور آنوك- تظهر هذه الخطوة عن مدى حالة الضعف والذل التي وصل اليها وضع الخليفة العباسي في هذا الوقت، فقد كان يخضع خضوعاً كلياً وتاماً للجهة صاحبة السلطة والنفوذ في السلطنة بغض النظر إن كان يمثلها السلطان، أو الأتابك أو نائب السلطنة، فلم يعد الخليفة العباسي يملك من أمر نفسه شيئاً.

كذلك تمثل حركة الأتابك أسندمر الناصري والمماليك الأجلاب صورة ثانية من صور تسلط الأتابكة على السلطان الأشرف شعبان. فطائفة الأجلاب وعلى رأسهم الأتابك أسندمر امتلكت الكثير من السلطان من الناحيتين العسكرية والسياسية، وقد بلغ الأجلاب شأواً كبيراً في القوة المادية والمعنوية إلى درجة تحدي الأمراء وتهديدهم، بل التدبير لقتل بعض الأمراء المعارضين لصلاحياتهم المطلقة[2]، وقد تطورت حدّة الوضع إلى تهديد المماليك الأجلاب بقتل السلطان الأشرف شعبان نفسه وإقامة غيره مكانه[3]، وفعلاً أعلنوا الحرب ضد السلطان الأشرف شعبان لوقوفه ضد مطالبهم وأطماعهم الشخصية، ولولا صمود السلطان الأشرف شعبان وقواته وتعاطف

---

[1] الخليفة العباسي أبو عبدالله محمد المتوكل على الله ولي الخلافة بعهد من أبيه سنة ٧٦٣هـ/ ١٣٦١م، وتوفي سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م. القلقشندي، مآثر الأنافة، ص١٦٧. السيوطي، الخلفاء، ص٥٩٢.

[2] ابن حجر، الدرر، ج١، ص٤١٣.

[3] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٥٠. ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٤٧-٤٨. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٢١٩-٢٢١.

العامة معه لما استطاع دحرهم وقد ساعده سوء سمعتهم بين باقي المماليك والعامة، فقد كثر شرهم وتطاولوا على الناس وتعدّوا على حقوق الآخرين وحرماتهم ولكن انتهت ثورتهم بالقبض على أغلب أمرائهم وتشتيت الباقي في مدن السلطنة لا سيما مدن بلاد الشام[1]. من خلال هذه الثورة يلفت النظر تهاون السلطان الأشرف شعبان في القبض على الأمير أسندمر، وحتى لما قبض عليه فإنه أطلق سبيله مما جعله يفكر بإعادة الكرة والقيام بمحاولة أخرى لتحقيق هدفه بخلع السلطان الأشرف شعبان وتنصيب شريكه في المؤامرة الأمير خليل بن قوصون ابن عمة السلطان الأشرف شعبان[2].

أما الصورة الثالثة من صور تآمر الأتابكة فهي ثورة الأمير ألجاي اليوسفي زوج أم السلطان الأشرف شعبان فقد ثار مع مجموعة من أعوانه ومماليكه إلا أنه لم يفلح وانتهت ثورته بقتله[3]. والذي يهمنا من ذلك هو جانب الصراع من أجل الحكم والسيطرة والصلاحيات المطلقة.

من خلال حركات الأتابكة الثلاث السابقين، نتبين أن الصلاحيات التي منحهم إياها السلطان الأشرف شعبان ضماناً لولائهم لم يستغلوها للصالح العام وإنما أساءوا استعمالها، فالسلطان الأشرف شعبان نفسه لم يتقيد بتلك الصلاحيات إما لصغر سنه أو لاعتماده على الأسس والأعراف والتقاليد التي تحدد أولوية الترقية، بل اعتمد على ترقية المقربين منه أو الذين يخشى جانبهم فأفسح المجال أمام هؤلاء الأمراء للخروج عن الطاعة ولذلك أساءوا استعمال صلاحياتهم.

---

(1) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٥١-١٥٣. ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٤٧-٤٩.

(2) ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٥٤٤. ابن حجر، الدرر، ج١، ص٤١٣. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٥٦.

(3) المقريزي، السلوك، ج٣، ص٢١٤. ابن حجر، إنباء، ج١، ص٥٦-٥٨.

ولذا فإن أي تهاون من قبل السلطان في تيسير أمور الدولة سوف يؤدي إلى حدوث الفساد في نواحي المجتمع المملوكي كله. فإن بدا السلطان ضعيفاً فإن ذلك يوقظ في نفس بعض الطامعين الرغبة الجامحة للسلطة.

ونلاحظ أن التزامات السلطان المادية والمعنوية تجاه الأمراء لم تكن دافعاً لكسب ولائهم بقدر ما كانت سبباً في وثوبهم عليه، على الأخص بعد أن دخل الفساد إلى النظام العسكري المملوكي. فدراسة تصرفات الأمراء خلال عهد السلطان الأشرف شعبان توضح تماماً أن الأمير كلما ارتقى درجة واكتفى مادياً كلما ازدادت طموحاته، دون أن يأبه لنتائجها على إقتصاد الدولة ومنعتها العسكرية.

ونلاحظ اشتداد المساوئ الإدارية في عهد السلطان الأشرف شعبان بالخروج عن النظم السائدة. فصلاحيات نائب السلطنة السياسية كانت مقيدة ومحدودة وذلك لسيطرة أتابك الجيش على السلطان والدولة، ولكن منذ سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م، استطاع السلطان الأشرف شعبان الإنفراد بالحكم والاستقلال برأيه، فعين الأمير منجك اليوسفي[١] لنيابة السلطنة في مصر، وتنازل له عن معظم مهام الدولة. ويذكر المقريزي ذلك بقوله "أن السلطان قد أقامه مقام نفسه في كل شيء بيده وفوّض له ما فوّض إليه الخليفة من سائر أمور المملكة"[٢]. ولكن لم يدم هذا التفويض طويلاً فسرعان ما عزل السلطان الأشرف شعبان نائب السلطنة من منصبه وأبطل النيابة قبيل خروجه

---

[١] سبق التعريف به.

[٢] السلوك، ج٣، ق١، ص٢٢٥. وانظر ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٥٢-٥٣.

إلى الحج سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م[1]. مكتفياً بنائب للغيبة وهو الأمير أقتمر عبدالغني[2] طيلة فترة غيابه عن القاهرة.

كذلك ازداد نفوذ وصلاحيات أمير سلاح وتبلور دوره في الحوادث والفتن، كما حدث في سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م عندما رفض الأمير طيبغا الطويل أمير سلاح الإمتثال لأوامر السلطان الأشرف شعبان وأتابكه يلبغا العمري بالخروج إلى الشام نائباً عليها مما أدى إلى سجنه[3]. كذلك استحدث السلطان الأشرف شعبان في سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م، ثنائية في المنصب، فأصبح هناك أمير سلاح خاص إلى جانب أمير سلاح براني[4]، ويذكر ذلك ابن تغري بردي بقوله "وهذا شيء لم يسمع بمثله"[5]، هذه الثنائية في الوظيفة تعكس رغبة السلطان الأشرف شعبان في الإحتفاظ لخاصكيته بنفوذ هذه الوظيفة، كما أنها من جهة أخرى تعكس واقعاً فرضته نفوذ الأمراء البرانيين بعد ازدياد أعداد مماليكهم، مما جعلهم يفرضون وجود وظائف موازية تكون بيد أتباعهم مقابل التي بيد أتباع السلطان وهذا الأمر لا يخلو من الصراع بل يشير إلى احتدامه.

أما وظيفة الدوادارية فلم تتحدد رتبة من يتولاها، فنجده تارة من أمراء العشروات والطبلخانات، وتارة من أمراء الألوف، حتى جاء السلطان الأشرف شعبان فجعله من أكابر الأمراء وبرتبة أمير مائة وتقدمة ألف[6]، وحول ذلك يعلق ابن تغري بردي بقوله "ولم يعلم قبله

---

[1] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢١٧. ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٥٥.

[2] الأمير أقتمر عبدالغني: توفي سنة ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م. أنظر ترجمته ابن حجر، الدرر، ج١، ص٤٢٠ – إنباء، ج٢، ص٦٦.

[3] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١١٥-١١٦. ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٢٦-٢٧.

[4] المقريزي، السلوك، ج٣، ص٢١٥.

[5] النجوم، ج١١، ص٥١.

[6] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٣٨.

دوادار أمير مائة وتقدمة ألف*[1]. كذلك أسند السلطان الأشرف شعبان لمنصب حاجب الحجـــاب صلاحيات أوسع مما كانت بيده بأن أضاف إليه في سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م، مهام نائب الســلطنة بعد أن عطّل هذه الوظيفة، فجمع حاجب الحجّاب صلاحيات نائب السلطنة إلى جـــانب وظيفتــه الأصلية[2].

وفيما يتعلق بمنصب الوزارة فقد قلّ شأنها ولم يعد لمنصب الوزير اهتمام كبـير كالســابق بحيث أصبح منصب الوزير من الدرجة الثالثة بعد استحداث وظيفة نائب السلطنة، فأصبح النـائب طبقاً لهذا النظام يلي السلطان في المرتبة ويتمتع بكل ما يتمتع به الوزير من قبـــل[3]، ثـم أقـدم الناصر محمد في سنة ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م على إلغاء وظيفة الوزير نهائياً والإكتفاء بعدد معين من الكتّاب، ونتج عن ذلك أن توزعت مهام الوزير وصلاحياته بين ناظر المال أو "شـــاد الدواويــن" التي كانت مهمته تحصيل الأموال وصرف النفقات وناظر الخاص الذي عُني بتدبير الأمور العامة للدولة وتعيين المباشرين، وكاتب السر الذي حددت وظيفته في دار العدل للتوقيع على مــا كـان يوقع عليه الوزير من العرائض والقصص مشاورةً واستقلالاً، وكلاً من هؤلاء الثلاثة لا يقدر على الإستقلال إلا بمراجعة السلطان[4].

---

[1] النجوم، ج١١، ص٣٤.

[2] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢٧١. ابن قاضي شهبة، تاريخ، مج٣، ص٥٠٩. ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٥٥.

[3] العمري، مسالك الأبصار، ص١١٩. السبكي، تاج الدين عبدالوهاب بن علي، (ت ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م)، معيـد النعم ومبيد النقم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٩٨٦م، ص٢٨. القلقشندي، صبح، ج٤، ص٢٨.

[4] العمري، مسالك الأبصار، ص١١٩-١٢٠. القلقشندي، صبح، ج٤، ص٢٨. السيوطي، حسن، ج٢، ص١٣٠-١٣١.

لذلك انحطت وظيفة الوزارة في دولة المماليك وترّفع عن استلامها الوزراء لأنها حسب قول ابن خلدون "مرؤوسة ناقصة وصاحبها لا يتعدى النظر في الجباية"[1].

وخلال فترة حكم السلطان الأشرف شعبان لم يكن الوزير يتمتع بسيطرة أو نفوذ وتضاءل مركزه لاستمرار نظام نيابة السلطنة وكذلك لسيطرة أتابك العساكر على الدولة والحكم، حتى أن الوزير اتهم بالفساد المالي كما حدث مع الوزير فخر الدين بن قزوينه[2] الذي قبض عليه في جمادى الأولى سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م واستخلص منه الأموال وخلع من الوزارة وعين بدلاً منه الصاحب ابن أبي شاكر[3] وأضيف إليه نظر الخاص[4] كما أن الوزارة أضيفت إلى الإستادارية عندما عيّن السلطان الأشرف شعبان الأمير الأكز الكشلاوي[5] وزيراً مضافاً لما بين يديه من الإستادارية في سنة ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م[6].

بقيت وظيفة الوزير قائمة حتى سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م، عندما عزل السلطان الأشرف شعبان الصاحب كريم الدين بن الغنّام[7] من الوزارة وأبطل الوزارة نهائياً وأمر باغلاق شباك

---

(1) المقدمة، ص٢٣٩.

(2) فخر الدين ماجد بن قزوينه القبطي توفي تحت العقوبة سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م. أنظر ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٧٧.

(3) ابن أبي شاكر، باشر الوزارة بمصر ثلاث مرات وتوفي سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م. أنظر ابن تغري بردي، المنهل، ج٧، ص١٢٩.

(4) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٤٠. ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٣٥. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٥٤-٥٥.

(5) الأمير الأكز الكشلاوي استلم عدة وظائف في دولة السلطان شعبان وتوفي سنة ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م. أنظر ابن حجر، الدرر، ج١، ص٤٣٢.

(6) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٦٩.

(7) الصاحب كريم الدين بن الغنام. توفي سنة ٨٢٣هـ/ ١٤٢١م. أنظر ابن تغري بردي، المنهل، ج٧، ص٣٣٢.

الوزارة الموجود بقاعة الصاحب[1] في قلعة الجبل ووزّع مهام هذا الوزير بين مشير الدولة وناظر الدولة وحدّد جلوسهم خلف شباك الوزارة وهو مغلق[2].

لكن إبطال الوزارة لم يدم طويلاً، فبعد أشهر من إلغائها أعاد السلطان الأشرف شعبان وظيفة الوزير سنة ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م[3]، وعيّن لهذا المنصب الصاحب تاج الدين النشو[4] وبعد مدة استبدله بالصاحب أبو الفرج المقسي وأضاف إليه نظارة الخاص وأطلق عليه لقب وزير الوزراء، مما يدل على أنه شخص يتمتع بالكفاءة والخلق الحسن والرضى من قبل السلطان الأشرف شعبان[5].

ومما يلفت له النظر حول منصب الوزارة في عهد السلطان شعبان أن هذه الوظيفة كانت غير مستقرة، فكان الوزراء يبدلون بسرعة، فبعضهم لم يمكث في الوزارة سوى أيام أو شهور[6]، حتى أصبح كثرة تولية الوزراء وصرفهم عنها كأنها مهنة يعود إليها من صُرف عنها ليتولاها عدة مرات وهذا ما حدث مع الصاحب تاج الدين النشو الذي استلم الوزارة لثلاث مرات[7] كما أن بعضهم زهد بهذا المنصب كالصاحب تاج الدين بن الغنام الذي طلب من السلطان الأشرف شعبان

---

(١) قاعة الصاحب هو المكان الذي يعقد فيه الوزير مجلسه وهي دار الوزارة ومقرها قلعة الجبل.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٢٤. ابن حجر، إنباء، ج١، ص٧٣.

(٣) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢٥٢. ابن قاضي شهبة، تاريخ، مج٣، ص٤٧٩.

(٤) الصاحب تاج الدين النشو الملكي. أنظر ترجمته ابن حجر، الدرر، ج٢، ص٢٨٤.

(٥) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢٥٦. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص١٥١-١٦٠.

(٦) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٦٠، ١٦٩-١٧١، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٤. ابن قاضي شهبة، تاريخ، مج٣، ص٣٢٠، ٣٤٧-٣٤٩، ٣٦٠، ٣٦٢.

(٧) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢٦٨. ابن قاضي شهبة، تاريخ، مج٣، ص٥٠٨.

إعفائه من هذا المنصب في محرم سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م مما يوحي بتراجع هذا المنصب وما أصابه من تقلقل واضطراب[١].

ونتيجة لتراجع منصب الوزير فإن الوضع الإقتصادي تعرض للإرتباك، وعمّت الرشوة وانتشر الفساد، وزاد في سوء التنظيم الإداري سماح السلاطين للحجاب بالقضاء بين الناس اعتباراً من سنة ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م، فأنزلوا بهم أشد أنواع المظالم وتسلّطوا على أرباب الأموال[٢].

وغالباً ما كان يتولى الوظائف المالية أشخاص غير مؤهلين وإنما كانوا يبذلون الأموال في سبيلها. ومن هنا انصبت اهتماماتهم على الحصول على المال إرضاء لأطماعهم ودفعاً لديونهم المترتبة أصلاً عن حصولهم على الوظيفة، ولتلبية الرغبات المالية لأرباب الدولة؛ وأحياناً كثيرة تعدى أصحاب الوظائف المالية الحدود المرسومة لهم دون أن يردعهم أحد، وعلى الأخص عندما كانت تتجمع عدة وظائف مالية في يد شخص واحد.

ومما لا شك فيه أن الفساد الذي تطرق إلى المؤسسة العسكرية والإدارية لدولة المماليك قد انعكس على باقي قطاعات الدولة وعلى الأخص القطاعات الإقتصادية. فظهر خلل رهيب بين مصاريف الجهاز العسكري والانتاج الإقتصادي وأثّر ذلك سلباً على رعاية الجهازين الإداري والعسكري لأرباب الإقتصاد وعلى العاملين في الميادين الإقتصادية[٣].

---

[١] ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص١٦٤.

[٢] المقريزي، الخطط، ج٢، ص٢١٩-٢٢١.

[٣] ضومط، الدولة المملوكية، ص٨١.

## ٣-القضاء:

القضاء أجلّ الوظائف الدينية في دولة المماليك وأعلاها رتبةً وأعظمها وقعاً وأعمقها نفعـاً، ومنصب قاضي القضاة يعدّ من أعلى مناصب القضاء وأعزّها جانباً وأعلاها رتبةً[1].

واستقر في مصر في عهد الفاطميين قاضي قضاة واحد، وكان شيعي المذهب[2]، ثم جـاء الأيوبيون وكانوا يتّبعون المذهب السنّي الشافعي، فعملوا على نشره في دولتهم، وقضوا بـه فـي الأحكام، ونشطوا في محو آثار المذهب الشيعي، كما رتّب الأيوبيون القضاء في مصر، فجعلـوا بدولتهم قاضيان شافعيان الأول يسمى قاضي القضاة ويتولى قضاء القاهرة والوجه البحري الآخر اتخذ لقب قاضي فقط ويتولى قضاء مصر (الفسطاط) والوجه القبلي، وقد تجمـع مصـر كاملـة لقاضٍ واحد[3].

وحسب المذهب الشافعي فإنه لا يجوز أن يكون في البلد أكثر من قاضٍ حتى تجتمع الكلمـة بدون نزاع وصيانة للأحكام[4]، ولكن الظاهر بيبرس ومع حلول سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م جعـل قاضي قضاة لكل مذهب من المذاهب الأربعة عند أهل السنة الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي، مع بقاء الرئاسة للشافعيّة[5]، حيث اختصّ القاضي الشافعي بتولية النواب بنواحي الوجهين القبلـي

---

(١) ابن جماعة، تحرير الأحكام، ص٨٨. ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٢٢٠.

(٢) القلقشندي، صبح، ج٤، ص٣٥. السيوطي، حسن، ج٢، ص١٤١.

(٣) ابن حجر، شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني، (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م)، رفع الأصر عن قضـاة مصـر، تحقيق حامد عبدالمجيد وآخرون، المطبعة الأميريـة، القـاهرة، ١٩٥٧م، ص٣٨. السـيوطي، حسـن، ج٢، ص١٤٦، ١٥١. سليم، عصر سلاطين، ق٢، ص٥٩.

(٤) ابن جماعة، تحرير الأحكام، ص٨٩.

(٥) ابن كثير، البداية، ج١٣، ص٢٤٥-٢٤٨. المقريزي، السلوك، ج١، ق٢، ص٥٣٩. ابن تغري بردي، النجوم، ج٧، ص١٢١.

والبحري، لا يشاركه فيهما غيره[1] كما نفّذ هذا الإجراء القضائي الجديد في بلاد الشام بالتدريج حيث ظهر أولاً بدمشق ثم حلب وطرابلس وباقي النيابات الأخرى[2].

ويتولى قاضي القضاة البتّ في القضايا الشخصية، وحل المنازعات، والنظر في الأموال التي ليس لها وارث والإشراف على أموال المحجور عليهم كالمجانين والأيتام، والنظر في الأموال الموصى عليها كأموال اليتامى والغائبين كل حسب مذهبه[3].

ويساعد قاضي القضاة عدد من الموظفين كالكتّاب الذين يسجلون الأحكام، والحجّاب الذين يستأذنون لذوي الحاجة بالدخول إليهم، والنقباء الذين يجلسون بباب القاضي إذا جلس للفصل في الخصومات ومهمتهم تقديم المتخاصمين وتنفيذ الأحكام، ويرأس هؤلاء النقباء شخص يسمى "أمين" أو "نقيب النقباء" وهو رئيس لأعوانه[4]، والشهود العدول الذين عرفوا بالأمانة والعلم وهم يساعدون القاضي في مهمته إما نفياً أو إثباتاً لإحقاق الحق ونبذ الباطل[5]، ووكلاء القضاة وهم كما يصفهم السبكي نصّبوا أنفسهم لخلاص حقوق الخلق[6] أي كالمحامين في أيامنا مهمتهم الدفاع عن المتهمين، وهناك قضاة صغار يسمون نواب الحكم حيث كل قاضي قضاة من المذاهب

---

(1) القلقشندي، صبح، ج٤، ص٣٧. السيوطي، حسن، ج٢، ص١٥٥.

(2) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج٢، ص٣٣٤. القلقشندي، صبح، ج٤، ص١٩٢. السيوطي، حسن، ج٢، ص١٥٥.

(3) ابن جماعة، تحرير الأحكام، ص٩٣. العمري، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق سمير دروبي، منشورات جامعة مؤتة، ط١، ١٩٨٦م، ص١٦٧. ابن خلدون، المقدمة، ص٢٢١.

(4) السبكي، معيد، ص٥٢-٥٣. حسن،المماليك البحرية، ص٣٧٧-٣٧٨.

(5) ابن خلدون، المقدمة، ص٢٢٤، ٢٢٥. حسن، المماليك البحرية، ص٣٧٨.

(6) معيد، ص٥٣.

الأربعة يعين منهم في الجهات المختلفة ليقوموا بمهمة الفصل فيما يقدم إليهم من القضايا عوضاً عن قاضي القضاة نظراً لعدم استطاعته الإحاطة بكل القضايا[1].

وهكذا أفسح المجال أمام أصحاب المظالم والشكاوى الإختيار في عرض قضاياهم على أي من القضاة الذين يختارون ويتحاكمون إلى المذهب الذي يرتضون، فإذا كان المدعى عليه يتبع مذهباً وخصمه يتبع مذهباً آخر فإن المدعي يذكر هذا أمام القاضي الذي يتعلق به، ولكن المدعى عليه يستطيع الإستئناف أمام قاضٍ معين من قبل الأربعة كقاضٍ أعلى وهو قاضي المذهب الشافعي[2].

ومن المعروف أن المذهب الشافعي، كان أعظم المذاهب الإسلامية إنتشاراً في مصر منذ بداية دولة سلاطين المماليك ومكانة قاضي القضاة الشافعي كانت مميزة عن غيره، نظراً لانفراده في تولية النواب بنواحي الوجهين البحري والقبلي، وقد بقي هذا العُرف مستمراً حتى أواخر أيام الأمير يلبغا العمري الذي تعصب للمذهب الحنفي بأن جعل الحنفية أعظم شأناً من الشافعية، حتى أن جماعة كثيرة من الشافعية تحولوا إلى مذهب الإمام أبي حنيفة[3]. ولكن بقي ترتيب قاضي القضاة الشافعي متقدماً على القضاة الثلاث الآخرين حتى سنة ٧٧٣هـ/ ١٣٧١م عندما طلب قاضي القضاة الحنفي سراج الدين عمر الهندي (ت ٧٧٣هـ/١٣٧١م) من السلطان شعبان بمساواته بقاضي القضاة الشافعي في أن يستنيب عنه القضاة في الوجهين البحري والقبلي، وفي لبس العمامة، والتصرف في أموال الأيتام، فأجابه السلطان شعبان بالموافقة وأصدر له مرسوماً

---

(١) القلقشندي، صبح، ج٤، ص٣٧. السيوطي، حسن، ج٢، ص١٥٥.

(٢) ليون الإفريقي، وصف أفريقيا، ص٥٩٥.

(٣) السخاوي، الذيل التام، حوادث (٧٤٥-٨٥٠هـ)، ص٢٢٠. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٥٢.

شريفاً سلطانياً بذلك، إلا أن أمنية القاضي الحنفي لم تكتمل بسبب وفاته. فألغى السلطان شعبان المرسوم السابق واستمر القاضي الشافعي متفوقاً بامتيازاته كما كان[1].

مما سبق يتضح لنا أن العلاقات بين القضاة في بعض الأحيان لم تكن جيدة بدليل حسد واعتراض القاضي الحنفي على امتيازات القاضي الشافعي. وربما تتطور الخلافات في بعض الأحيان إلى درجة التعصب والقدح، ففي سنة ٧٧٣هـ/ ١٣٧١م أثيرت مسألة فقهية بين قاضي القضاة الشافعي بهاء الدين أبي البقاء السبكي (ت ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م) وقاضي القضاة المالكي برهان الدين إبراهيم الإخنائي (ت ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م)، وتطورت المجادلة بينهما بأن هزئ القاضي السبكي من القاضي الإخنائي بقوله: "لو كان الإمام مالك حياً لناظرته في هذه المسألة". فعد الإخنائي ذلك خروجاً عن الدين وهدده بقوله: "إيش أنت حتى تناظر الإمام مالك في هذه المسألة، والله لو كان غيرك لفعلت به كذا" يعني قتله، ويذكر المقريزي أنه لم تمض أيام حتى عزل السبكي من وظيفته لتطاوله على الإمام مالك[2].

ويبدو أن رجال القضاء في عهد السلطان شعبان كانوا من أعلى رجال الدولة احتراماً، وهذا ما يفهم من عبارات المؤرخين ونعوتهم للقضاة، فقد تمتعوا بالهيبة والوقار وعلو المنصب، ففي بداية حكم السلطان شعبان سنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م، عَزَلَ قاضي القضاة موفق الدين الحنبلي[3] نفسه من منصبه، والسبب في ذلك لأن الأمير يلبغا الأتابك أرسل إليه رسولاً يستدعيه، فوجده

---

[1] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٩٦. ابن حجر، إنباء، ج١، ص١٤. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص١٠٥-١٠٦.

[2] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٩٦-١٩٧. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص١٠٧.

[3] موفق الدين عبدالله بن محمد الحنبلي قاضي قضاة مصر حكم لمدة ٣٠ سنة توفي سنة ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م. انظر ترجمته ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٧٩.

نائماً، ولم يتمهل هذا الرسول عليه حتى يفيق من نومه وأمر أهله بإيقاضه لموافاة الأمير يلبغـــا، فشق على القاضي الطريقة التي أستدعي بها وغضب لذلك وعزل نفسه من منصبه وامتنع عـــن الحضور لمقابلة الأمير يلبغا، ويذكر المقريزي ذلك بقوله: "وما زال يرسل إليه يلبغا ويترضـــاه حتى رضي ثم استدعي إلى مجلس السلطان وخلع عليه، وأعيد إلى وظيفة القضاء على عادته"[1]، ويضيف ابن إياس حول ذلك بقوله: "وأين هذه الأخبار من أخبار قضاة زماننـــا ومـــا يصنعـــون بأنفسهم من البهدلة"[2].

كذلك عزل قاضي القضاة الشافعي ابن جماعة[3] نفسه عن منصب القضـــاء فـــي جمـــادى الأخرة سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م نتيجة عدم رضاه عن الأوضاع في الدولة، فأرسل اليـــه الأتـــابك يلبغا أمير آخوره يسترضيه ويرجوه في العودة إلى وظيفته، إلا أن القاضي ابن جماعة امتنـــع أن يستجيب لنداء الأمير يلبغا، فكرر الأخير المحاولة ولكن باءت بالفشل، وأصر القاضي على عـزل نفسه فلم يجد يلبغا بداً من موافقته ولكنه طلب منه ترشيح من يصلح لهذا المنصب فأشـــار ابـــن جماعة بالقاضي بهاء الدين أبي البقاء السبكي[4]، فوافقه يلبغا على ذلك[5].

---

[1] السلوك، ج٣، ق١، ص٨٤. وانظر ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص٨-٩.

[2] بدائع، ج١، ق٢، ص٩.

[3] عز الدين بن جماعة تولى القضاء لمدة ٢٩ عام توفي بمكة مجاوراً سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٧٥م. أنظر ترجمته ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٧٢- المنهل، ج٥، ص١٠١.

[4] بهاء الدين أبي البقاء السبكي، تولى عدة وظائف قضائية. توفي في دمشق ســـنة ٧٧٧هـــ/ ١٣٧٥م. أنظـــر ترجمته ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص١١٠- المنهل، ج١، ص٤٠٨.

[5] ابن كثير، البداية، ج١٤، ص٣٣٣. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٩٨-٩٩. ابن تغري بردي، النجـــوم، ج١١، ص٢٤.

أما ابن جماعة فقد استرضاه السلطان شعبان بوظيفة نظر جامع ابن طولون فدرّس فيه الفقه مقابل راتب شهري مقداره ألف درهم[1]، إلا أنه توفي بعد سنة من منصبه الجديد[2]. وقد مدحه ابن إياس بقوله: "كان صلباً في الأمور الشرعية لا يقبل في الحق رسالة سلطان ولا أمير، عفيفاً عن الرشوة"[3].

نلاحظ من هاتين الروايتين المكانة العالية التي وصل إليها قضاة هذه الفترة من عهد دولة المماليك، ومدى الاستقلالية في إدارة شؤونهم بأنفسهم بعيداً عن تدخل المؤسسة السياسية، وكذلك نلاحظ الحرص الشديد الذي أولاه السياسيون لهؤلاء القضاة وربما من أجل تحقيق الاستقرار الاجتماعي الذي يتيح لهم التمتع بما يرغبون به من امتيازات، فكان لا بد من مجاراة القضاة وكسب رضاهم لكي يضمنوا الشرعية لأعمالهم ويكسبوا رضا الرعية وسكوتهم عما يقترف بحقهم من ضياع الحقوق وامتهان الحرمات.

كذلك نلاحظ أن القاضي يلجأ إلى عزل نفسه من منصبه عندما يمارس عليه ضغط سياسي من أحد الأمراء، وخوفاً من حدوث صدام بين الطرفين يلجأ القاضي إلى عزل نفسه إيثاراً منه لتفادي هذا الصدام وتزهداً وتعففاً عن المنصب، فكان عزل القاضي لنفسه يسبب إرباكاً لهؤلاء الأمراء، فيعملون جاهدين من أجل تلافي ذلك إلى إرضاء القاضي بشتى الوسائل.

وتميز قضاة عهد السلطان شعبان بحرصهم الشديد على تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية، وبرغبتهم الأكيدة في إصلاح أمور الدولة وتقويم سلوك أمرائها، فعندما اعتدى داودار الأمير أقتمر الحنبلي[4] بالضرب على رب دين بحضرة مديونة سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م، نهره قاضي القضاة برهان الدين بن جماعة وأنكر عليه فعلته هذه وشكاه إلى أستاذه، ويذكر المقريزي أن هذا الداودار "ترقق وتلطف به في المداراة حتى خلص من مجلسه وقد ملئ قلبه منه خوفاً"[5].

كذلك مارس القضاة دوراً ايجابياً في تخفيف أعباء الناس المعيشية عندما طالبوا السلطان شعبان في صفر سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م، بإلغاء بعض المكوس والضرائب المجحفة بالعامة

---

(١) ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص١٨.

(٢) ابن حبيب، درة الأسلاك، ج٣، ورقة ٤٦/ب – ٤٧/أ. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١٢٥.

(٣) بدائع، ج١، ق٢، ص٣٢.

(٤) أنظر ترجمته، ابن تغري بردي، الدليل الشافي، ج١، ص١٤١. ابن العراقي، ولي الدين أحمد بن عبدالرحيم، (ت ٨٢٦هـ/ ١٤٢٤م) الذيل على العبر في خبر من عبر، تحقيق صالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٩م، ج٢، ص٤٧٤.

(٥) السلوك، ج٢، ق١، ص٢٦٤. وانظر ابن اياس، بدائع، ج١، ق٢، ص١٦٥.

كضمان المغاني ومكس القراريط[1]، وقد كان لتدخلهم هذا فائدة كبرى طالما رجوها من السلطان فألغاها السلطان شعبان بناءً على مناشدة القضاة الذين كانوا بالمرصاد بكل من يريد بالدولة سوءاً، كما اجتهدوا في تطبيق العدالة الاجتماعية ونصرة المظلومين[2].

ومن التطورات التي طرأت على مؤسسة القضاء في عهد السلطان شعبان لجوءه إلى إصدار مرسوم سلطاني سنة ٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م يقضي بمنع وكلاء القضاة من الوقوف على أبواب القضاة في مصر والشام، وذلك بعد أن تأكد شرهم وكثر مكرهم وخداعهم في الدعاوى التي كانت تقدم إلى القضاة[3]، وهذا دليل على حرص دولة المماليك بحرية ونزاهة القضاء بعيداً عن التلاعب والخداع، كذلك حددت الدولة في عام ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م، عدد الشهود الذين يجلسون على أبواب القضاة بأربعة شهود فقط، وأمرت بألا يجلس من هؤلاء الشهود إلا من كان على مذهب القاضي نفسه وبذلك انحصرت أعدادهم بعد أن كانت لا حصر لها[4]. واستجد السلطان شعبان قاضياً حنفياً بالإسكندرية زيادة على قاضيها المالكي ولم يعهد قبل ذلك قاضيان[5].

كذلك اهتم السلطان شعبان بتنظيم شؤون القضاء في بلاد الشام، فاستحدث في سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م منصب قاضي قضاة مالكي في طرابلس[6] ومنح المؤسسة القضائية في بلاد

---

[1] ضمان المغاني ضريبة تؤخذ من مال النساء البغايا وقد رتب لهن موظفة خاصة تسمى ضامنة مهمتها أخذ هذا المال لصالح الدولة، أما مكس القراريط فضريبة تؤخذ عن بيع العقارات عن كل الف درهم عشرون درهماً. ابن قاضي شهبة، تاريخ، م٣، ص٥٠٦-٥٠٧. ابن إياس، نزهة الأمم، ص١٤٣.

[2] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢٦٦-٢٦٧. ابن حجر، إنباء، ج١، ص٥٨-٥٩. ابن إياس،بدائع، ج١، ق٢، ص١٦٦-١٦٧.

[3] ابن حبيب، درة الأسلاك، ج٣، ورقة ٢٨/ب. ابن دقماق، الجوهر، ج٢، ص٢٢١. القاضي عبدالباسط، نيل الأمل، ج١، ورقة ٧٤/ب.

[4] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢٠٣. ابن حجر، إنباء، ج١، ص٣٤.

[5] المقريزي، السلوك، ج٣، ص١٢٨.

[6] ابن قاضي شهبة، تاريخ، م٣، ص٤٤٦.

الشام نفس الامتيازات التي منحت لقضاة مصر، ولم يختلف التنظيم القضائي القائم في بلاد الشام كثيراً عنه بمصر إلا بالحجم[1].

هكذا كان القضاء في عهد السلطان شعبان على درجة عاليةٍ من العفة والنزاهة ومع ذلك فهناك بعض الإشارات على حدوث بعض التشوهات في مؤسسة القضاء، ففي سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م عقد مجلس قضائي بدار السعادة في دمشق للقاضي جمال الدين المرداوي بتهمة بيع بعض الأوقاف المسؤول عنها، وقد جاء به مرسوم سلطاني من القاهرة ينص على الإحاطة على أمواله وسجنه وذلك بعد أن شهد عليه بعض شهود مجلسه[2].

وكذلك في سنة ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م جاء مرسوم سلطاني من القاهرة إلى دمشق بعزل القاضي تاج الدين بن السبكي وسجنه وأعوانه ممن استولوا على أموال اليتامى والأوقاف، وقد عقد له مجلس ضم عدد كبير من قضاة دمشق وأسفرت مداولاتهم على اتهامه بالتهمة الموجهة إليه وهي اختلاس الأموال الوقفية. والمعروف أن ابن السبكي كان من القضاة المشهود لهم بالاستقامة والصلاح، ولذلك اعترض بعض قضاة القاهرة مجرد سماعهم خبر سجنه واتهامه وتشفعوا له عند السلطان شعبان ليستقدمه إلى القاهرة لاستيضاح الأمر ولعل في ذلك وشاية من بعض أعدائه، وفعلاً تم استدعائه إلى القاهرة، وفيها تم تبرئته من التهمة الموجهة إليه بعد أن تأكد السلطان شعبان بأنه حسن النية وأن التهمة كانت مجرد وشاية من بعض قضاة دمشق الحاسدين[3].

---

(1) ماجد، نظم، ج١، ص٩٧.

(2) ابن قاضي شهبة، تاريخ، مج٣، ص٢٧٣-٢٧٤.

(3) المصدر نفسه، مج٣، ص٣١٤-٣١٩.

### ٤. نهاية الأشرف شعبان ومقتله:

عاشت دولة المماليك في فترة هدوء وسكينةٍ منذ أن تخلص السلطان شعبان من زوج أمه الأمير ألجاي في سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م، ولكن كعادة الأمراء المماليك فإن مؤامراتهم ودسائسهم لم تتوقف، وانتظروا الفرصة المناسبة لتنفيذ رغباتهم وتطلعاتهم، وقد جاءت هذه الفرصة عندما بادر السلطان شعبان بالتجهز للقيام بزيارة إلى الأراضي المقدسة حاجاً في رجب سنة ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م[1]، وقد مهد لهذه الزيارة بأن أرسل أخوته وأولاد أعمامه جميعاً إلى الكرك قبل أن يخرج إلى الحجاز خوفاً من أن يثير بقائهم في القاهرة الرغبة من أحدهم التطلع نحو السلطنة، لذلك أرسلهم بعد أن أحاطهم بحراسة مشددة كما أمر بخروج الأمراء والقوات لحراسة الثغور من الأخطار الخارجية. كذلك أوفد قوات مملوكية بقيادة الأمير أقتمر الحنبلي[2] إلى الصعيد لحفظها من خطر الأعراب طيلة فترة غيبته في الديار المقدسة وأوصى السلطان شعبان مماليك ولديه بهما وبحفظ القلعة كما أوصاهم إن أصابهُ مكروه فالسلطنة لولده علي وكأنه على علم بما يخفيه له القدر[3].

بعد أن اطمأن السلطان شعبان على جاهزية الأوضاع الأمنية التي رتبها في السلطنة، خرج موكبه نحو الحجاز في يوم الأحد ثالث عشر شهر شوال، يرافقه الخليفة والقضاة والعديد من الأمراء بموكب مهيب مع تجهيزات عديدة لاستخدامها خلال الرحلة، من مأكل ومشرب وملبس، حتى أنّ المغنين وأصحاب خيال الظل رافقوه، مما يدل على عظمة هذا الموكب ومقدار ما صرف عليه من أموال[4].

---

(١) ابن صصري، الدرة المضيئة، ص١٨٩. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢٦٩. Holt: Op. Cit. P. 126.

(٢) أقتمر بن عبدالله الصاحبي الحنبلي نائب السلطنة بمصر توفي سنة ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م. ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص١٦٠. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ص٤٩٢.

(٣) ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٥٥١. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢٧٠، ٢٧٢. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص١٧٠، ١٧١.

(٤) الفاسي، شفاء الغرام، ج٢، ص٢٥٠. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢٧٢، ٢٧٣.

وصل الموكب السلطاني إلى بركة الحجاج[1] ونزل فيها السلطان ليلة الثلاثاء ٢٢ من شـهر شوال ثم غادرها في صبيحة اليوم التالي، وسار بمن معه حتى وصل عقبة أيلة في يوم الثلاثـاء ٢٩ شوال. بعد خروج السلطان شعبان لبركة الحجاج بنحو أحد عشر يوماً في ثالث ذي القعـدة[2] ثار الأمراء الذين بقوا بالقاهرة بزعامة الأمير أينبك البدري[3] وأسندمر الصرغتمش[4] وطشـتمر اللفاف[5]، على أن يقوم الأمراء المرافقين للسلطان بالثورة عليه في الطريـق، وبـالفعل تمكـن الأمراء المتواجدون في القاهرة من اقناع المماليك السلطانية ومماليك الأسياد وممـاليك الأمـراء الذين سافروا مع السلطان من الثورة على السلطان شعبان، بعد أن رغبّوهم بالمال والأعطيـات، وتجمّع هؤلاء المماليك وتوجهوا نحو باب الستارة[6] مطالبين بالأمير علي بن السـلطان شـعبان لينصبوه سلطاناً بدل والده وهم يرددون مات السلطان شعبان ونريد أن نسلطن ولده الأمير علـي،

---

[1] بركة الحجاج أو (الحاج) كان اسمها بركة الجب ثم سمتها العامة بركة الحاج لنزول الحجاج بها عند مسـيرهم من القاهرة الى الحج وتقع شمال القاهرة. المقريزي، الخطط، ج١، ص٤٨٩.

[2] ابن خلدون، العبر، مج٥، ص٥٥١. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢٧٤، ٢٧٥. ابـن تغـري بـردي، النجوم، ج١١، ص٥٧.

[3] الأمير أينبك البدري. أحد الأمراء الكبار. توفي بسجن الإسكندرية سنة ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م. أنظر ابن تغـري بردي، المنهل، ج٣، ص٢٢١.

[4] أسندمر الصرغتمش. لم أعثر له على ترجمة.

[5] طشتمر اللفاف بن عبدالله المحمودي المعروف باللفاف، توفي سنة ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م. أنظر ترجمته ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص١٦٥. ابن قاضي شهبة، تاريخ، م٣، ص٥٥٨. ابن تغري بردي، المنهل الصـافي، ج٦، ص٣٩٤.

[6] باب الستارة: وهو من داخل الستارة ومن أجل أبواب الدور السلطانية عمره الناصر محمـد وزاد فـي سـعة دهليزه، أنظر القلقشندي، صبح، ج٣، ص٤٢٤. المقريزي، الخطط، ج٣، ص٦٣.

فوجدوا رفضاً من القائمين على القلعة، ودارت مفاوضات بين الطرفين، إلا أنهم دخلوها بـــالقوة واستطاعوا اخراج الأمير علي وحلفوا له ولقّبوه بالملك المنصور[1].

من الملاحظ أن بعض المماليك بقوا على ولائهم لأستاذهم السلطان شعبان ورفضـــوا الاشتراك في هذه المؤامرة كالأمير طشتمر الصالحي[2] والأمير بلاط الكبـــير الســيفي[3] والبعض الآخر كان على علم بما يحيكه الأمراء من مؤامرة لكنهم فضلوا البقـــاء بموقـــف الحياد كالأمير أقتمر عبدالغني[4] والأمير علي بن قشتمر[5] الحاجب وغيرهم ممـــا يظـــهر مدى الانقسام بين أمراء الدولة المملوكية[6].

اضطربت أحوال الناس في القاهرة نتيجة لهذه الفتنة، فــأمر أن ينـــادى بالنـــاس بالأمـــان والاطمئنان وأن تفتح الدكاكين والأسواق وأن يترحم الناس على الملك شعبان والدعاء لولده الملك المنصور علي ونائبه الأمير أقتمر الحنبلي، ثم بعد أيام أُخذت له البيعة من جميع العلماء والفقــهاء والأمراء والعامة، وأقرّوا به سلطاناً، فأمر المنادي بالأمان مرة ثانية وبالدعاء للملك المنصـــور،

---

[1] ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج٢، ص٢٣٩. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢٧٥، ٢٧٦. الخالدي، المقصد، ورقة ٧٨/أ.

[2] طشتمر الصالحي أحد الأمراء الأشرفية توفي سنة ٧٨١هـ/ ١٣٧٩م. ابن حجر، الدرر، ج٤، ص١٤١.

[3] بلاط الكبير السيفي، أحد أمراء المماليك توفي سنة ٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م. أنظر ترجمته ابن حجر، الـدرر، ج٢، ص٢٤.

[4] أقتمر بن عبدالله الأتابكي المعروف بأقتمر عبدالغني من أكابر أمراء المماليك توفي سنة ٧٨٣هـــ/ ١٣٨١م. أنظر ترجمته ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٢، ص٤٩٣.

[5] علي بن قشتمر الحاجب الشهير بالوزير توفي سنة ٧٨٣هـ/ ١٣٨١م. أنظر ترجمته، ابن حجر، الـدرر، ج٣، ص١٦٩.

[6] المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢٧٧. ابن قاضي شهبة، تاريخ، م٣، ص٥١١. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص١٧٥.

مجموعة من الأمراء مستغلاً الظلام الحالك نحو القاهرة، ولما وصل قبة النصر خارج القاهرة وصلت إليه الأخبار بثورة المماليك ولذا ارسل أحد مماليكه لاستطلاع الأمر وتوجه هو مع الأمير يلبغا الناصري[١] نحو الجبل الأحمر[٢]، وانتظر الأمراء في قبة النصر رجوع السلطان، فغلبهم النعاس من شدة التعب، بينما أمراء الفتنة الذين كانوا يستعدون للقتال بسوق الخيل، وصلهم الخبر أن شخصاً يسمى قازان اليرقشي[٣] وجد متنكراً، وهو ممن سافر مع السلطان شعبان إلى الحجاز، فجيء به وسُئِل عن خبر السلطان فأبى الإجابة، وهددوه بالقتل فأقر أن السلطان هرب من العقبة مع بعض مماليكه بعد أن ثار عليه المماليك اليلبغاوية والأشرفية، وأخبرهم أنه موجود مع خاصكيته في قبة النصر، فتوجهوا من وقتهم نحوها، فوجدوا الأمراء لا يزالون فيها، فقتلوهم حتى لا يثير بقاؤهم الفتنة ومن ثَمَّ توجهوا للبحث عن السلطان بعد أن أخبرهم هؤلاء الأمراء بدخوله القاهرة مع الأمير يلبغا الناصري[٤].

---

[١] يلبغا الناصري اليلبغاوي الأتابكي مملوك يلبغا العمري قتل سنة ٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م. أنظر ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص٤٣١. ابن تغري بردي، الدليل الشافي، ص٧٩٣.

[٢] الجبل الأحمر. هذا الجبل مطل على القاهرة من الشمال الشرقي ويعرف باليحموم. المقريزي، الخطط، ج١، ص٣٥٤.

[٣] قازان اليرقشي سيف الدين توفي سنة ٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م. أنظر ترجمة ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص١٢١، ١٢٢. ابن قاضي شهبة، تاريخ، م٣، ص٣٦٠.

[٤] ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج٢، ص٢٤٠. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢٨٠. السخاوي، الذيل التام، (حوادث ٧٤٥-٨٥٠هـ)، ص٢٩٠.

اختبأ السلطان شعبان في بيت أستادار يلبغا الناصري، لكنه خشي على نفسه ولم يأمن المكان فتوجه تلك الليلة إلى بيت امرأة كان يعرفها سابقاً اسمها آمنة بحارة المحمودية[1] في القاهرة فاختبأ عندها ليلة الاثنين الخامس من ذي القعدة[2].

عندئذٍ اشتد قلق الأمراء، وخافوا عاقبة ظهور السلطان حتى لا يستميل اليه بعض الأمراء والعامة، فبادروا إلى وضع جائزة مقدارها خمسمائة دينار لمن يدلهم عن مكان اختبائه وحذّروا في نفس الوقت من يخبئه بالشنق، وما هي إلا ساعات حتى جاءت امرأة دلّتهم على مكان اختبائه[3]، فرافقها بعض الأمراء إلى ذلك البيت فوجدوا السلطان شعبان مختبئاً بالبادهنج[4] وقد كان متنكراً بزي امرأة، فقُبض عليه وأحضر إلى قلعة الجبل بين يدي الأمير أينبك البدري الذي عذّبه حتى دلّه على ذخائره وأمواله ثم أحضر القاضي صدر الدين محمد بن ابراهيم المنّاوي[5] في يوم الثلاثاء[6] سادس ذي القعدة لاقرار وصية السلطان التي وصّى بها مماليك ولديه قبيل سفره إلى الحجاز بتولية ولده علي السلطنة، فامتنع القاضي من اقرار الوصية لبقاء الموصي على قيد الحياة، عندئذ دخل على

---

(1) المحمودية. عرفت هذه الحارة نسبة الى طائفة من طوائف عسكر الدولة الفاطمية كان يقال لها الطائفة المحمودية، المقريزي، الخطط، ج٢، ص٣٧٥.

(2) الخالدي، المقصد، ورقة ٧٨/أ. ابن حجر، إنباء الغمر، ج١، ص١٣٠. ابن خليل، دول الإسلام، ص٧٦.

(3) ابن خلدون، العبر، م٥، ص٥٥٣. ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج٢، ص٢٤٠. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص١٧٩، ١٨٠.

(4) البادهنج. وجمعه بادهنجات وهو المنفذ الذي يوجد وسط المبنى للتهوية. المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢٨١، حاشية ١.

(5) القاضي صدر الدين محمد بن ابراهيم المناوي بن اسحاق بن ابراهيم والمناوي نسبة الى قرية من أعمال الجيزية تسمى منيه القائد. السخاوي، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن، (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ج١١، ص٨٦.

(6) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢٨٢، ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص١٨١. وذكر مقتله في يوم الإثنين خامس ذي القعدة عند ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٦١ وابن حجر، إنباء، ج١، ص١٣٠. أما القلقشندي، صبح، ج٣، ص٥٠٢ فذكر مقتله في ثالث ذي القعدة.

السلطان شعبان مملوك يسمى جركس السيفي[1] فخنقه بيديه، حتى مات، وتحقق القاضي والأمـراء من وفاته، وأقر الجميع بسلطنة ولده علي وبوصاية الأمير عز الدين أينبك البدري عليه.

وضع السلطان شعبان في قفة وخُيِّطَ عليه وألقيت جثته في بئر فلما ظهرت الرائحة أُخـرج من ذلك البئر، وغُسِّل وكُفِّن ودُفن بتربة والدته خوند بركة[2] بالتبانة[3].

وهكذا قتل السلطان شعبان بعد أربع عشرة سنة وشهرين وخمسة عشر يوماً من سـلطنته، وكـان عمره عند وفاته أربعاً وعشرين سنة[4]، وقد أثنى عليه المؤرخون وأجمعوا بحميد أخلاقه وحسن احترامـه وأذعانه للشريعة الاسلامية وكثرة تعاطفه مع الفقراء والصلحاء، وقد ذكره ابن حبيب بقوله "كـان ملكـاً رحيماً، عارفاً بتدبير مملكته، كثير الاحتشام والرياسة، حسن السياسة، مستجلباً قلوب الرعيـة بالتعـاطف عليه، قليل الغضب سريع الرضى، رقيق القلب جَمَعَ الأموال وفرّقها، ولم يسلك أحد ممـن تقدمـه مـن الملوك مع صغر سنه أسلوبه، تمهدت له البلاد وأطاعت له ساير العباد ورفع للشرع الشـريف الألويـة والأعلام"[5].

وقال عنه االمقريزي "كان ليناً يحب أهل الخير، إلا أنه كان يحب جمع المال وتفريقه، وكانت أيامه في هدوء وسكون ولم يكن فيه أذى ولا تجبّر، ترك من الأولاد سبعة ذكور: الأمير علي والأمير حـاجي

---

(1) جركس السيفي بن عبدالله الخليلي اليلبغاوي له خان بالقاهرة معروف باسمه توفي سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٤، ص٢٠٥.

(2) ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج٢، ص٢٤١. الخالدي،المقصد، ورقة ٧٨/أ. ابن حجر، إنباء الغمر، ص١٣٠.

(3) التبانة: تقع خارج باب زويلة بالقرب من قلعة الجبل. المقريزي، الخطط، ج٣، ص٥٣٠.

(4) المقريزي، السلوك، ج٣، ق١، ص٢٨٢. ابن حجر، إنباء الغمر، ج٢، ص١٣٠. البكري، محمـد بـن أبـي السرور الصديقي، (ت بعد ١٠٠٧هـ/ ١٥٩٨م)، النزهة الزهية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية، مخطوط مصـور ميكروفيلم، مركز الوثائق والمخطوطات، مكتبة الجامعة الأردنية، تحت رقم (٩)، ورقة ١٧/ب.

(5) درة الأسلاك، ج٣، ورقة ١٤٠/أ.

وكلاهما تسلطن، وقاسماً ومحمداً، واسماعيل وأبا بكر وأحمد وسبع بنات"[1]، وذكره ابن تغـــري بردي بقوله: "كان السلطان الملك الأشرف من أجلّ الملوك سماحة وشهامة وتجملاً وسؤدداً" ثـــم يضيف نقلاً عن القلقشندي قوله في الأشرف "أن الملك الأشرف شعبان هذا كان من فطنته وذكائه، يعرف غالب أحوال القلاع الشامية وغيرها ويعرف كيف تؤخذ ومن أين تحاصر معرفة جيـدة"[2] لشدة ذكاءه وتيقظه في أحوال مملكته، وقال عنه شاعر من عصره وهو الشيخ أحمد بن العطـار[3] يصف مناقبه:

للملك الأشــرف المنصــور سـيدنا   منــاقب بعضـــها يبـدو لـــه العجـــب

ولـــه خلائـــق بيـــض لا يغيرهـــــا   صرف الزمان كما لا يصدأ الذهـــب[4]   (البسيط)

أما ابن إياس فوصفه بقوله "كان حسن الشكل جميل الوجه، كامل الهيئة، ساس الناس فـــي أيامه أحسن سياسة، مات والناس عنه راضية"[5].

---

(1) السلوك، ج٣، ق١، ص٢٨٣. وانظر الخالدي، المقصد، ورقة ٧٨/أ. ابن إياس، بدائع، ج١، ق٢، ص١٨٢.

(2) النجوم، ج١١، ص٦٤، ٦٥.

(3) الشاعر أحمد بن العطار. هو أحمد بن محمد بن عبدالمعطي الأنصاري برع في العربية والفقـــه توفـــي ســـنة ٧٨٨هـــ/ ١٣٨٦م. ابن حجر، الدرر، ج١، ص٢٩٥.

(4) ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص٦٦.

(5) بدائع، ج١، ق٢، ص١٨٢.

وهكذا وصلت سلطنة المماليك في هذه الفترة إلى موقف سياسي حرج للغاية، حيث فلت الزمام من يد السلطان شعبان وتركزت السلطة بيد طائفة من كبار الأمراء المماليك الذين وَجَدوا أن القوة هي الطريق الأنسب الذي يمكّنهم مما يرغبون فيه من صلاحيات مطلقة في مجال السلطة والحكم، وقد توفر لهم ذلك بالفعل في ظل سلطنة الأشرف شعبان حينما كان صغيراً، ولكن عندما كبر ووعى في ظل عدد كبير من الفتن والمؤامرات أخذ يعمل من أجل المساهمة الفعّالة في مجال الحكم، وهنا ظهر الصراع الذي لا بد أن يظهر بينه وبين أولئك الطامعين، وانتهى الأمر بمقتله وهو في مطلع الشباب لكي يتسلطن ولده ويعاصر حقبة مماثلة في أحداثها وفعالياتها.

# الخاتمـــــــــــة

تناولت هذه الدراسة موضوع دولة المماليك الأولى في عهد السلطان الأشرف شعبان بـــن حسين من سنة (٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م) ولغاية سنة (٧٧٨هـ/ ١٣٧٧م)، وهي فترة حافلة بـالأحداث السياسية.

والدارس لفصول هذه الدراسة يستدل أن دولة سلاطين المماليك أبان عهد السلطان الأشرف شعبان كانت تعيش مرحلة صعبة من تاريخها. فالسلطان الأشرف شعبان كان صغيراً لا يتجـاوز العشر سنوات من عمره عند تسلمه الحكم، بينما يظهر لنا واضحاً ذلك الدور المهم الذي قام بـه الأمير يلبغا العمري في خلع المنصور محمد وتولية السلطان الأشرف شعبان، مما يدل على قـوة الصلاحيات التي كان يتمتع بها حينذاك. ونلاحظ كذلك الدور الكبير الذي تمتع به الأتابكة بحيث طغى نفوذهم على سلطة السلطان الأشرف شعبان نفسه في معظم سنوات حكمه، وقد يسـتغرب القارئ عدم وصول أحد هؤلاء الأتابكة الى عرش السلطنة في تلك الفترة ما دام السلطان صغيراً. فربما كان مرد ذلك الى خوف هؤلاء الأتابكة من عدم تأييد كبار الأمراء لهم في تنفيذ فكرتهم هذه لما كان بينهم من تنافس شديد على السلطة والنفوذ. فلم يكن احد يرضى أن يسوده أحد وهو مثله، خوفاً من أن يستبد بهم، بل كانوا يفضلون أن يكون سلطانهم لا شـخصية لـه ولا إرادة، حتـى يتمكنوا من تحقيق أطماعهم وتمكين نفوذهم. ومثل هذه الصفات توفرت في شـخصية السـلطان الأشرف شعبان كونه صبياً صغيراً لا قدرة له على إدراك الأمور وإدارة شؤون السـلطنة كمـا يجب.

ولذا لا نستغرب كثرة الفتن والاضطرابات التي أثارها الأتابكة والأمراء أثناء حكم السلطان الأشرف شعبان، والتي غالباً لم تحقق أهدافها نتيجة تنافس الأمراء ووقوف عامة الناس الى جانب السلطان شعبان لمعرفتهم أنه لا حول له ولا قوة في مجمل هذه الفتن والمؤامرات التي أوصلت دولة المماليك أنذاك الى مرحلة صعبة من الضعف والوهن بحيث أطمعت الغرب الأوروبي في تجديد روح الفكرة الصليبية لغزو أراضيها، وقد رأينا سهولة دخول هذه القوات الى مدينة الاسكندرية وتدميرها وأسر خمسة آلاف من أبنائها. مما يثبت تساهل دولة المماليك وعدم فاعلية جيشها فضلاً عن فساد أمرائها وانشغالهم بمصالحهم الخاصة.

وقد بدا واضحاً أن دولة المماليك أبان عهد السلطان الأشرف شعبان كانت مضطربة سياسياً، ومع ذلك فقد شهدت نشاطاً دبلوماسياً وقيام العديد من العلاقات مع الدول والممالك المجاورة لها في تلك الفترة، فقد خضعت مملكة أرمينية الصغرى تحت سيطرة المماليك بعد عدة محاولات قاموا بها منذ أيام الناصر محمد، وأصبحت هذه الدولة منذ سنة (٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م) تابعة لدولة المماليك، وأشرف على شؤونها نائب حلب ثم أصبح لها نائب يعرف بنائب سيس.

كذلك نلاحظ أن علاقة دولة المماليك أبان عهد السلطان الأشرف شعبان مع مغول فارس كانت متقلبة، وجاءت حركة والي بغداد الخواجا مرجان الانفصالية لتأكيد العداء، ولولا ضعف دولة المماليك أنذاك لاستطاع السلطان شعبان الإبقاء على العراق تحت نفوذ دولته، كذلك نلاحظ الايلخان المغولي يبادر الى الوقوف الى جانب دولة المماليك عندما تعرضت الاسكندرية للغزو الصليبي، مما يظهر روح الولاء للدين والعقيدة الإسلامية. أما مغول القفجاق فاستمرت العلاقات الطيبة قائمة بينهم وبين دولة المماليك، وتبادل كلا الطرفين الرسائل والسفارات. وهو الشأن نفسه

مع الدولة البيزنطية التي كانت على عداء تام مع الغرب الأوروبي لذلك توالت السفارات وارسال الهدايا الى السلطان. أما سلاجقة الروم فحافظوا على صلات الود مع السلطان الأشرف شعبان كما أبدى سلطانهم استعداده للمشاركة في غزو قبرص ويضاف الى سلاجقة الروم الأراتقة في مدينة ماردين، فهؤلاء ارتبطوا بالمماليك بعلاقات طيبة، أما دولة بني دلغادر التركمانية القائمة على أطراف الدولة الشمالية فخضعت هي ومدينة سنجار لسيطرة المماليك منذ سنة (٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م) وسنة (٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م).

كما امتازت علاقة دولة المماليك مع دول المغرب الإسلامي ومملكة غرناطة بالأندلس بالمشاركة في المناسبات وتبادل الهدايا والسفارات التي تؤكد على وحدة الدين والمصير في مواجهة الأخطار الخارجية.

وفيما يخص الناحية الاقتصادية لدولة السلطان الأشرف شعبان، فإن القطاع التجاري بشقيه الداخلي والخارجي شكل عماد الثروة لدولة المماليك، ولذا اجتهدت على دوام تسهيل سبل التجارة، وكانت المحطات والمدن التجارية في دولة المماليك مرتبطة ببعضها البعض بواسطة شبكة متعددة من الطرق التجارية، وكان التبادل التجاري بين النيابات متنوعا فمنها الموسمية والدائمة والطارئة، أما التجارة الخارجية فكانت مزدهرة نتيجة لموقع دولة المماليك بين البحر المتوسط والبحر الأحمر. وهذا الموقع أتاح لها فرصة القيام بدور الوسيط بين تجارة الشرق وتجارة الغرب. فدولة سلاطين المماليك تقع على أقصر الطرق المؤدية الى الهند – مصدر السلع الأكثر طلبا في أوروبا (البخور والبهارات والتوابل) – وتتصل بأوروبا عبر موانئ دولة المماليك المنتشرة على طوال سواحل البحر المتوسط في مصر وبلاد الشام. ولذلك فإن الخطوط التجارية المنتظمة بين الشرق والغرب كانت تمر حتما في أراضيها مما أكسبها مبالغ ضخمة من الأموال.

ويلاحظ أن تجارة المماليك تأثرت كثيرا أبان تجدد الحروب الصليبية. فالحملـــة الصليبيـــة التي قادها بطرس الأول لوزنيان على الاسكندرية أنهكت الدولة اقتصاديا نتيجة انقطـــاع التبـــادل التجاري مع المدن الأوروبية التجارية كالبندقية وجنوة وبيزة، وقد تقلصت واردات الدولة الماليـــة نتيجة ذلك، وهذا ما يؤكد ارتباط الاقتصاد بالسياسة. فكلما كانت الدولة مســـتقرة سياســـيا كـــان الاقتصاد مزدهرا والعكس صحيح.

أما الأسواق التجارية فكانت منتشرة في جميع المدن والقرى في دولة سلاطين المماليك وقد كانت متعددة الاختصاصات. كذلك نلاحظ ارتباط أسعار السلع التجارية بالعوامل السياسية كـــالفتن والثورات واعتداءات العربان وعوامل طبيعية تتعلق بفيضان نهر النيـــل وانحســـاره وانحبـــاس الأمطار وموجات البرد والصقيع وظهور القوارض والجراد والآفات الزراعية، فضلا عن انتشار الأوبئة والأمراض.

الى جانب اعتماد دولة المماليك على الواردات المحصلة من التجارة دأبـــت علـــى تـــأمين واردات مالية أخرى من خلال ما يدفع عن الأراضي وما كان يدفعه أهل الذمة (الجوالي) علـــى سبيل الجزية وما كان يفرض على الأهالي من مكوس وضرائب وزكاة ومواريث حشـــرية ومـــا يتحصل من سك النقود.

ونستخلص أن النقد المتداول آنذاك كان يضرب في البلاد المصرية والشامية مـــن الذهـــب والفضة والنحاس الى جانب التداول بالنقود المصورة الأوروبية.

كذلك نلاحظ الاختلاف بين وحدات الأوزان والمكاييل والمقاييس في مدن دولة الممـــاليك. ومرد ذلك لطريقة البيع والشراء واختلافها في كل مدينة.

أما الزراعة فهي من المقومات الأساسية للحياة الاقتصادية لارتباطها بالنظـــام الاقطـــاعي الذي ترسخت جذوره في مصر منذ ايام الأيوبيين وقد كان نظاما صارما في بداية تأسيس دولـــة المماليك، لكن هذا النظام أصابه الخلل لاحقا وأهمل الأمراء الزراعة وتعطلت المشاريع الزراعيـة وهجر الفلاحون الأراضي. كما نستخلص أن الأراضي الزراعية في مصر اعتمدت كليا على مياه النيل ولهذا أقام المماليك شبكة هائلة من الترع والسدود والقناطر لضبط مياه النيل أما بلاد الشـــام فنجد اعتماد زراعتها بالدرجة الأولى على مياه الأمطار باستثناء قليل منها يعتمد على الســـواقي والدواليب والنواعير أما منطقة الأغوار فتميزت بزراعتها الكثيفة والمتنوعة.

وبالنسبة للصناعة فنتبين اعتمادها على المنسوجات وصناعة السكر والزيت والمعادن كمـــا أبدع المصريون بصناعة المراكب البحرية التي ساعدت المماليك على صد الـــهجمات الصليبيـــة المتكررة على السواحل المصرية والشامية.

ومن المواضيع الأخرى التي ركزت عليها هذه الدراسة فساد الحكم في دولة المماليك فـــي عهد السلطان الأشرف شعبان، ودللت على ذلك الفساد بصغر سن السلطان الأشرف شعبان وجهله بالأمور السياسية واستبداد الأمراء والأتابكة عليه، وتجلت صورة الفساد في الجيش من خلال تعدد فرقة وتشعب مماليكه واختلاف أهوائهم وتنازعهم على النفوذ والبقاء. وكذلك تخليهم عن التربيـــة الصارمة بالطباق.

ولا شك في أن سرعة تخريج المماليك من الطباق انعكس على ولائهم فالجندي تخلى عـــن علاقته القوية بسيده كما فقدت روح الزمالة محتواها بين المماليك. فضلا عن جلب أعداد كبـــيرة

من الأجلاب كبار السن وتسلمهم مناصب عليا في الجيش دون أن يتقيدوا بسلم الترقية الطبيعي للدولة.

كما نلمس الفساد في نظام الإقطاع، وقد ساعد هذا الفساد في التعجيل بزوال دولة المماليك الأولى بسبب اهمال وسائل الري والصرف وكثرة حدوث انقطاع الجسور وعطش الأراضي الزراعية نتيجة اهمال المماليك لوسائل ضبط مياه النيل.

ومن الطبيعي أن الفساد الذي تسرب الى النظام العسكري قد انعكس سلبا على التنظيم الاداري لأن القائمين على إدارة الدولة كانوا من أمراء الجيش فضلا عن قلة قليلة من المتعممين أبناء البلاد الأصليين.

وكان نتيجة هذا الفساد الذي أصاب مؤسسات دولة المماليك مصرع السلطان الأشرف شعبان وبالتالي سقوط دولة المماليك الأولى.

# ملحق رقم ١

## نسخة أمان عن نائب السلطنة بحلب

## الأمير قشتمر المنصوري في دولة السلطان شعبان بن حسين القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٣، ص٣٤٩-٣٥٠

هذا أمان الله سبحانه وتعالى، وأمان نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وأمان مولانا السلطان الأعظم، العالم العادل، المجاهد، المرابط، المثاغر، المؤيد، المالك، الملك الأشرف، ناصر الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، محيي العدل في العالمين، منصف المظلومين من الظالمين، قامع الكفرة والمشركين، قاهر الطغاة والمعتدين، مؤمن قلوب الخائفين والتائبين، ملك البحرين، صاحب القبلتين خادم الحرمين الشريفين، وارث الملك، سلطان العرب والعجم والترك، ملك الأرض، الحاكم في طولها والعرض، سيد الملوك والسلاطين، قسيم أمير المؤمنين "شعبان" ابن الملك الأمجد جمال الدنيا والدين "حسين" ابن مولانا السلطان الشهيد الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين "محمد" ابن مولانا السلطان الشهيد الملك المنصور "قلاوون" – خلد الله ملكه، وجعل الأرض بأسرها ملكه – إلى فلان بالحضور الى الطاعة الشريفة: طيب القلب، منبسط الأمل، آمنا على نفسه وماله وأولاده، وجماعته وأصحابه ودوابه، لا يخاف ضررا ولا مكرا، ولا خديعة ولا غدرا، وله مزيد الإكرام والاحترام، والرعاية الوافرة الأقسام، والعفو والرضا، والصفح عما مضى.

فليتمسك بعروة هذا الأمان المؤكد الأسباب، الفاتح الى الخيرات كل باب، وليثق بعروته الوثقى، فإنه من تمسك بها لا يضل ولا يشقى؛ وليشرح بالصفح عما مضى صدرا، ولا يخش ضيما ولا ضرا، ولا يعرض على نفسه شيئا مما جنى واقترف، فقد عفا الله عما سلف؛ والخط الكريم – أعلاه الله تعالى – أعلاه حجة فيه.

# ملحق رقم ٢

## نسخة تقليد بنيابة ثغر الإسكندرية في سنة سبع وستين وسبعمائة

## القلقشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص٤٠٠-٤٠١

الحمد لله على نعم باسمه الثغر، مسفرة الفجر، رافعة القدر.

نحمده حمدا يشرح الصدر، ويطلع طلوع البدر، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تحالف من يحالفها، وتخالف من يخالفها، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله أفضل نبي رابط في سبيل الله وجاهد، وكابد في الجهاد أعداء الدين وكايد، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه الذين خاضوا في غمرات الدجى كل غمر، وندبوا لحماية الدين فكانوا ليوم كريهة وسداد ثغر.

أما بعد، فإن الاهتمام بالثغور هو أولى ما إليه حمد، وعلى مصالحها اعتمد، وكان ثغر الإسكندرية المحروس هو المفتر عن أحسن الثنايا، والمخصوص من الحياطة بأتم المزايا، والذي كم شفت شفاهة من سقم عند إرتشاف، والذي المثاغر به والمرابط كم له بالحسنات من ائتلاف، وكانت المصلحة تقتضي أن لا يختار له إلا كل كامل الأوصاف، كافل بما تستدعيه مصلحة أهله من إنصاف، ذو عزم يمضي والسهام مستودعة في الكنائن، ويقضي بالعدل المزيل للشوائب والشوائن، ومن له حزم يسد ثغر المعايب دون كل ملاحظ ومعاين، وله سياسة تحفظ بمثلها الثغور، وتصان الأمور، وله بشاشة تستجلب النفور، وتوفق ما بين الألسنة من أولي الود والصدور، وله حياطة بينما يقال: هذا جانبه دمث إذ يقال: هذا جانبه صعب ممتنع، وبينما يقال ليقظته للمصلحة: هذا سحاب جهام إذ يقال هذا سيل مندفع.

ولما كان فلان هو مستوعب هذه الصفحات، ومستودع هذه الأسماء والسمات، وإليه بهذه المناقب يشار، وهو ساحب أذيال هذا الفخار – اقتضى حسن الرأي الشريف أن تفوض إليه السلطنة الشريفة بثغر الإسكندرية المحروس، تفويضا يمضي في مصالحه لسانه وقلمه، ويصرف بين الأوامر والنواهي إشارة وكلمة، ويزين مواكبه بطلعته، ويزيد مهابته ببعد صيته واشتهار سمعته...

# ملحق رقم ٣

## نص مرسوم الأمير يلبغا الخاصكي

## الصادر الى الأمير سيف الدين منكلي بغا نائب دمشق
## حول أخذ ربع أموال النصارى في أعقاب واقعة الإسكندرية

## سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م، وموقف ابن كثير من ذلك

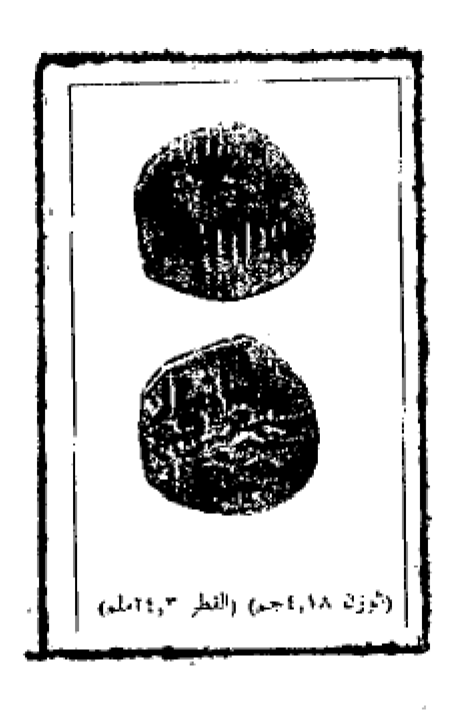
... وجاء المرسوم الشريف من الديار المصرية الى نائب السلطنة بمسك النصارى من الشام جملة واحدة، وأن يأخذ منهم ربع أموالهم لعمارة ما خرب من الإسكندرية، ولعمارة مراكب تغزو الفرنج، فأهانوا النصارى وطلبوا من بيوتهم بعنف وخافوا أن يقتلوا، ولم يفهموا ما يراد بهم فهربوا كل مهرب، ولم تكن هذه الحركة شرعية ولا يجوز اعتمادها شرعا، وقد طلبت يوم السبت السادس عشر من صفر الى الميدان الأخضر للاجتماع بنائب السلطنة، وكان اجتماعا بعد العصر يومئذ بعد الفراغ من لعب الكرة، فرأيت منه أنسا كثيرا، ورأيته كامل الرأي والفهم، حسن العبارة كريم المجالسة، فذكرت له أن هذا لا يجوز اعتماده في النصارى، فقال إن بعض فقهاء مصر أفتى للأمير الكبير بذلك، فقلت له: هذا مما لا يسوغ شرعا، ولا يجوز لأحد أن يفتي بهذا، ومتى كانوا باقين على الذمة يؤدون إلينا الجزية ملتزمين بالذلة الصغار، وأحكام الملة قائمة، لا يجوز أن يؤخذ منهم الدرهم الواحد – الفرد – فوق ما يبذلونه من الجزية، ومثل هذا لا يخفى على الأمير، فقال: كيف أصنع وقد ورد المرسوم بذلك ولا يمكنني أن أخالفه؟ وذكرت له أشياء كثيرة مما ينبغي اعتماده في حق أهل قبرص من الإرهاب ووعيد العقاب، وأنه يجوز ذلك وإن لم يفعل ما يتوعدهم به، كما قال سليمان بن داود عليهما السلام: "إئتوني بالسكين أشقه نصفين"، كما هو

الحديث مبسوط في الصحيحين، فجعل يعجبه هذا جدا، وذكر أن هذا كان في قلبه وأنني كاشــفته بهذا، وأنه كتب به مطالعة الى الديار المصرية، وسيأتي جوابها بعد عشرة أيام، فتجيء حتى تقف على الجواب، وظهر منه إحسان وقبول وإكرام زائد رحمه الله، ثم اجتمعت به في دار السعادة في أوائل شهر ربيع الأول فبشر في أنه قد رسم بعمل الشواني والمراكب لغزو الفرنـــج ولله الحمـد والمنة ثم في صبيحة يوم الأحد طلب النصارى الذين إجتمعوا في كنيستهم الى بين يديــــه وهــم قريب من أربعمائة فحلفهم كم أموالهم وألزمهم بأداء الربع من أموالهم، فإنا لله وإنا إليه راجعـون، وقد أمروا الى الولاة بإحضار من في معاملتهم، ووالي البر قد خرج الى القرايـــا بســبب ذلــك، وجردت أمراء النواحي لاستخلاص الأموال من النصارى في القدس وغير ذلك.[1]

[1] ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٢١٤-٢١٥.

## ملحق رقم ٤

### فلس مملوكي بحري ضرب القاهرة سنة ٧٧٠هـ باسم الأشرف شعبان بن حسين وكتاباته نصها كالتالي:



(الوزن ٤,١٨جم) (القطر ٢٤,٣ملم)

**الوجه:** السلطان الملك

الأشرف بن حسين

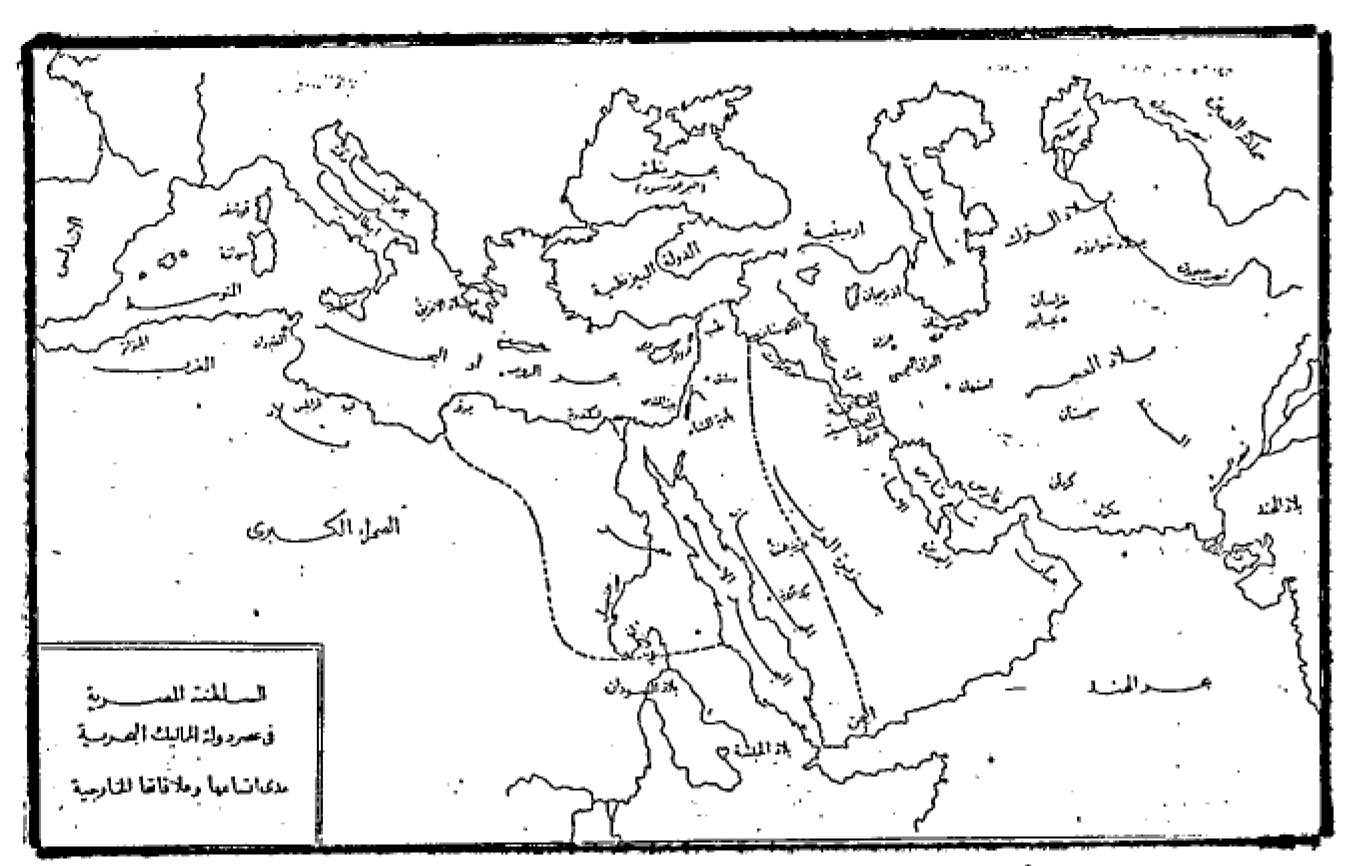
شعبان بن

السلطان الملك

**الظهر:** ضرب القاهرة

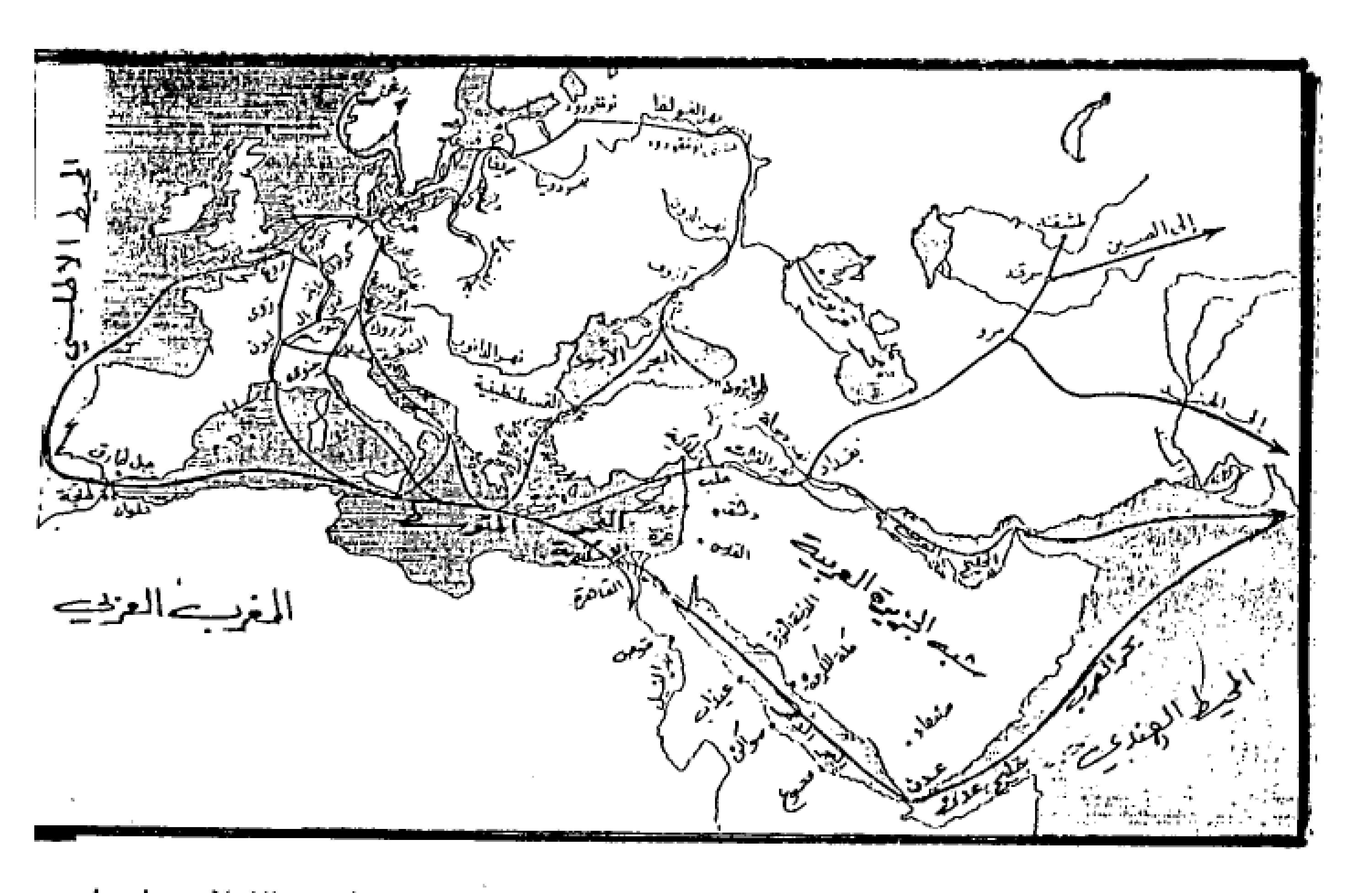
سنة سبعين وسبعمائة

# خريطة رقم ١




نقلاً عن كتاب تاريخ المماليك البحرية ، لمؤلفه – علي ابراهيم حسن .

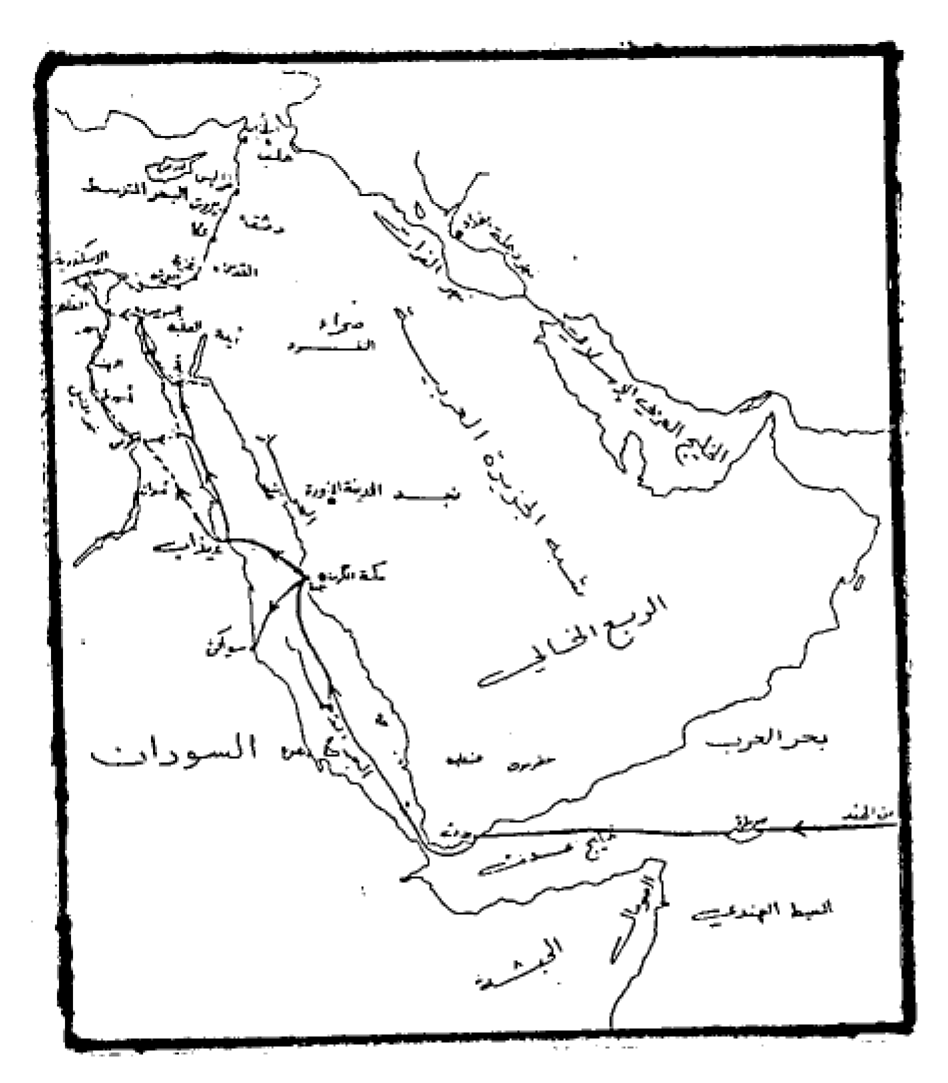
## خريطة رقم ٢




الطرق التجارية الرئيسية من الشرق الاقصى ( الهند والصين ) نحو المشرق العربي الإسلامي واروبا.

نقلاً عن كتاب السلاطين في المشرق العربي ، لمؤلفه – عصام شبارو.

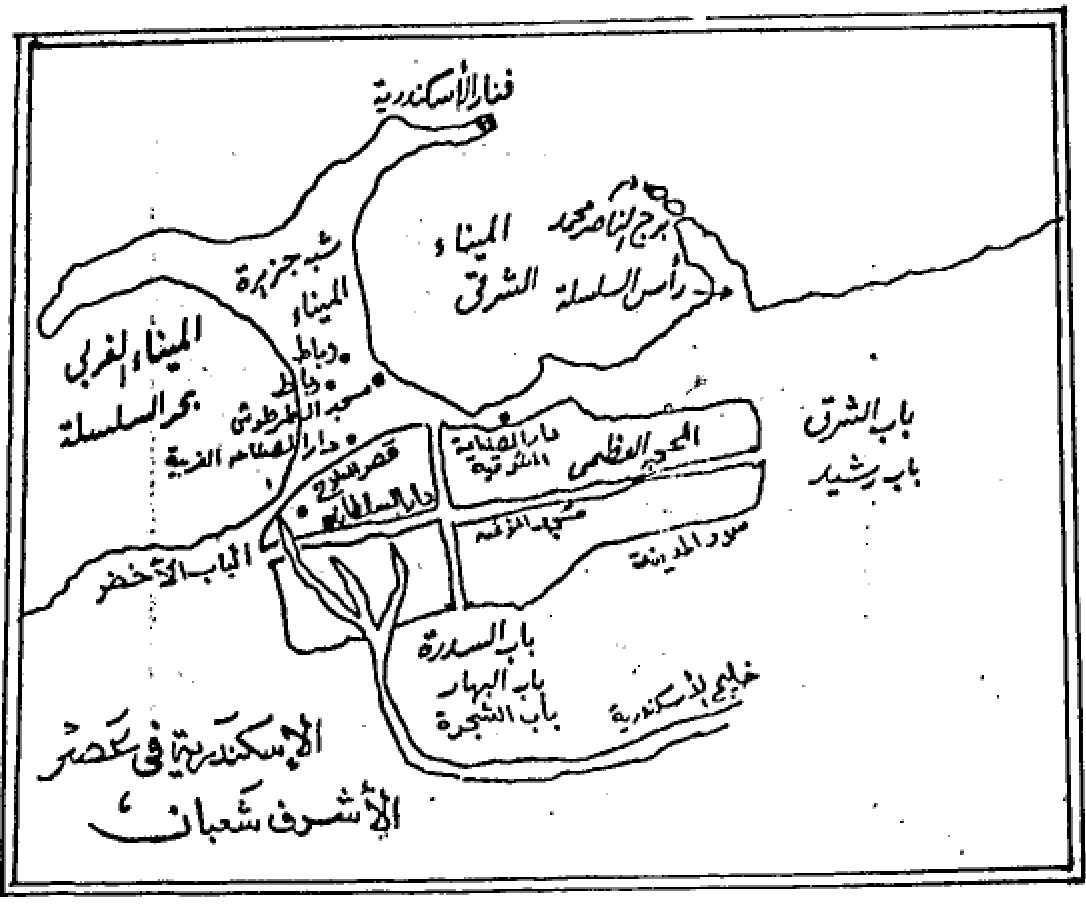
# خريطة رقم ٣




طريق البحر الأحمر وفروعه البرية والنهرية إلى مصر .

نقلاً عن كتاب السلاطين في المشرق العربي ، لمؤلفه – عصام شبارو .

## خريطة رقم ٤




نقلاً عن كتاب دراسة في تاريخ الأيوبيين والمماليك لمؤلفة .

السيد عبد العزيز سالم ، سحر عبد العزيز سالم

# قائمة المصادر والمراجع

## أ ـ المصادر

### ١ـ المصادر المخطوطة


ـ ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي، (ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م)، نشق الازهار ، مخطوط مصور ميكروفيلم ، مركز الوثائق و المخطوطات ، مكتبة الجامعة الأردنية ،شريط رقم ٣٥٨.

ـ البكري، محمد بن أبي السرور الصديقي، (ت بعد ١٠٠٧هـ/١٥٩٨م)، النزهة الزهية في ذكر ولاة مصر والقاهرة المعزية، مخطوط مصور ميكروفيلم، مركز الوثائق والمخطوطات، مكتبة الجامعة الأردنية، شريط رقم (٩).

ـ ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف، (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، مورد اللطافة في ذكر من ولي السلطنة والخلافة، مخطوط بمكتبة جامعة برنستون، نيوجرسي، تحت رقم ٥٩٧، يوجد نسخة مصورة في مركز الوثائق والمخطوطات مكتبة الجامعة الأردنية، شريط رقم (١٠٠).

ـ الحاج، محمد بن يوسف، (وفيات القرن ١٢هـ/١٨م)، تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، نسخة مصورة ميكروفيلم، مركز الوثائق والمخطوطات، مكتبة الجامعة الأردنية، شريط رقم (٩).

ـ ابن حبيب، الحسن بن عمر، (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، درة الأسلاك في دولة الأتراك، ج٣، مخطوط مصور ميكروفيلم مركز الوثائق والمخطوطات، مكتبة الجامعة الأردنية، شريط رقم (٥٣٩).

ـ الخالدي، بهاء الدين محمد بن لطف الله العمري، (ت بعد سنة ٨٢٥هـ/١٤٢١م)، المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الإنشاء، نسخة مصورة عن المكتبة الأهلية في باريس، مركز الوثائق والمخطوطات، مكتبة الجامعة الأردنية، شريط رقم (١٠٧٠).

ـ الشهابي، الأمير حيدر، الغرر الحسان في تاريخ حوادث الزمان، ج١، مخطوط مصور ميكروفيلم، مركز الوثائق والمخطوطات، مكتبة الجامعة الأردنية، شريط رقم (٧٥٤).

ـ الطهشواري، نوح بن مصطفى، (ت ١٠٧٠هـ/١٦٥٩م)، تاريخ مصر والنيل، مخطوط مصور ميكروفيلم، مركز الوثائق والمخطوطات، مكتبة الجامعة الأردنية، شريط رقم (١٠).

- القاضي عبد الباسط، زين الدين بن عبد الباسط الفرسي، (ت ٩٢٠هـ/١٥١٤م)، نيل الأمل في ذيل الدول، ج٢، مخطوط مصور ميكروفيلم، مركز الوثائق والمخطوطات، مكتبة الجامعة الأردنية، شريط رقم (١٠٩٠).
- ابن ناظر الجيش، تقي الدين بن محب الدين بن موسى، (ت ٧٨٦هـ/١٣٨٤م)، تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف، مخطوط مصور ميكروفيلم، مركز الوثائق والمخطوطات، مكتبة الجامعة الأردنية، شريط رقم (١٠٧٠).

## ٢ ـ المصادر المطبوعة

- ابن الأثير، عز الدين علي بن أبي الكرم الشيباني، (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، الكامل في التاريخ، ١٢ج، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.
- ابن أجا، محمد بن محمود الحلبي، (ت ٨٨١هـ/١٤٧٦م)، العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك مع رحلة الأمير يشبك من مهدي الداوادار، صنعة، محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٦م.
- الأسدي، محمد بن محمد بن خليل ،(ت ٨٥٤هـ/١٤٥٢م)، التيسير والاعتبار والتحرير والاختيار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار، تحقيق عبد القادر طليمات، دار الفكر العربي، بيروت.
- الأصفهاني، عماد الدين محمد بن حامد، (ت ٥٩٧هـ/١٢٠١م)، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق و شرح محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة و النشر، القاهرة، ١٩٦٥م.
- ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي ،(ت ٩٣٠هـ/١٥٢٣م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ٥ج، حققها وكتب لها المقدمة محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٨٢م.

ـــــــــ،نزهة الأمم في العجائب والحكم، تقديم وتحقيق محمد زينهم عزب، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م.

- البدري، عبد الله بن محمد الدمشقي، (وفيات ق٩ هـ/١٥م)، نزهة الأنام في محاسن الشام، نشر المكتبة العربية، بغداد، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٩٢٢م.
- ابن بطوطة، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروفة برحلة ابن

ـــــــ،الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة،٥ ج، حققه وقدم له ووضع فهارسه محمد سيد جاد الحق، دار الكتب الحديثة، مطبعة المدني، القاهرة.

ـــــــ،رفع الأصر عن قضاة مصر، تحقيق حامد عبد المجيد وآخرون، المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٩٥٧.

- الحميري، محمد بن عبد المنعم، (من وفيات القرن ٨هـ/١٤م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م.
- الحنبلي، مجير الدين عبد الرحمن بن محمد، (ت ٩٢٨هـ/١٥٢١م)، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٢ج، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٣.
- ابن حوقل، أبي القاسم النصيبي، صورة الأرض، منشورات مكتبة دار الحياة، بيروت.
- الخزرجي ،علي بن الحسن، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، ٢ج، عني بتحقيقه محمد بسيوني عسل، مطبعة الهلال، مصر، ١٩١٤.
- ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله ، (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م)، الإحاطة في أخبار غرناطة، ٤ج، حققه ووضع حواشيه محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٧٧.
- ابن خلدون ،عبد الرحمن بن محمد، (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ٧ج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٢.

ـــــــ،المقدمة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ٨ج، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة ، بيروت، ١٩٦٩.
- ابن خليل، أبي حامد محب الدين محمد المقدسي الشافعي، (ت ٨٨٨هـ/١٤٨٣م)، دول الإسلام الشريفة البهية وذكر ما ظهر لي من حكم الله الخفية في جلب طائفة الأتراك إلى الديار المصرية، تحقيق صبحي لبيب وأو لريش هارمان، مؤسسة دار الريحاني، بيروت، ط١، ١٩٩٧.
- ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن أيدمر العلائي، (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م)، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، المكتب التجاري للطباعة و النشر، بيروت، نسخة اوفست عن طبعة بولاق، ١٨٩٣م.

ـــــــ، الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، ٢ج، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٩٨٥.

ـــــــ، نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، ٢ج، تحقيق سمير طبارة، المكتبة العصرية، بيروت، ط١،١٩٩٩.

- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، (ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، (حوادث ٦٥١-٦٦٠هـ)، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٩.

ـــــــ،دول الإسلام، تحقيق عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، دار إحياء التراث الإسلامي، قطر، ١٩٨٨.

ـــــــ،العبر في خبر من عبر، ٣ج، حققه وضبطه أبو هاجر محمد سعيد بن بسيوني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥.

ـــــــ،ذيول العبر في خبر من عبر، (الذيل الثاني للحسني)، ٤ج، تحقيق أبو هاجر زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥.

ـــــــ،سير أعلام النبلاء، ٢٣ج، تحقيق بشار عواد معروف ومحيي السرحان وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٢.

- السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن علي، (ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م)، معيد النعم ومبيد النقم، مؤسسة الكتب الثقافية ببيروت، ط١، ١٩٨٦.

- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م)، الذيل التام على دول الإسلام للذهبي، (حوادث وتراجم للسنوات ٧٤٥-٨٥٠هـ)، حققه وعلق عليه حسن إسماعيل مروه، مكتبة دار العروبة، الكويت، دار ابن العماد، بيروت، ط١، ١٩٩٢.

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن محمد بن عثمان، (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)، تاريخ الخلفاء، تحقيق إبراهيم صالح، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٧.

ـــــــ،حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ٢ج، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧.

- أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل، (ت ٦٦٥هـ/١٢٦٦م)، تراجم رجال القرنين السادس والسابع الهجريين المعروف بالذيل على الروضتين، تقديم محمد زاهد الحسن الكوثري، نشره وراجع أصله السيد عزت العطار ، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٧٤.

- ابن الشحنة، أبي الفضل محمد، (ت ٨٩٠هـ/١٤٨٥م)، الدرر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، تقديم عبد الله محمد درويش، دار الكتاب العربي، دمشق، ١٩٨٤.
- ابن شداد، عز الدين محمد بن علي، (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م)، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ٢ج، تحقيق يحيى عبادة، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٨.

ـــــ،تاريخ الملك الظاهر، اعتناء أحمد حطيط، نشر دار فرانز شتانير بفسبادن، ألمانيا، ١٩٨٣.

- الشيباني، أبي الضياء عبد الرحمن بن علي الربيع الزبيدي، (ت٩٤٤هـ/١٥٣٧م)، قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، المكتبة اليمنية الحوالية، اليمن، ط٢، ١٩٨٨.
- شيخ الربوة، شمس الدين أبي عبد الله الدمشقي، (ت ٧٢٧هـ/١٣٢٦م)، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٢٣.
- ابن صصري، محمد بن محمد، (ت ٨٠٠هـ/١٣٩٨م)، الدرة المضيئة في الدولة الظاهرية، ٢ج، تحقيق وليم بريئر، ١٩٦٣.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، (ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م)، أعيان العصر وأعوان النصر،٤ ج، تحقيق علي أبو زيد وآخرون، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١،١٩٩٨.

ـــــ،الوافي بالوفيات، ٩ج، تحقيق يوسف فان إس وآخرون، نشر دار فرانزشتاينر، شتوتجارت، ألمانيا، ط١، ١٩٨١.

- الصقاعي، فضل الله بن أبي الفخر، (ت.ق ٨هـ/١٤م)، تالي كتاب وفيات الأعيان، تحقيق جاكلين سوبلة، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٧٤.
- ابن الصيرفي، علي بن داود، (ت ٩٠٠هـ/١٤٩٤م)، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان،٣ ج، تحقيق حسن حبشي، مطبعة دار الكتاب، الجمهورية العربية المتحدة، ١٩٧٠.
- ابن طولون، شمس الدين محمد الصالحي، (ت ٩٥٣هـ/١٥٤٦م)، أعلام الورى بمن ولي نائبا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى، تحقيق محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٩٨٤.
- الظاهري، غرس الدين خليل بن شاهين، (ت ٨٩٣هـ/١٤٨٧م)، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، وضع حواشيه خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧.

- ابن ظهيرة، محمد بن أحمد، (ت ٨٨٨هـ/١٤٨٣م)، الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس، مطبوعات دار الكتب، الجمهورية العربية المتحدة، ١٩٦٩.
- ابن عبد الظاهر، محيي الدين أبو الفضل عبد الله، (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م)، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط١، ١٩٧٦.
- ابن العبري، غريغوريوس الملطي ، (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، تاريخ مختصر الدول، دار المسيرة، بيروت.
- العجمي، سبط بن العجمي الحلبي، (ت ٨٨٤هـ/١٤٨٢م)، كنوز الذهب في تاريخ حلب، ٢ج، تحقيق شوقي شعث وفالح بكور، دار القلم العربي، حلب، ط١، ١٩٩٦.
- ابن العديم، كمال الدين أحمد بن هبة الله،(ت٦٦٠ هـ/١٢٦٢م)، زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق سامي دهان، دمشق،١٩٥١.
- ابن العراقي، ولي الدين أحمد بن عبد الرحيم، (ت ٨٢٦هـ/١٤٢٤م)، الذيل على العبر في خبر من عبر، ٢ج، تحقيق صالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٩.
- العسقلاني، شافع بن علي، (ت ٧٣٠هـ/١٣٢٩م)، الفضل المأثور من سيرة الملك المنصور، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط١، ١٩٩٨.
- ابن علي، يحيى بن الحسين بن القاسم، (ت ١١٠٠هـ/١٦٨٨م)، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، ٢ق، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ومحمد مصطفى زيادة، دار الكتاب العربي للطاعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨.
- ابن العماد، أبي الفلاح عبد الحي الحنبلي، (ت ١٠٨٩هـ/١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٨ج، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، بيروت.
- العمري، ابن فضل الله، (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق سمير دروبي، منشورات جامعة مؤتة، ط١، ١٩٩٢.

  ـــــــ،مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، دراسة وتحقيق دوروتيا كرافولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، ط١، ١٩٨٦م.
- العيني، بدر الدين محمود بن أحمد، (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م)، السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، تحقيق فهيم شلتوت ومحمد مصطفى زيادة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧.

- الفاسي، محمد بن أحمد الحسني، (ت ٨٣٢هـ/١٤٢٨م)، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ٢ج، حققه وعلق عليه لجنة من كبار العلماء والأدباء، دار الكتب العلمية، بيروت.
______،العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩.
- أبو الفداء، الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل، (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)، تاريخ أبي الفداء المسمى المختصر في أخبار البشر، ٤ج، علق عليه ووضع حواشيه محمود أيوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٧.
______،تقويم البلدان، دار صادر، بيروت.
- ابن الفرات، ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن، (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٤م)، تاريخ ابن الفرات،٧ م، حققه وضبط نصه قسطنطين زريق، المطبعة الأميركانية، بيروت، ١٩٣٨.
- ابن فهد، النجم عمر بن محمد بن محمد، (ت ٨٨٥هـ/١٤٨٠م)، إتحاف الورى بأخبار أم القرى، ٣ج، دار المدني، جدة، جامعة أم القرى، مكة، ١٩٧٧.
- ابن الفوطي، كمال الدين أبي الفضل البغدادي، (ت ٧٢٤هـ/١٣٢٣م)، الحوادث الجامعة التجارب النافعة في المائة السابعة، دار الفكر الحديث، بيروت، ١٩٨٧.
- ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبي بكر الأسدي الدمشقي، (ت ٨٥١هـ/١٤٤٨م)، تاريخ ابن قاضي شهبة، تحقيق عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٩٤.
- ابن القلانسي، ابو يعلى حمزة بن أسد، (ت٥٥٥هـ/١١٦٠م)، ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٨م.
- القلقشندي، أحمد بن علي، (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء،١٥ ج، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٧.
______،مآثر الأنافة في معالم الخلافة، ٢ج، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مكتبة عالم الكتب.
______،نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٥٩.
- الكتبي، محمد بن شاكر، (ت ٠هـ/١٣٦٢م)، عيون التواريخ ، تحقيق فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم، دار الرشيد، الجمهورية العراقية، ١٩٨٠.

ـــــــ، فوات الوفيات و الذيل عليها، تحقيق إحسان عباس، دار صادر.

- ابن كثير، أبو الفداء الدمشقي، (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، البداية والنهاية في التاريخ، ١٤ج، دار الحديث، القاهرة، ١٩٩٤.

- ابن كنان، محمد بن عيسى، (ت ١١٥٣هـ/١٨٤٠م)، حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين، تحقيق عباس الصباغ، دار النفائس، بيروت، ط١، ١٩٩١.

ـــــــ المواكب الاسلامية، تحقيق حكمت اسماعيل، منشورات وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية، دمشق، ١٩٩٣.

- ليون الأفريقي، الحسن بن محمد الوزان، (ت ٤٥٧هـ/١٥٥٠م)، وصف أفريقيا، ترجمة من الفرنسية عبد الرحمن حميدة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية، ١٣٣٩هـ.

- الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، (ت ٤٥٥هـ/١٠٦٣م)، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥.

- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)، إغاثة الأمة بكشف الغمة أو تاريخ المجاعات في مصر، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٩٨٠.

ـــــــ،البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب مع دراسة في تاريخ العروبة في وادي النيل، تحقيق وتأليف عبد المجيد عابدين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩.

ـــــــ،السلوك لمعرفة دول الملوك،٤ ج،١٢ م، (ج١+ج٢)، تحقيق محمد مصطفى زيادة، (ج٣+ج٤)، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، ١٩٥٦-١٩٧٢.

ـــــــ،المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، ٣ج، تحقيق محمد زينهم ومديحه الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٨.

- الملطي، عبد الباسط بن خليل بن شاهين،(٩٢٠هـ /١٥١٤م) نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين، تحقيق محمد كمال الدين علي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ١٩٨٧.

- ابن مماتي، أسعد، (ت ٦٠٦هـ/١٢٠٩م)، قوانين الدواوين، تحقيق وجمع عزيز سوريال عطية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩١.

- المناوي، محمد عبد الرؤوف ابن تاج العارفين بن علي، (ت ١٠٣١هـ/١٦٠٤م)، النقود والمكاييل والموازين، تحقيق رجاء السامرائي، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية، ١٩٨١.

- المنصوري، الأميرركن الدين بيبرس الداوادار، (ت ٧٢٥هـ/١٣٢٤م)، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق دونالدس ريتشارد، الشركة المتحدة للتوزيع، بيروت، ١٩٩٨.
______،مختار الأخبار (تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ)، حققه وقدم له ووضع فهارسه عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٩٩٣.
- ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، (ت ٧١١هت/١٣١١م)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٩٧٠.
- الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (الدولة المرينية) ، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٥.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، (ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣٠، تحقيق محمد عبد الهادي شعيرة و محمد مصطفى زيادة،ج٣١،تحقيق الباز العريني وعبدالعزيز الاهواني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠ - ١٩٩٢.
- النويري، محمد بن قاسم الإسكندراني، (ت بعد ٧٧٥هت/١٣٧٢م)، الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، ٣ج، تحقيق ايتين كومب وعزيز سوريال عطية، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الركن، الهند، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، (ت ٦٩٧هـ/١٢٩٨م)، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ٥ج، تحقيق حسنين محمد ربيع وسعيد عبد الفتاح عاشور، ١٩٧٥.
- ابن الوردي، زين الدين عمر بن مظفر، (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، تاريخ ابن الوردي المسمى، (تتمة المختصر في أخبار البشر)، ٢ج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٦.
- ياقوت، شهاب الدين أبي عبد الله الحموي، (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم البلدان، قدم له وصححه محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٧.
- ابن يحيى، صالح، (من وفيات القرن ٩هـ/١٥م)، تاريخ بيروت، تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي وآخرون، دار المشرق، بيروت، ١٩٦٩.
- اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى، (ت٧٥٩هـ/١٣٥٨م)، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، تحقيق و دراسة أحمد حطيط، عالم الكتب،ط١، ١٩٨٦م.

- اليونيني، أبو الفتح قطب الدين موسى بن محمد (ت ٧٢٦هت/١٣٢٥م)، ذيل مرآة الزمان، ٤ج، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الركن، الهند، ط١، ١٩٥٤-١٩٥٥.

## ب ـ المراجع

### ١ ـ المراجع العربية

- البرجاوي، سعيد أحمد، الحروب الصليبية في المشرق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٨٤م.
- البقلي، محمد قنديل، التعريفات بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٣م.
- توا، فادي إلياس، المناخ والأسعار والأمراض في بلاد الشام في عهد المماليك، بيروت، ١٩٩٨.
- حتاملة، محمد عبده، موسوعة الديار الأندلسية، الجامعة الأردنية، عمان، ط١، ١٩٩٩م.
- الحجي، حياة ناصر، أحوال العامة في حكم المماليك، (٦٧٨-٧٨٤هـ/١٢٧٩-١٣٨٢م)، دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع، الكويت، ط١، ١٩٨٤م.
  ـــــ، أسواق القاهرة في القرنين الثامن والتاسع للهجرة/ الرابع عشر والخامس عشر للميلاد، بحوث ودراسات في التاريخ العربي، تحرير ناظم كلاس، دمشق، سوريا.
  ـــــ، العلاقات بين سلطنة المماليك والممالك الإسبانية في القرنين ٨-٩هـ/١٤-١٥م، دراسة وثائقية، الكويت، ط١، ١٩٨٠م.
- حسن، علي إبراهيم، تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٣، ١٩٦٧م.
- خرابشة ، سليمان عبد العبدالله، نيابة طرابلس في العصر المملوكي، مكتبة جامعة اليرموك، عمان،١٩٩٣م.
- خربوطلي ، علي حسني ،مصر في العصر العربي الاسلامي منذ الفتح العربي الى الفتح العثماني ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٣م.
- خلف الله، ابتسام مرعي، العلاقات بين الخلافة الموحدية والمشرق الإسلامي ٥٢٤-٩٣٦هـ/١١٣٠-١٥٢٩م، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٥م.
- خليفات، عوض محمد، مملكة ربيعه العربية في وادي النيل (القرن ٣-٩هـ)، نشر بدعم من الجامعة الأردنية، عمان.

- دحلان، السيد أحمد زيني، أمراء البلد الحرام منذ أولهم في عهد الرسول ﷺ حتى الشريف حسين بن علي، بيروت، ١٩٨١م.
- دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.
- الريطي، ممدوح عبد الرحمن، دور القبائل العربية في صعيد مصر منذ الفتح الإسلامي حتى قيام الدولة الفاطمية وأثرها في النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، مكتبة مدبولي، القاهرة.
- زقلمة، أنور، المماليك في مصر، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م.
- الزهراني، ضيف الله يحيى، أسعار المواد الغذائية بمكة المكرمة خلال الفترة، (٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٩١م.
- زيادة، محمد مصطفى وآخرون، دراسات عن المقريزي ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، الجمهورية العربية المتحدة ، القاهرة ، ١٩٧١م.
- زيادة، نقولا، دمشق في عصر المماليك ، مؤسسة فرانكلين للطباعة و النشر ، بيروت – نيويورك ، مكتبة لبنان .
  ـــــ، رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، بيروت، ١٩٤٣م.
- سالم، السيد عبد العزيز، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٢م.
  ـــــ، دراسة في تاريخ الايوبيين والمماليك ، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٩٢م.
  ـــــ، تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٦م.
  ـــــ، طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ،القاهرة ،١٩٦٩م.
- السباعي، أحمد، تاريخ مكة (دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران)، مطبوعات نادي مكة الثقافي، مكة المكرمة، ط٦، ١٩٨٤م.
- سرور، محمد جمال الدين، دولة بني قلاوون في مصر، (الحالة السياسية والاقتصادية في عهدها بوجه خاص)، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٠م.
- سعيد، إبراهيم حسن، البحرية في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، ١٩٨٣م.

- سليم، محمود رزق، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الآداب، القـاهرة، ١٩٣٧م.
- السيد، محمود، تاريخ عرب الشام في العصر المملوكي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسـكندرية، ١٩٩٧م.
- شبارو، عصام، تاريخ المشرق العربي الإسلامي، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.
- صبرة، عفاف سيد، العلاقات بين الشرق والغرب "علاقة البندقية بمصر والشـام فـي الفـترة ١١٠٠-١٤٠٠م، دار النهضة العربية، بيروت، د.ط، ١٩٨٣م.
- ضومط، أنطوان خليل، الدولة المملوكية التاريخ السياسية والاقتصادية والعسكرية، دار الحداثة، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م.
- الطراونة، طه ثلجي، مملكة صفد في عهد المماليك، دار الآفـاق الجديـدة، بـيروت، ط١، ١٩٨٢م.
- طرخان، إبراهيم علي، مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، مكتبة النهضـة المصريـة، القاهرة، ١٩٦٠م.
ــــــ، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح، تاريخ الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٤، ١٩٨٢م.
ــــــ، دراسات في تاريخ الحضارة، الكويت، ١٩٨٥م.
ــــــ، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢م.
- عاشور، فايد حماد، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين والمغول في العصر المملوكي، جـروس برس، طرابلس، لبنان، ط١، ١٩٩٥م.
- العبادي، أحمد مختار، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٥م.
ــــــ، قيام دولة المماليك الاولى في مصر و الشام، دار النهضة العربية، بيروت، لبنـان، ١٩٦٩م.
- العبادي، أحمد مختار والسيد عبد العزيز سالم، تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.
- عباس، إحسان، تاريخ بلاد الشام في عصر المماليك، مطبعـة الجامعـة الأردنيـة، عمـان، ١٩٩٨م.

- الغامدي، مسفر بن سالم عريج، الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي، دار المطبوعات الحديثة، جدة، ط١، ١٩٨٦م.
- الغزي، كامل البالي الحلبي، (ت ١٣٥١/١٩٣٢م)، نهر الذهب في تاريخ حلب، دار القلم العربي، حلب.
- غوانمة، يوسف درويش، أيلة (العقبة) و البحر الأحمر، دار هشام، إربد، ط١، ١٩٨٤.
ـــــ، تاريخ شرقي الأردن في عصر دولة المماليك الأولى ،٢ق، وزارة الثقافة والشباب،جمعية عمال المطابع الأردنية ، عمان، ١٩٧٩م.
ـــــ، دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين في العصر الإسلامي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٨٣م.
ـــــ، نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة، عمان، ١٩٨٢م.
- الفقي، عصام عبد الرؤوف، الدول الإسلامية المستقلة في الشرق، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٧م.
- فهمي، عبد الرحمن فهمي، الوحدات النقدية المملوكية، مكتبة تهامة للنشر و التوزيع، جدة، ط١، ١٩٨٣م.
- فهمي، نعيم، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣م.
- قاسم ، قاسم عبده ـ السيد ، علي ، الأيوبيون والمماليك، (التاريخ السياسي والعسكري، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية)، ط١، ١٩٩٥م.
- قاسم، قاسم عبده، عصر سلاطين المماليك، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٩٤م.
ـــــ، النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، ط١، ١٩٧٨م.
- القحطاني، راشد سعد راشد، أوقاف السلطان الأشرف شعبان علي الحرمين، المملكة العربية السعودية، الرياض، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- القوصي، عطية، تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، دار المعارف، مصر، ط١، ١٩٧٦م.
- ماجد، عبد المنعم، التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك في مصر دراسة تحليلية للأزدهار والانهيار، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٨م.

ـــــــ، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القـــاهرة، ط٢، ١٩٧٩م.
ـــــــ، طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر، مكتبة الأنجلو المصريـــة، القـــاهرة، ١٩٧٨م.
- ماهر، سعاد، محافظات الجمهورية العربية المتحدة و آثارها الباقية فـــي العصـــر الإســلامي، القاهرة، ١٩٦٦م.
- مبارك، علي باشا، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشــهيرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٠م.
- مصطفى، أحمد أمين، الحياة في القرن الثامن الهجري كما تصورها رحلة ابن بطوطة، مطبعـة السعادة، القاهرة، ١٩٩٢م.
- النبراوي، فتحية، تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، جدة، ١٩٨٥م.
- النجيدي، محمود بن محمد، النظام النقـدي المملوكـي، (٦٤٨-٩٢٢هـــ/١٢٥٠-١٥١٧م)، الإسكندرية، ١٩٩٣م.
- النخيلي ، درويش ، السفن الاسلامية على حروف المعجم ، دار المعارف ، القـــاهرة ، ط٢، ١٩٧٩م.
- اليوزبكي، توفيق، تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر المملوكي، وزارة التعليــم العــالي، جامعة الموصل، ١٩٧٥م.
- يوسف، جوزيف نسيم، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوســطى، مؤسســة شباب الجامعة، الإسكندرية، ط١، ١٩٨٨م.
ـــــــ، العدوان الصليبي على مصر (هزيمة لويس التاسع في المنصورة و فارسـكور)، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م.

## ٢ـ المراجع الأجنبية المعربة

- ادي شير ،معجم الألفاظ الفارسية المعربة، مكتبة لبنان ،بيروت،١٩٨٠م.
- أشتور ،آ ، التاريخ الاقتصادي و الاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى ، ترجمـــة عبد الهادي عبلة ، دار قتيبة ،دمشق ،١٩٨٥ م.

- بار كر ،أرنست ،الحروب الصليبية ،نقله إلى العربية السيد الباز العريني ،دار النهضة العربيـة ،بيروت ،ط٤ ،١٩٩٠م.
- برتولد ،شبولر ،العالم الإسلامي في العصر المغولي ،نقله إلى العربيـــة خـــالد أســـعد عيســى ،مراجعة و تقديم سهيل زكار ،دار زكار للطباعة و النشر ،دمشق ،ط١،١٩٨٢م.
- بولياك ، أ ، الإقطاعية في مصر وسوريا وفلسطين ولبنان ، ترجمة عاطف كرم ، منشـورات دار المكشوف ، بيروت ، لبنان.
- جوانفيل، جان دي، مذكرات جوانفيل (القديس لويس، حياته و حملاته على مصر و الشـــام)، ترجمة حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة، ط١،١٩٦٨م.
- حتي ،فليب ،تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ،ترجمة كمال اليازجي ،دار الثقافة ،بـــيروت ،ط٢ ،١٩٧٢م.
______، موجز تاريخ الشرق الأدنى، ترجمة أنيس فريحة، دار الثقافة، بيروت.
- ديل، شارل، البندقية، ترجمة أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٧م.
- رنسيمان، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية (مملكة عكا و الحملات الصليبية المتأخرة) ،نقله الى العربية السيد الباز العريني ،دار الثقافة، بيروت ،ط١ ،١٩٨٠م.
- ريمون ،أندريه ،القاهرة تاريخ حاضرة ،ترجمة لطيف فرج ،دار الفكر للدراســـات و النشـر ،القاهرة ،ط١ ،١٩٩٤م.
- زامباور ،معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ،أخرجه زكي محمد حســن بك و حسن أحمد محمود ،مطبعة جامعة فؤاد الأول ،١٩٥١م.
- فييت ،جاستون ،القاهرة مدينة الفن والحضارة ، ترجمة مصطفى العبادي ، مكتبـــة لبنـــان ، بيروت ،١٩٦٨م.
- لابدوس ،أيرا ،مدن اسلامية في عهد المماليك ،نقله إلى العربية علي ماضي ،المؤسسة الأهليـة للنشر والتوزيع ،بيروت ،١٩٧٨م.
- مورتيل،ريتشارد، الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي ، جامعـــة الملـك سعود ،الرياض.
- موير، وليم ،تاريخ دولة المماليك في مصر ، ترجمة محمود عابدين و سليم حســـن ، مكتبـة مدبولي ، القاهرة ، ط١،١٩٩٥م.

- نيدس ، آيل أمليا ،تاريخ قبرص ،ترجمة معهد اللغات و الترجمة ، مكتبة ريمون الجديدة ،لبنان .
- هايد ، ف ،تاريخ التجارة في الشرق الادنى في العصور الوسطى، ترجمة احمد رضا محمد ،الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١م.
- هنتس ،فالتر ،المكاييل والاوزان الاسلامية وما يعادلها في النظام المتري ، ترجمة كامل العسلي ،عمادة البحث العلمي، الجامعة الاردنية .

## ٣ـ الرسائل الجامعية :

- ابو زيتون ، منال احمد ،المجاعات في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة اليرموك، اربد ،١٩٩٣م.
- الشامي ،عمر علي ذياب ، الذيل على تاريخ ابن كثير المسمى تاريخ ابن حجي ، (ت ٨١٦هـ/١٤١٣م) ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة اليرموك، اربد ، ١٩٩٩م.
- الشريدة ، آمنة شفيق كليب ، الجيش في بلاد الشام في العصر المملوكي ،رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة اليرموك، اربد ،١٩٩٣م
- الصوافي، طالب عبد الفتاح، القلاع في شمال فلسطين في فترة الصراع الفرنجي الإسلامي،رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، اربد ، ١٩٩٧م.
- عطاري ، نسيم محمود ، كتاب الفلاكة والمفلوكون ،رسالة ماجستير غير منشورة ، الجامعة الاردنية ، عمان ، ١٩٩٧م.
- المولى ، سالم يونس محمد ، العراق في السياسة المملوكية ٦٥٦-٧٨٤هـ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة الموصل ، ١٩٨٩م.

## ٤ ـ المراجع الاجنبية :

-Atiya , Aziz S" .The Crusade in the Fourteenth Century".A History of the Crusades . ed. , Kenneth M Setton . vol 3 . USA . Wisconsin . University Press . 1975.

,_____ The Crusade In The Later Ages, London, 1938.

-Ayalon, David" .The System of Payment in Mamluk Military Society." Journal of the Economic and Social History of the Orient. vol 1 . Leiden E J . 1958.

-Holt , P M . The Age of the Crusades in the Near East from the eleventh century to 1517. Longman .London and New York . 1986.

-Irwin , Robert . The Middle East in the Middle Ages , the Early Mamluk Sultanate , 1250-1382 . Croom Helm . London.

-Luke , Harry . The Kingdom of Cyprus, 1291-1399. A History of the Crusades . ed . , Kenneth M Setton . vol 3 . USA. Wisconsin. University Press . 1975 .

-Setton , Kenneth M. The Papacy and the Levant ,(1204-1571 .(The American Philosophical Society . Philadelphia . 1976 . vol 1 .

## – بحوث منشورة في:

### ١ – دائرة المعارف:

– ألفرد بل، بني زيان،دائرة المعارف الإسلامية، ج٦.

– إيفر، الحفصيون،دائرة المعارف الإسلامية، ج٣.

– تريتون، بني رسول،دائرة المعارف الإسلامية، ج٤.

– سوبر نهيم، برجي، دائرة المعارف الإسلامية، ج٣.

ـــــ، حصن الأكراد، دائرة المعارف الإسلامية، ج٧.

– كاهن، الأراتقة، دائرة المعارف الإسلامية، ج٢.

– هارتمن، بريد، دائرة المعارف الإسلامية، ج٧.

### ٢ ـ الدوريات

– حبشي ، حسن ،"هجوم القبارصة على الإسكندرية(٧٦٧هـ/١٣٦٥م) من نصوص جديدة للنويري" ، المجلة التاريخية المصرية ، مج١٥ ، ١٩٦٩م.

– الحجي، حياة ناصر ، "الأحوال الداخلية في سلطنة الأشرف شعبان بن الحسين بن محمد بن قلاوون ٧٦٤-٧٧٨هـ/١٣٦٢-١٣٧٦م " مجلة عالم الفكر ، مج١٤ ،ع٣-٤، ١٩٨٣م.

- الزيات ، حبيب ،" خانات دمشق " ، مجلة المشرق، السنة السادسة والثلاثون ،كانون ثان –آذار ،١٩٣٨م.
- سالم ، السيد عبد العزيز ، " طرابلس الشام " ، مجلة كلية الآداب ،جامعة.الإسكندرية ، مـج١٦ ، ١٩٦٢م.
- قاسم ، قاسم عبده ، " الأسواق بمصر في عصر سلاطين المماليك " ، مجلـــة كليـــة الآداب ، جامعة القاهرة ، مج ٣٦-٣٧ ،ج١-ج٢، مايو ١٩٧٤-مايو ١٩٧٥.
- كاشف، سيدة اسماعيل، دراسات في النقود الإسلامية، المجلة التاريخية المصريـــة، مـــج١٢، ١٩٦٤م.

# الملخص

**" دولة المماليك الأولى في مصر والشام في عهد السلطان الأشرف شعبان بن حسين"**

**(٧٦٤-٧٧٨هـ/ ١٣٦٢-١٣٧٧م)**

**عدنان علي طه شطناوي**

إشراف

**الدكتور نعمان محمود جبران**

موضوع هذه الدراسة هو "دولة المماليك الأولى في مصر والشام في عهد السلطان الأشرف شعبان بن حسين"، من سنة (٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)، ولغاية سنة (٧٧٨هـ/ ١٣٧٧م) وتأتي أهمية إختيار هذا الموضوع من قلة الدراسات الجادة الحديثة التي عالجت هذا الموضوع في هذه الفترة، واذا تناولها أحدهم فبإشارات محددة لا تفي بالغرض.

تشتمل هذه الدراسة على مقدمة وتمهيد وخمسة فصول وخاتمة. وعالجت هذه الفصول الجوانب الأساسية التالية: ففي التمهيد تناولت نسب السلطان الأشرف شعبان ومولده ونشأته، ثم الظروف السياسية التي كانت سائدة آنذاك قبل وبعد خلع المنصور محمد بن حاجي، ومن ثم المميزات التي تهيأت في شخصية السلطان الأشرف شعبان والتي ساعدت على اجتماع كلمة كبار الأمراء عليه، وتوليه السلطنة، مع بيان الدور الكبير الذي يلعبه يلبغا العمري أتابك الجيش في مجرى تلك الأحداث.

أما الفصل الأول. فيتطرق الى اضطراب الحياة السياسية في عهد السلطان الأشرف شعبان في كل من مصر وبلاد الشام، والبلاد الواقعة تحت نفوذ دولته كالحجاز واليمن وبـــلاد النوبـــة. ويصور لنا أهم الملامح السياسية لعهده مع بيان أبرز الفتن والثورات التي حدثت في مصر مثـــل فتنة الأمير طيبغا الطويل، ومحاولة الأمير يلبغا العمري أتابك الجيش خلع الســـلطان الأشـــرف شعبان وتنصيب أخيه أنوك سلطانا مكانه حتى يسهل عليه حكم الدولة. ومن ثم محاولة انقـــلاب المماليك اليلبغاوية الأجلاب على الأشرف شعبان بقيادة الأمير أسندمر الناصري أتابك الجيـــش، وما تبع حركتهم من اضطراب وفوضى كادت أن تهدد استقرار البلاد. ومحاولة الأمـــير ألجـــاي اليوسفي زوج أم السلطان شعبان وأتابك الجيش الاستئثار بالسلطة والحكم. متجـــاهلا الســلطان شعبان وأمراء دولته. كما يصور بلاد الشام سياسيا من حيث ثورات العربان (الأعراب) المتكررة بقيادة الأمير حيار بن مهنا أمير عرب الشام الذي استغل ضعف دولة الممـــاليك المركزيـــة فـــي القاهرة وحاول الخروج عن الطاعة أكثر من مرة. وبالنسبة لأمراء الحجاز الأشـــراف، وأمـــراء اليمن الرسوليين، فقد دانوا بالولاء والطاعة لدولة المماليك، وتميزت العلاقة بينهما بالود والتبعية، أما بلاد النوبة فتم اخضاع أمرائها من بني الكنز بالقوة بعد أن تأكدت رغبتهم بالخروج عن طاعة دولة المماليك.

أما الفصل الثاني فعالجت فيه العلاقات الخارجية لدولة المماليك في عهد الأشرف شـــعبان مثل علاقة دولة المماليك مع مملكة أرمينية الصغرى والايلخانية المغولية في فـــارس والعـــراق وبلاد القفجاق، والدولة البيزنطية، ومملكة سلاجقة الروم، والأراتقة في مدينة مـــاردين، ودولـــة التركمان وسنجار، والدول الأفريقية الشمالية والأندلس. وهذه العلاقات يعتبر بعضها اســـتمرارا

للعلاقات التي ارتبطت بها دولة المماليك مع الدول قبل ذلك منذ أيام أسلافه السلاطين، وبعضها الآخر كان نتيجة لما استجد من ظروف فيما بعد في كل من دولة المماليك نفسها وهذه الدول.

وبالنسبة الى الفصل الثالث فتناولت فيه علاقة دولة المماليك في عهد السلطان شعبان مع الصليبيين تلك العلاقة التي تميزت بالعداء حينا وبالصفاء حينا آخر. فالصليبيون كانوا يتحينون الفرص لإعادة السيطرة على بيت المقدس والساحل الشامي لكي يعيدوا أمجادهم السابقة التي سلبهم إياها المماليك بعد أن طردهم الأشرف خليل من المنطقة سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م.

وقسم الفصل الى ثلاث محاور رئيسية الأول: يبين الأطماع الصليبية تجاه مصر والشام ويظهر بعض الحملات الصليبية التي وجهتها أوروبا الى المنطقة. أما المحور الثاني فيصور الحروب التي خاضها المماليك لصد هذه الهجمات الصليبية على السواحل المصرية والشامية ودور المماليك في حماية المنطقة من خطرهم المتكرر على الثغور والمدن المملوكية. أما المحور الثالث وهو الأهم فيتمركز حول الحملة الصليبية التي قادها ملك قبرص بطرس الأول لوزنيان على مدينة الإسكندرية سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م في محاولة منه للوصول الى الهدف الصليبي المنشود وهو بيت المقدس. فالاستراتيجية التي قامت عليها فكرة الحملة هي تقويض سلطة المماليك في مصر حتى يسهل الوصول الى بيت المقدس. وقد بينت أسباب اختيار مدينة الاسكندرية كهدف للحملة، وكذلك استعدادات الملك بطرس قبيل الحملة، وخط سيرها، ومقدار الضرر الذي أصاب المدينة، وردة فعل السلطان شعبان ورجال دولته حيالها، ومن ثم النتائج التي ترتبت على هذه الغزوة على الصعيدين الإسلامي والصليبي، وصدى هذه الوقعة في العالمين الإسلامي والغربي.

وتناولت في الفصل الرابع الحياة الاقتصادية في عهد السلطان شعبان من حيث التجارة الداخلية والخارجية، ومدى تأثر التجارة بالأحداث الداخلية والخارجية كالفتن والثورات، واعتداءات الصليبيين على مدينة الإسكندرية، وما تبع ذلك من تعطيل لسبل التجارة وقلة الواردات. وكذلك دراسة الأسواق التجارية وأهم السلع والأسعار والعوامل المؤثرة فيها، والضرائب والنقود والأوزان والمقاييس والمكاييل، الى جانب الزراعة والصناعة.

وخصصت الفصل الخامس لدراسة أسباب فساد الحكم في عهد السلطان شعبان من حيث مؤسسة الجيش والمؤسسة الإدارية المتمثلة بالأمراء ورجال القضاء. وانعكاس هذا الفساد على دولة المماليك. ثم دراسة ظروف مقتل السلطان شعبان، والذي يعني بداية سقوط دولة المماليك الأولى فعلية. بانتقال الحكم الى المماليك الجراكسة بعد ست سنوات من مقتله.

# Abstract

**The Mamluk's First State in Egypt and the Levant during the reign of Sultan Al- Ashraf Sh'ban Bin Hussien in the period from (764.A.H/ 1362A.D) until (778A.H./1377A.D.).**

**BY**

**Adnan A. T. Shatnawi**

**SUPERVISED BY**

**Prof. No'man M. Jubran**

The subject of this study is the Mamluks' First state in Egypt and the Leavant during the reign of Sultan Al- Ashraf Sh'ban Bin Hussien in the period from (764.A.H./ 1362A.D) until (778A.H. / 1377A.D.).

The significance of this subject is due to the lack of serious modern studies clarifying such subject. Even though it has been discussed, it has been mentioned very insufficiently.

The study includes an introduction, a preface, five chapters and a conclusion. The study clarifies the following essential aspects:

In the preface, the study discusses the pedigree of Sultan Al- Ashraf Sh'aban as well as his birth and raising. Then the political circumstances which were prevailing at the time before and after the deposition of Al-Mansour Mohammad Bin Haji. Also the feasible characteristics in Sultan Al- Ashraf's personality which helped to gain the unanimous agreement upon him, leading to assume the reign, as well as showing the tremendous role played by prince (Yalbqa Al- Omari Atabik Al-Jaish) during the course of these events.

The first chapter touches on the upheavals of political life during the reign of Sultan Al- Ashraf in both Egypt and The Levant, and the countries which were under his power, such as Al-Hijaz, Al- Yaman and the land of Al- Nawbah.



It also describes the most prominent political features during his reign with a display of the most important revolutions and sedition occurred in Egypt, such as the sedition of prince Yalbgha Atabik Al- Jaish to depose Sultan Al- Ashraf Sha'ban and declaring his brother a Sultan instead, so that the second can facilitate his ruling over the state. After that I discuss the revolutions of Al- Mamalik Al-Yalbqhawieh Al- Ajlab against Sultan Al-Nasri Atabic Al- Jaish then clarifying what followed their movement of upheavals and disturbance which nearly threatened the country's stability.

The attempt of prince Al- Jai Al- Yousifi, the hasband of Sultan Sha'ban's mother and Atabic Al- Jaish to monopolize the authority and rule is also discussed in which the prince ignored Sultan Sha'ban and his princes. It also depicts The Levant politically in terms of frequent revolutions commanded by prince Hayar Bin Mihanna, the prince of The Leavant who exploited the weakness of The Mamluks central rule in Cairo, when he tried more than once to violate obedience.

The princes of Al- Hijaz (Al- Ashraaf) and the princes of Al-Yaman (Al- Rasoleien) were all submitted to the Mamluks' state; in which the relationship between them was characterized by cordiality and subordination.

The country of Al- Nawabah's princes were also submitted by force after confirming their desire to be independent.

Chapter two deals with the external affairs of Al- Mamluks during the reign of Al-Ashraf Sha'ban such as the relations of Al- Mamluks with the

following countries: Arminiah Minor Magoul's Elkhanieh in Persia and Iraq Al-Qafjaq, The Bysantine empire, The kingdom of Salagikat Al-Room, The Aratikah in Mardin city, The Turks and Sinjar, North African countries and Al- Andalus. These relationships were considered to be a continuation of relations that had existed between the Mamluks and the states before that in the days of his ancestors, the Sultans. Some other relations were a result of what came up later both in the state of The Mamluks itself and these states.

Chapter three clarifies the relationship of the Mamluks- during Sultan Sha'ban's rein- with the Crusaders. That relation which was characterized by hostility for times and pureness for others.The Crusaders seized the opportunities to re-control Jerusalem and The Levant coast, so that they could revive their past glories which have been spoliated by Mamluks after centrifuged by Al-Ashraf Khaleel on (690A.H./ 1291A.D.).

Chapter three is divided into three primary aspects. The first clarifies how The Levant and Egypt were coveted by the crusaders in addition to some crusading expeditions which had been guided by Europe to the area. The second aspect clarifies the battles fought by The Mamluks to repel the crusading attacks on the west coasts of Egypt and the Mamluks' role of protecting the whole area against their recurring attacks on forts and cities. The third aspect, the most important, concentrates on the crusading attack led by Cyprus Peter I Lusignan on Alexandria on (767 A.H./ 1365 A.D.) which was just a try to reach the crusading target; Jerusalem. I also illustrate the reasons for choosing Alexandria to be the bridge for their target in addition to the relationships of king Peter 1 before the expedition. I also discuss the scheme of the expedition, the damage of the city, the reaction of Sultan Sha'ban and then the consequences resulted from that battle on both

the Islamic and the Crusading levels and the echo of this event in the Islamic and the Western world.

Chapter four clarifies the economic life during the reign of Sultan Sha'ban in terms of internal and external trade and how it was affected by internal and external events such as revolutions and the crusading attacks on Alexandria in addition to the breakdown of trade roads and the lack of supplies beside studying commercial markets and the most prominent goods. Prices, profits, taxes, measures beside industry and agriculture.

Chapter five mainly focuses on the reasons of corruption of rule during the reign of Sultan Sha'ban in terms of the institution of army and the administrative institution exemplified in princes and judges in addition to the reflection of that corruption on the Mamluks, then discussing the reasons of Sultan Sha'ban assassination which meant the threshold of the real falling apart of the first Mamluks state by transporting the reign to the Mamluks Al- Jarakisah after six years of his assassination.